عبد الوهاب مطاوع

نهر الحياة

دار الشروق

نهر الحياة

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م
الطبعة الثانية
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م
الطبعة الثالثة
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م
الطبعة الرابعة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

الإهداء

مرة أخرى ..

إلى كل أصدقائي على الورق

أملاً .. وحبًا .. وعرفانًا ..

عبد الوهاب مطاوع

« إنما أشكو بثِّى وحزنى إلى الله »

« من سورة يوسف »

« قرأها عمر بن الخطاب وهو يصلى بالناس فبكى حتى ابتلَّت لحيته الشهباء ! »

شكوتُ وما الشكوى لمثلى عادةٌ
ولكن تفيضُ النفسُ عند امتلائها
(شاعر عربى)

عيـــد الميـــلاد

أنا يا سيدى شاب فى التاسعة عشرة من عمرى ، نشأت فى جو أسرى هادئ يظلله الحب والتفاهم بين أبى وأمى وكنا ولدين أنا الأكبر طالب فى السنة الأولى بإحدى كليات جامعة الاسكندرية والأصغر طالب بالسنة الثانية الثانوية ، وأبى محام بإحدى المدن الصغيرة القريبة من الاسكندرية ، وأمى ربة بيت متعلمة جميلة هادئة .. من هذا النوع الذى «يصالح» الدنيا مهما فعلت به .. نفسها راضية دائما .. باسمة فى وجوه الناس .. تساعد كل من يطلب مساعدتها وتحب جيرانها وأهلها وأهل أبى ويحبها الجميع وحين حصلت على الثانوية العامة ، أراد أبى أن يلحقنى بكلية جامعية فى عاصمة الاقليم الذى نعيش فيه لكى أذهب إلى الكلية وأعود فى نفس اليوم إلى بيتنا الهادئ فى المدينة الصغيرة لكن نفسى كانت تهفو إلى الالتحاق بكلية أخرى لا وجود لها فى عاصمة الاقليم .. ورغم ذلك فلم أعارض أبى خاصة حين قال لى إنه لا يريد لنا أن نفترق بلا ضرورة ، لكيلا نحرم من صحبتنا ومن اجتماعنا كل مساء على مائدة العشاء كما تعودنا منذ صغرنا ، ووافقته احتراما لمشاعره وتقديرا لرغبته فى أن نكون تحت رعايته وبالقرب منه ، لكن نفسى كانت تهفو الى الكلية الأخرى ويبدو أنى حزنت فى داخلى لحرمانى منها .. وان هذا الحزن قد ظهر على لأنى بعد أيام من ظهور النتيجة وجدت أبى وأمى جالسين فى مكتب

أبى فى الشقة يتهامسان ، كعادتهما حين يتشاوران فى أمور الحياة ، ثم خرج إلىّ أبى وأنا جالس فى الصالة اتفرج على التليفزيون وسألنى هل ما زلت راغبا فى الالتحاق بهذه الكلية ؟ ورأيت حيرته فأشفقت عليه وقلت له لا يا أبى لا أريدها ولا أريد أن أبتعد عنكم .. فابتسم ابتسامة حزينة وقال لى وكأنه يخاطب نفسه : لا بل أنت تريدها لكنك ولد طيب ولا تريد أن تؤلمنى ، لكن الحق معك .. إذ لابد أن نتعود على الفراق من الآن لأن الدنيا لا تدوم على حال واحد ثم قبلنى وأعلن لى موافقته على التحاقى بهذه الكلية ، وبعد أيام كنا نقدم أوراقى فى مكتب التنسيق ، وقبلت أوراقى فى الكلية ، واقترب موعد الدراسة ، وجاء يوم السفر فاستيقظنا جميعا من الفجر وركبنا القطار الذى يغادر بلدتنا «فى عتمة» الفجر ، ووصلنا إلى الاسكندرية فأقمنا فى فندق صغير ، ونزلت مع أبى نطوف شوارع المدينة القريبة من كليتى حتى عثر على سكن مناسب لى فى شقة قديمة مفروشة من غرفتين تؤجر للطلبة بإيجار معقول فى الشتاء بشرط اخلائها قبل الصيف لتؤجر خلاله بإيجار مضاعف عدة مرات .

وانتقلت أسرتى من الفندق لتقيم معى فى الشقة الأيام الأولى من الدراسة وراحت أمى تصنع لى طعاما يكفينى أسبوعين ، وتنظم لى حياتى وترشدنى إلى كيفية تدبير حياتى وحدى ، ثم سافر أبى وأمى وشقيقى بعد أن اطمأنوا على وتعرفوا على جيرانى فى نفس الدور ، وأوصوهم بى خيرا ، وكان جيرانى الملاصقون لى أسرة طيبة لموظف فى الميناء فى الأربعين من عمره يعيش مع زوجته الاخصائية الاجتماعية وحدهما ولم ينجبا وكانا يتجنبان التعرف على سكان هذه الشقة من الطلبة قبلى لكنهما توسما فى أسرتى الطيبة فرحبا بمعرفتها وخاصة أمى بالذات التى كسبت ودهما سريعا ، ووعداها برعايتى وتبادلا مع

أبى أرقام التليفون . ولا أنسى منظر أبى وهو الرجل الوقور الذى طالما رأيته يزأر فى المحكمة . وهو يقول لجارى على السلم مودعا والدموع فى عينيه : أستودعتك الله .. واستودعتك ابنى وابنك ثم يشد على يديه بانفعال ويعانقه ويعانقنى أمامه ويمضى بغير أن ينظر وراءه ، أما أمى فكانت لدهشتى أكثر تماسكا .. فقبلتنى وابتسامتها لا تفارقها وعانقت زوجة جارى وقبلتها وحيتهما وانصرفت ، أما شقيقى الأصغر فقد انفجر باكيا على السلم ، حتى ضحك جارى وزوجته مستغربين وتعجبت أنا أيضا لأننا رغم حبنا لبعضنا كنا دائمى «النقار» مع بعضينا ودائمى الاختلاف حول كل شىء أنا أشجع الزمالك .. وهو يشجع الأهلى ، أنا أحب القراءة والهدوء وهو يحب الموسيقى والأغانى الأجنبية والضجيج ، وحين كنا معا فى المدرسة كنا نلعب معا لفريق الكرة وفى التقسيمة كاد يكسرنى أكثر من مرة حتى تعجب مدرس التربية الرياضية من عنفه معى فى الملعب وحذره مرارا ومع ذلك فقد كنا لا نغادر المدرسة إلا سويا .. ولا نتفسح إلا معا ولا نذهب الى السينما مساء كل خميس إلا ويدى فى يده .. ونبيت كل ليلة وليس فى قلبينا سوى الحب الخالص لنا ولأبينا وأمنا .

وسافرت أسرتى وبدأت حياة الغربة .. بعيدا عن أسرتى لأول مرة .. ولا أنكر أنى اضطربت واهتززت لكن اغراء تجربة الحياة الجامعية الجديدة كان يخفف من ذلك ، ومضت الأيام الأولى وكان اتفاقى مع أبى أن أزورهم بعد ١٥ يوما لأمضى معهم عطلة نهاية الأسبوع ويزورونى هم بعد الأسبوعين التاليين لقضاء العطلة معى .. وجاء يوم سفرى لبلدتى وبدأت أجمع ملابسى التى سأحملها معى «للغسيل» فى بيتنا فإذا بالباب يطرق وإذا بأبى وأمى وشقيقى لم يطيقوا انتظارى فجاءوا هم إلى .. وكانت مفاجأة سعيدة ..

وأمضت أسرتى معى يومين لاحظت خلالهما أن شقيقى قد كف عن معاندتى ومناقرتى كان الفراق القصير بيننا قد هذب سلوكه نحوى .. «وشكوت لأبى وأمى من هذا الأدب» الذى لم أتعوده منه فضحكا طويلا .. وقالا لى إنه لم ينم خلال الأيام الأولى من عودتهم لبلدتنا .. وانه كان يلح عليهما فى الحضور منذ الأسبوع الأول .. وأن حاله فى غيابى كان « يصعب » عليهما فازددت حبا له وعشنا يومين ونحن فى غاية السعادة وزار ابواى جيرانى وقدما لهم هدية بسيطة من منتجات بلدتنا واطمأنا على ، والحق أن جارى لم يقصر فى أداء ما وعد به أبى .. فكان يطرق بابى كل مساء .. ويسألنى عن أحوالى ، ويسألنى عن دراستى ويحذرنى من رفاق السوء فى المدينة الكبيرة ويدعونى للعشاء معها فأعتذر بأدب للمذاكرة وكانت زوجته الفاضلة حين تلقانى على السلم تصافحنى وتسألنى عن أحوالى وتطلب منى ارسال غسيلى إليها .. لكنى كنت اعتذر شاكرا لها عطفها . وسافرت أسرتى وتكررت زياراتها لى .. وبعد شهرين قال لى أبى إنه يتعلم قيادة السيارات ليشترى سيارة يزورنى بها مع الأسرة كل أسبوعين ، وبعد شهر آخر اشترى سيارة قديمة اشفقت عليه من ثمنها وتكاليفها لأنى أعلم أنه ليس ثريا وإنما عاش حياته قانعا بما يدره عليه عمله من دخل غير كبير ومعتبرا انى وشقيقى ثروته الحقيقية .

وأحسست بالاشتياق لبلدتى وأصدقائى فيها فطلبت منهم عدم الحضور فى المرة التالية لأسافر إليهم أنا وسافرت فعلا ..وزرت أصدقائى ومعارفى فيها ولاحظت لدهشتى أن أبى وأمى وأخى يعاملوننى خلال وجودى معهم بحفاوة غريبة كأننى «ضيف» نزل عندهم .. ولست عضوا من الأسرة .. كما يهتمون بى كأنى شيء كبير أو رائد من رواد الفضاء مع أنى طالب بالسنة الأولى بإحدى الكليات . فأنا ضيف الشرف على المائدة الذى تقدم له أطايب الطعام

وأخى لا يرد معاكساتى له .. سوى بالابتسام والاحترام وأبى يصحبنى معه فى المساء إلى النادى الذى يلتقى فيه بزملائه من المحامين ورجال القضاء ويقدمنى لهم فخورا بى . وجعلنى هذا أكثر سعادة وأكثر حبا وإعجابا بأبى وعدت إلى الاسكندرية سعيدا واقترب موعد عيد ميلادى .. وتوقعت أن تتصل بى أسرتى تليفونيا لتهنئتى .. لأننا نحرص دائما على الاحتفال بأعياد ميلادنا كلنا ، ونجتمع فى كل مناسبة حول التورتة ونشترك فى هدية للمحتفل به .

وعدت من الكلية فى الساعة الثانية ظهرا .. وبدأت أعد طعامى وأنا أتوقع أن يدعونى جارى إلى التليفون فى أى لحظة لكن مضت الساعات وجرس التليفون لا يرن ، ثم دق جرس الباب فقمت لأفتحه فوجدت جارى أمامى مرتديا ملابسه الكامله ومعه زوجته مرتدية ملابسها وفى يدها حقيبة صغيرة ، وهما ينظران إلى بطريقة غريبة .. ثم طلب منى جارى أن أجمع ملابسى لكى أسافر إلى بلدتنا لأن أبى «تعبان» قليلا ويطلب أن يرانى فانخلع قلبى .. وأسرعت أعد حقيبتى وهممت بالنزول فوجدتهما يصحبانى فقلت لهما إنى أعرف موقف سيارات الأجرة ولا داعى لإزعجاهما لكنهما قالا انهما يريدان أن يطمئنا على أبى ويزورا بلدتى «بالمرة» لأنهما لم يزوراها من قبل .

وركبنا سيارة الأجرة .. وأنا منقبض الصدر .. وكلما رأيت نظرة الاشفاق فى عينى جارى أو زوجته ازددت انقباضا حتى وصلنا إلى بلدتنا فى الليل ، فاكتشفت هول ما جرى .

اكتشفت يا سيدى انى فقدت كل شىء فى لحظة أسود من ليل المحروم ، فقد أراد أبى بحنانه الزائد أن يفاجئنى فى عيد ميلادى بزيارتى مع أمى وأخى ليقيموا لى حفل عيد الميلاد .. ويوقدوا لى الشموع ويقدموا لى هديتهم ، فركبوا السيارة القديمة فى الصباح الباكر وخرجوا إلى الطريق حيث كان

ينتظرهم القدر عند سيارة نقل طائشة قضت عليهم جميعا فى لحظة واحدة .. الجميع .. الجميع يا سيدى .. أبى .. وأمى .. وأخى لأصبح فى لحظة واحدة يتيما .. بل مقطوعا من شجرة .. لا أب ولا أم ولا أخ .. ووجدت كل شيء قد انتهى .. ووجدت نفسى . واقفا فى سرادق العزاء بين زملاء أبى وأقاربه القليلين .. ووجدت الجميع يقبلوننى ويبكون من رجال القضاء إلى الموظف العجوز فى مكتب أبى .. كل شيء انتهى قبل وصولى .. وقد «غم» على فلم ألاحظ أن زوجة جارى كانت ترتدى السواد .. وظننت ذلك من الحشمة .. وليس إعلانا لضياع كل شيء فى حياتى .. ولازمنى جارى وزوجته فى بلدتى ثلاثة أيام وكانا لى كالأهل أو أقرب ثم اصطحبانى عنوة معهما إلى الإسكندرية لأواصل دراستى وأبتعد عن ذكريات بلدتى الحزينة ووجدت نفسى وحيدا فى الشقة المفروشة التى استأجرها لى أبى وزينتها لى أمى .. وشهدت شقيق وهو يكشف لى عن حبه بطريقة لم أرها منه من قبل وليته لم يفعل إذ ربما كانت أحزانى عليه أخف وطأة .

وجاءنى بعد أيام فى الاسكندرية أحد زملاء أبى مشكورا بأوراق كثيرة لأوقعها .. لكى أحصل على معاش أبى وإعانة الوفاة من النقابة الفرعية ولكى يرفع لى قضية تعويض ، ثم انتحى بى جانبا وقال لى إن فى ذمته دينا لأبى وأخرج ثلاثمائة جنيه أراد أن يعطيها لى فرفضت لأنى كنت متأكدا أنه لا دين لأبى عنده وعندما أصررت على الرفض ، طالبنى بأن أعتبرها قرضا أسدده حين أحصل على الإعانة أو التعويض فشكرته وجاءنى جارى الطيب وقال لى أنه ذهب إلى صاحب الشقة وأبلغه بما حدث وأن الرجل قد قرر تخفيض الإيجار عشرين جنيها كل شهر ، وأعطانى العقد القديم لأمزقه وأكتب معه عقدا جديدا بالإيجار المخفض .. فشكرته وشكرت صاحب الشقة .

وبدأت أواجه الحياة وحدى تماما .. لا ناصر ولا معين سوى أسرة هذا الجار الطيب الذى تمنيت لو كانت له ابنة لأرتبط به إلى آخر العمر وسوى زملاء أبي وأقاربه وأقارب أمي القليلين ، الذين يزورننى بين حين وآخر حين يزورون الاسكندرية ، وقد انخفض وزنى فى شهر واحد عشرة كيلو جرامات حتى أصبحت بنطلوناتى واسعة على وقلت ساعات نومى فلم أعد أنام أكثر من ثلاث ساعات متقطعة كل يوم .. وبعد عذاب .. وأسرفت فى تناول القهوة وقل تركيزى حتى أصبحت أذاكر الصفحة فى ساعتين لا أكاد أغادر الشقة إلا للكلية لساعات وأعود سريعا بلا أصدقاء ولا زملاء ..

وكلما جلست إلى كتبى أطلت على وجوه الأحباب من صفحاتها فيتمزق قلبى .. وأنفجر فى البكاء فى الشقة الخالية .. ورغم صيامى يومين كل أسبوع وصلاتى الطويلة فإنى ألوم نفسى أحيانا لأنى تمسكت بدخول هذه الكلية اللعينة فكنت السبب فى أن «يتشحطط» أبي وأمي وأخى ورائى ليزورونى وفى أن يشترى أبي سيارة ويقودها وهو لا يجيد القيادة ولم يشتر سيارة فى عمره وأسأل نفسى دائما هل لو كنت قد استجبت لرغبة أبي فى الالتحاق بالكلية القريبة من بلدتنا هل كان سيحدث ما حدث وأسألك هل تنصحنى بترك كليتى التى تسببت فى تدمير حياتى وإذا تركتها ماذا أفعل وأنا لا أطيق العودة إلى الشقة الخالية فى بلدتى التى تذكرنى كل قطعة فيها بحنان أبي وأمي وأخى ولا أتحمل أن أقيم فيها وأحول أوراقى إلى الكلية التى أرادنى أبي أن أدخلها من البداية فماذا أفعل .. يا سيدى .. ماذا أفعل يخيل إلى أحيانا أن الحل هو أن أهجر كل شىء .. وأن أسافر إلى أوربا مثلا بعيدا عن بلدتى وكليتى وعن الاسكندرية كلها لمدة سنة لأبتعد عن أرض الأحزان كلها كما يفعل بعض الطلبة أحيانا الذين يسافرون للخارج ثم يعودون لاستكمال دراستهم ، لكنى

لا أملك الامكانات اللازمة لذلك ولو كانت لدى هذه الامكانات فهل هذا هو الحل يا سيدى .. أم ماذا أفعل ؟ ! .

□ □ ولكاتب هذه الرسالة المؤلمة أقول : إن حزنك يا صديقى يجل عن العزاء لكن لا بأس من كلمة تقال لا أملك ولا يملك لك أحد سواها . إنك يا صديقى تواجه موقفا من هذه المواقف الأليمة التى لا نستطيع التعامل معها إلا بالتسليم التام لإرادة الله سبحانه وتعالى وبالرضا التام بما جرت به المقادير ، لأن التسليم بقضاء الله وقدره من أركان الإيمان . وأنت تمضى على الطريق الصحيح الآن بالصلاة والصيام والصبر على ما تكره النفس وما يؤلمها ولا مفر من ذلك يا صديقى ولا مهرب لأن مالا نملك تغييره ليس أمامنا سوى احتماله وهذه هى شجاعة الحياة الحقيقية التى تسمو فوق كل رتب الشجاعة .. أما هواجسك عن الكلية القريبة والكلية البعيدة .. فهى لم تغير من الأمر شيئا ولا مبرر لأن تضيف لآلامك الجسيمة آلاما أخرى لا سند لها من الحقيقة ، فأنت تعرف تماما أنها أجال ومواعيد و «أماكن» .. ولو كنت قد التحقت بالكلية القريبة لجرى نفس ما جرى فى نفس الموعد .. وفى نفس المكان فلا تعذب نفسك بهذه الخواطر لأنك أحق بالتماس السلوى والعزاء من أن تحاسب نفسك على مالا حيلة لأحد فيه . فاطرد هذه الهواجس من صدرك واخرج من عزلتك .. واتبع وصية عالم النفس الشهير بول كوستا لعلاج الأحزان ، باسترداد الثقة بالنفس ومحاولة نسيان التجارب الأليمة والمشاركة فى النشاطات الاجتماعية ، لكى تشغلك بقدر الامكان عن آلامك ومعاناتك ..

واسترداد الثقة بالنفس يبدأ فى مثل حالتك .. بتحديد الهدف الذى ينبغى أن تسعى إليه بعد أن جرى ما جرى . والهدف النبيل الذى ينبغى أن تكرس حياتك له الآن هو أن تحقق الآمال التى عقدتها أسرتك الراحلة عليك ، وأن

تستكمل دراستك وأن تتفوق فيها وأن تكون جديرا بحب أبيك الحنون لك وبفخره بك حين كان يقدمك لزملائه وأصدقائه مزهوا ومتفاخرا وأن تكون أيضا جديرا بعطاء أمك وشقيقك لك ، عليهم جميعا رحمة الله ، وتحقيق هذا الهدف النبيل يتطلب منك أن تخفف بقدر الامكان من أحزانك ، وأن تحاول نسيان آلامك بالانخراط فى الحياة الاجتماعية فى كليتك والتماس الصحبة والايناس لدى بعض زملائك والاستعانة بحكمة جارك الشهم وزوجته الفضلى فى أمور حياتك فمن يدرى فلعل الله قد اختار لك السكنى بجوارهما لتجد فيهما بعض العزاء ، وليجدا هما فيك بعض السلوى عن وحدتهما وحرمانهما من الإنجاب ، وهكذا الحياة يا صديقى تقسو أحيانا .. وترق أحيانا .. وتأخذ أشياء وتعطى أشياء أخرى كأنها تشير لنا بإشارات خفية إلى الطريق لالتماس العزاء والتخفف من الآلام وما أقسى آلامك ، لكن ماذا نفعل غير ذلك .. وأين المفر يا ولدى ... أين المفر؟

أما رغبتك فى هجر موطن الأحزان .. فهى رغبة مشروعة .. وقد تفيد المعذبين فى بعض الأحيان لكنها فى ظروفك ليست مفيدة ولا ضرورية لأنها سوف تعرقل دراستك وتؤخر تحقيق الهدف السامى لك الآن ، وهو هدف يستحق أن تغالب من أجله آلامك وأن تمضى إليه بكل قوة وبلا ضياع لأى فترة من العمر فهكذا ينبغى أن يكون الوفاء لأبيك وأمك وشقيقك ، وهكذا ينبغى أن تكون صور الأحباب التى تطل عليك بين صفحات الكتب حافزا لك على ألا تخذلهم وأن تسمو فوق آلامك من أجلهم ،، ومن أجلك أيضا ، لهذا فأنت لست فى حاجة إلى هذه الرحلة لكنك قد تكون فى حاجة إلى رحلة من نوع آخر سوف تسهم بإذن الله فى تضميد جراحك وفى غسل هموم قلبك المثقل بالأحزان ، لذلك فان « بريد الأهرام » سوف يدعوك بإذن الله وفى

الوقت الذى تراه أنت ملائما سواء الآن أو بعد أداء الامتحان لتلبية أفضل دعوة يمكن أن توجه إلى إنسان وهى الدعوة لأداء العمرة وزيارة قبر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام الذى تربى يتيمًا وحيدًا مثلك وواجه الحياة بلا أب ولا أم ولا أشقاء فأدبه ربه فأحسن تأديبه وكان خير البشر أجمعين .. وسوف أرجو من أحباء «بريد الأهرام» فى الأراضى المقدسة وهم كثيرون بحمد الله أن يحيطوك خلال زيارتك لها بحبهم ورعايتهم .. وإن يضعوك فى قلوبهم فتعرف بالدليل الحى أن لك فى الحياة أكثر من أب وأكثر من أم وأكثر من شقيق [1] .. فاكتب إلىَّ باسمك وعنوانك يا صديقى .. وانتظر فلقد أردت لنفسك رحلة غير مضمونة العواقب .. فأراد الله لك خيرًا منها وأبقى وأفضل أثرًا بإذن الله .

(١) تلقى كاتب هذه الرسالة عشرات الدعوات من قراء مصريين أفاضل يعملون بالمملكة السعودية لإستضافته ورعايته خلال رحلة العمرة ، وكما تلقيت من أجله رغبات مئات من القراء يطلبون التعرف به ومواساته واحتضانه واعتباره فردًا من أفراد الأسرة .

حفل الزفاف

أنا يا سيدى شاب عشت تجربة فريدة أود أن أضعها أمام قرائك ليستفيدوا منها مثلما أستفيد أنا من تجارب الآخرين التى أقرؤها فى هذا الباب ..

فقد نشأت فى أسرة ميسورة الحال .. ووالدى ضابط شرطة وصل إلى أعلى رتبها .. وهو ابن باشا سابق .. أما والدتى فسيدة مجتمعات مثقفة جدا ، ولى شقيقة وشقيق يشغلان الآن وظيفتين محترمتين جدا .. وأنا الابن الأكبر لأبوى .. وقد نشأنا جميعا فى جو ارستقراطى .. يهتم كثيرا بالشكليات والتقاليد وكل شىء فيه بمواعيد ونظام .. وصداقاتنا العائلية كلها من نفس المستوى .

ولأسباب لا أعرفها حتى الآن وجدت نفسى لا أميل كثيرا إلى هذه الحياة .. ولا أجد نفسى فى صداقات الشبان والفتيات من وسطنا الاجتماعى .. فاتجهت صداقاتى كلها إلى الشبان البسطاء المكافحين مما جعلنى موضع نقد من أفراد أسرتى الذين اتهمونى بأنى لا أحافظ على مستواى الاجتماعى !.

ولأن أبى قد ورث عن أبيه ميراثًا ضخمًا فقد كنا نعيش حياة مترفة وعندما التحقت بكلية الطب كانت لى سيارة بويك كبيرة أذهب بها إلى الكلية وكثيراً

ما رجوت أبى أن يستبدلها لى بسيارة صغيرة لكيلا أشعر بالحرج من زملائى وأساتذتى فكان يرفض بإصرار وكنت أتعمد تركها بعيدا نسبياً عن مبنى الكلية .

وأثناء دراستى بالكلية ارتبطت عاطفيا بإحدى زميلاتى شدتنى إليها ببساطتها ولمست فى أعماقها حنان الدنيا فضلا عن جمالها وذكائها وكانت متفوقة وكنت أيضاً متفوقا وتعاهدنا على الارتباط الأبدى بإذن الله وجاء يوم التخرج ونجحنا نحن الاثنين بتقدير عال .. وجاءت اللحظة التى ينبغى أن أجول فيها حلمنا إلى حقيقة ـ وفاتحت أسرتى برغبتى فى خطبتها ودعوتها لزيارتنا فجاءت ورآها أبى وأمى وإخوتى وأعجبوا جميعًا بجمالها وهدوئها وذوقها فى اختيار ملابسها .

وبعد الزيارة سألنى أبى عن مهنة أبيها وما أن أجبته حتى انفجرت داخله براكين الغضب وهب واقفاً يحطم بيديه الأكواب التى أمامه ويعلن بكل إصرار أن هذا الزواج لن يتم أبداً .. أتدرى لماذا لأن والد حبيبتى حلاق .. نعم حلاق وأقولها بكل فخر واعتزاز لأنه رجل شريف مكافح أدى واجبه تجاه أسرته وحقق ما لم يحققه بعض « الباشوات » فأهدى إلى الحياة ثلاثة أطباء ومهندسا معماريا وضابطا رغم أنه لم ينل حظا كافيا من التعليم .

وانحازت أمى إلى جانب أبى وانحاز معها شقيقى وشقيقتى ووجدت نفسى وحدى . أتساءل ما ذنبى أنا وفتاتى فى أن يحرم كل منا من الآخر .. وأنا لم أعرف للدنيا معنى إلا بعد أن أحببتها وقررت أن أدافع عن حبى وحياتى وتوجهت إلى بيت حبيبتى وقابلت أباها .. وأعطيته صورة صادقة عن الموقف ففوجئت به بعد أن عرف بمعارضة أسرتى يرفض هو أيضاً زواجى من ابنته ويقسم أنه لن يسمح بذلك لأنه لا يرضى لنفسه ولا لأسرته أن يقال عنهم

أنهم قد « ضحكوا على » وخطفونى من أسرتى ، وحين رأى تمسك ابنته بى أعلن بكل وضوح أنه سيتبرأ منها لو تزوجتنى على غير إرادته وإرادة أسرتى .

ووجدنا نفسينا حائرين .. أسرتى ترفض بسبب نظرة اجتماعية بالية .. وأسرة حبيبتى ترفض دفاعًا عن كرامتها ..

و وقررت بعد تفكير طويل أن أضع حداً لهذا العذاب .. فاصطحبت فتاتى ذات يوم ومعى صديقان إلى مكتب المأذون وأخرجنا بطاقتينا وطلبنا منه عقد زواجنا .. وحين قال لى قل يا سيدى : قبلت زواجك على سنة الله ورسوله وعلى الصداق المسمى بيننا وعلى مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه .. انهمرت دموعى ودموعها ودموع صديقى .. وخرجنا من مكتبه زوجين أمام الله والناس لنواجه قدرنا وحدنا .. بلا سند لنا إلا الله سبحانه وتعالى ولم تتأخر المتاعب طويلاً فما أن علم أبى بما حدث حتى طردنى سامحة الله من البيت وسحب منى سيارة الأسرة فخرجت من البيت أحمل حقيبة ملابسى الصغيرة وفى جيبى سبعة جنيهات هى كل ما بقى معى بعد أجر المأذون وما أن علم أبوها بما جرى حتى طردها هى أيضًا فخرجت من البيت ومعها حقيبة ملابس صغيرة وأربعة جنيهات ، ووجدنا نفسينا فى الشارع بلا مأوى .. وكنا فى شهر فبراير ولم يبق سوى شهر على تسلم عملنا كطبيبى امتياز فى الشهر التالى حيث سيتقاضى كل منا أربعين جنيها وكانت ليلة طردنا ليلة شديدة البرودة .. فجلسنا فى محل نحتمى داخله من الصقيع ونفكر فيما سنفعل .. وكلما مرت ساعة ولم نجد مأوى إزداد خوفنا .. حتى جاء الفرج ونجحت فى الاتصال بأحد أصدقائى واقترضت منه خمسين جنيها وذهبنا إلى إحدى اللوكاندات الشعبية الرخيصة .. وحين احتوتنا الغرفة المتواضعة لأول مرة .. كان كل منا يعرف فى أعماقه أن أمامنا أياما صعبة لن يخفف منها سوى

عطف كل منا على الآخر وحمايته له .. وعشنا فى هذه اللوكاندة فترة تسلمنا خلالها العمل فى المستشفى ، ثم وفق الله أحد أصدقائى فى أن يجد لنا شقة من حجرتين على الطوب الأحمر فى بيت صغير فى زقاق ضيق بأحد الأحياء الشعبية ، وكانت هدية من السماء لأن صاحبها كان فى حاجة إلى نقود فقبل تأجيرها لنا بلا مقدم ولا خلو بخمسة وعشرين جنيهاً .. وفرحنا بها فرحة كبرى وأسرعنا ننتقل إليها .. واشترينا أول أثاث عرفناه لبيتنا .. وكان مرتبة من الأسفنج ووسادتين ومكتبا خشبيا صغيرا وكرسيين ووابور جاز .. وبرادا وكوبين وحلتين فقط لا غير !.

وفى هذا العش الهادئ عشنا حياتنا سعداء بوجودنا معاً لا يزعجنا فيه شيء سوى كثرة الفئران والحشرات .. وكانت زوجتى قوية الإرادة فتعاهدنا أن نبنى حياتنا دون مساعدة من أحد .. وكانت أيضا مدبرة فكان مبلغ الخمسة والخمسين جنيهاً التى تتبقى لنا بعد دفع الإيجار تكفينا طوال الشهر للأكل والمواصلات ولكن بلا أى ترفيه أو شراء ملابس ، وأحبنا جيرانى البسطاء .. وأحببناهم .. وكانوا يشفقون علينا من شظف حياتنا ويتعجبون من سوء حالنا ونحن طبيبان حتى قال لى أحدهم مرة بتلقائية غريبة : إحنا كنا فاكرين إن الدكاترة كلهم حرامية لكن ياما فى الحبس مظاليم !.

وخففت عنا صداقاتهم بعض صعوبة الحياة فكانت جاراتنا يعرضن خدماتهن على زوجتى بشهامة مألوفة عندهن فتطلب منها جارة مثلا ملابسنا لكى تغسلها مع غسيلها لأننا طبيبان مشغولان بالعمل .. وتتطوع أخرى بشراء حاجيات البيت لها .. وتصر ثالثة على أن تشاركها تنظيف الشقة بهمة . وأنا أتذكر هذه الأشياء البسيطة الآن .. لأنى كثيراً ما وجدت فيها تعويضا لنا عن جفاء أهلنا لنا وقسوتهم علينا فى هذه الأيام الصعبة رغم علمهم بكل ظروفنا

فنى مقابل هذا العطف من الجيران البسطاء .. لم يحاول أحد من أهلنا زيارتنا أو السؤال عنا .. بل ولم يتركونا أيضا فى حالنا ففوجئت فى إحدى الليالى وأنا وزوجتى نائمين بعد يوم شاق فى العمل بأربعة، وحوش يقتحمون شقتنا .. ويحطمون المكتب والكرسيين .. ويمزقون المرتبة الوحيدة التى ننام عليها وكتبنا وأوراقنا ويسبوننا بأفظع الشتائم .. بحجة أنهم يفتشون الشقة ثم خرجوا ورئيسهم يهددنى : أنتم لسه شفتم حاجة .. عشان تبقى تتحدى الباشا ! يقصد أبى الذى كان ترقى وقتها إلى رتبة اللواء !.

وخرج الرجال الأربعة .. وانحنينا نحن نلملم الاسفنج الذى خرج من بطن المرتبة ونعيد حشوها ونخيطها .. ونجمع كتبنا الممزقة .. ونحاول إصلاح المكتب والكرسيين .. ثم غلبنا التعب فنمنا على المرتبة وقد أمسك كل منا بالآخر بقوة كأنه يحتمى به مما تخفيه له الأيام .. وبالفعل فلقد انتابنى الإحساس بأن أبى لن يدعنا فى حالنا .. وتحققت مخاوفى حين أبلغنى صديق لى أن أبى يدبر أن يلفق لزوجتى قضية آداب ! هل تصدق ذلك .. هذا ما حدث والله العظيم ولم يرجع أبى عن نيته إلا بعد أن أقسم له صديق أنه سيقنعنى بتطليقها .. لكيلا « أعاند » وأتمسك بها أكثر لو حدث لها مكروه وأصبحت مهمة صديقى هى أن يزوره كل عدة أيام ليطلب منه الصبر.. حتى ينجح فى اقناعى لاضاعة الوقت لعله يهدأ وينسانى قليلا .. وخلال ذلك جاءت فترة التجنيد وأمضيت عاما لا أتقاضى فيه سوى ستة جنيهات كل شهر وكنت أعمل لهذه الفترة ألف حساب .. لكن الله لم ينسنا فوجدت زوجتى عملاً فى مستوصف قريب من البيت وأصبحت هى التى تتولى الإنفاق على الأسرة .

وانتهت فترة التجنيد وخرجت من الجيش لأجد زوجتى مصممة على تسجيل الماجستير لى ولها فظننت أن عقلها قد أصابه شىء ! لأنى كنت انتظر

بفارغ الصبر إنتهاء فترة التجنيد لكى نبحث عن عمل فى الخارج .. لنعيش حياتنا ولنهرب بعيداً عن قسوة الأهل وتربصهم بنا ، لكنها صممت وقالت لى إننا متفوقان وقد صمدنا للضيق والشدة والمضايقات فلماذا لا نكمل مشوارنا العلمى ثم نحقق بعد ذلك أحلامنا .

واستجبت لاقتراحها مرغماً ومعجباً بها وبقوة إرادتها فى نفس الوقت وسجلت أنا وهى للماجستير.. وبدلاً من أن نستريح بعد ما لقيناه .. بدأنا نستعد لفترة أخرى أشد قسوة ومرارة .. لأن الماجستير يحتاج إلى تكاليف وإلى كتب وإلى عناء كثير.

وبدأنا نذاكر للماجستير.. وقاسينا من الضيق والحاجة أشد مما قاسيناه طوال زواجنا .. ويكفى أن أقول لك إن طعامنا خلال الشهرين الأخيرين من الدراسة كان لا يتجاوز الخبز والدقة والملح والماء تقريباً وأننا كثيراً ما قاسينا الجوع فى ليالى المذاكرة الطويلة .. ولم نكن نجد ما نسكته به سوى الماء ، ومازلت أذكر حتى الآن أنى أسرفت ذات ليلة فى شرب الماء لكى أتقى الجوع فانقلبت معدتى وتقيأت وشعرت بالجوع أكثر وأكثر ولم نجد بدا من التضحية ببضعة قروش فخرجت فى الليل أبحث عن شىء يؤكل .

ورغم ذلك كنا سعداء .. ولم نشك يوماً .. ولم نندم .. ولم أر زوجتى مرة باكية .. حزينة .. أو غاضبة لأى سبب من الأسباب .. بل كلما رفعت رأسى عن الكتاب .. متململا وجدتها تنظر لى بعينيها الجميلتين والابتسامة الحبيبة تغطى وجهها .. فأبتسم لها ثم أحنى رأسى مرة أخرى على الكتاب .. وقد زال ضيقى .

وكلل الله جهودنا بالنجاح فحصلنا على الماجستير فى زمن قياسى خلال عامين فقط .. لكن أزمتنا لم تنفرج بل عشنا عاماً آخر بعد الماجستير نعانى من

شظف العيش وننام فوق المرتبة وليس فى حياتنا أية نسمة راحة حتى وفقنى الله بعد جهد جهيد فى الحصول على عقدى عمل لى ولزوجتى فى إحدى الدول ولأول مرة بعد ٥ سنوات من العناء عرفت حياتنا أول لحظة راحة .. فعشنا فى شقة جميلة وعرفنا النوم على الفراش .. وعرفنا التليفزيون بعد أن كنا قد نسيناه .. وعرفنا الطعام الجيد بعد أن كنا قد ودعناه منذ ٥ سنوات وخلال عامين كنا قد تمكنا من شراء شقة تمليك فى أحد أحياء القاهرة وأثثناها .. واشتاقت نفسى للعودة إلى بلدى بعد أن وجدنا لأنفسنا فيها مأوى كريماً ، لكن حبيبتى « المجنونة » خرجت على مرة أخرى بطموح جديد هو أن نحصل على زمالة كلية الجراحين الملكية بلندن .. وبنفس المنطق نحن متفوقان .. وقد مضيت أيام الشدة ولدينا الآن النقود التى تسمح لنا بالانفاق على الزمالة .. إلخ .. وباختصار حصلنا على الزمالة من لندن بتوفيق من الله .. وبجدنا واجتهادنا .. وبعد الحصول على الزمالة تعاقدنا للعمل فى دولة أخرى بمرتبين خياليين وتقدمنا فى عملنا فأصبحت مديراً فنياً للمستشفى الذى أعمل به وأصبحت زوجتى مديرة للقطاع الطبى بالشركة التى تعمل بها .. ورزقنا الله بطفلة جميلة لم أتردد فى أن أسميها باسم شريكة كفاحى وشقائى وسعادتى .. زوجتى .

وبعد ٣ سنوات من الغربة .. عدنا إلى القاهرة فى أجازة .. وفى داخلى تصميم على شىء لم أصارح به زوجتى إلا بعد وصولنا لمصر بأسبوع ..، هو أن نحتفل بزفافنا الذى لم نحتفل به يوم تزوجنا منذ ٨ سنوات لأن من حق حبيبتى أن ترتدى ثوب الزفاف الأبيض الذى لم ترتديه .. وأن أرتدى أيضاً بدلة الفرح التى لم يكن لى مثلها حين تزوجت .. وصممت ونفذت وتحديت الجميع وأقمت حفل الزفاف فى نادى الشرطة ! ودعوت كل أصدقائى الذين

وقفوا إلى جوارنا فى وقت الشدة .. وتصدر الحفل جيرانى البسطاء فى شقة الطوب الأحمر فرحين مندهشين ودخلت القاعة مع زوجتى بثوب الزفاف وأمامنا المشاعل .. والشموع .. وفرقة الزفة .. وطفلتى تجرى بين أقدام المدعوين وتضحك سعيدة وهى لا تدرى أنه حفل زفاف أبويها ! ونمت ليلتها قرير العين شاكراً لربى نعمته التى أنعمها على .

إننى أكتب إليك الآن لأنى سعيد وراض عن كفاحى لأقول لكل إنسان إن الصبر والكفاح يحققان للإنسان ما يريده لنفسه وأن على كل إنسان ألا ييأس من رحمة الله لأن لكل شدة نهاية ولكل ضيق آخر وعلينا فقط أن نؤدى واجبنا تجاه أنفسنا ثم نسلم الأمر للخالق جل شأنه ليختار لنا ما يشاء .

والسلام عليكم ورحمة الله .

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : إننى منذ زمن طويل لم أتلق رسالة واحدة كرسالتك هذه لا يطلب فيها كاتبها شيئا سوى أن يضع تجربته السعيدة أمام الآخرين ليستفيدوا منها .. ولو بمعايشة سعادته للحظات خلال قراءة الرسالة . ولا عجب فى ذلك لأن من يكتب عن نفسه يميل به قلمه غالبا إلى النجوى وبث الهموم .. كأن آلام البشر لا تسمح لهم بأن يكتبوا عن شيء آخر .. أو كأننا نردد جميعاً مع المتنبى قوله :

ليت شعرى هل أقول قصيدة فلا أشتكى فيها ولا أتعتب ؟

لكنك قلت « قصيدتك » يا صديقى فلم تشك فيها ولم تعتب رغم ما لقيته من شقاء فى حياتك لذلك سعدت بها كثيراً ودهشت لحفل الزفاف المؤجل منذ ٨ سنوات وسعدت به كثيراً لأن من حق من يشقى أعظم الشقاء أن يسعد أيضاً أعظم السعادة . كما لم يخف معنى « مغزى » اختيارك لنادى الشرطة بالذات لإقامة هذا الحفل الغريب كأنك تريد به أن تبعث إلى أبيك رسالة

تقول له فيها إنك قد صمدت لعدوانه عليك وكافحت ونجحت وحققت لنفسك السعادة التي أردتها باختيارك لشريكة عمرك .

والحق أن زوجتك تستحق هذا الحفل وأكثر.. لأنها من بانيات الرجال يا صديقي وقد دفعتك خطوات واسعة إلى الأمام بإرادتها الصلبة وبصبرها وكفاحها معك وإخلاصها لك ولأنك أيضًا وجدت معها جنتك الحقيقية وأنتما ترقدان فوق حشية الاسفنج في شقة الطوب الأحمر.. وسوف تجدها معها دائمًا بإذن الله وسوف تحقق معها الكثير والكثير أيضًا .

وبالرغم من تقديسي دائما لرمز الأب واعترافي له بحقه في أن يحجب موافقته على زواج ابنه وفقاً لما يراه من اعتبارات ، إلا أني فزعت من أن تصل معارضته لزواجك إلى حد استخدام الأساليب البوليسية الكريهة معك لإكراهك على الانفصال عنها .

فلقد كان يكفيه ــ وهذا تجاوز في حد ذاته ــ أنه طردك من بيته وحرمك من معونته وقبض عنك يده وتركك تقاسي شظف العيش وتغالب الجوع والحرمان مع زوجتك ، نعم كان يكفيه كل ذلك ليدعك تخوض تجربتك وفقاً لاختيارك اما أن يطلق عليك وحوشه ليقضوا مضجعك ويهدد بتلفيق قضية ماسة بالشرف لزوجتك فهذا هو الجرم الذى ماكان ينبغي له أن يرتكبه في حق ابنه مهما صنع هذا الابن .. لأن الأب لا يملك لابنه الرشيد سوى النصح والارشاد ، فإن لم يمتثل فليدعه لحياته ولمصيره . وربما كان الأقرب إلى الرحمة والعدل ولمعنى الأبوة أن يمده من بعيد بمعونته حتى وإن تمسك بموقفه الرافض معه أما أن يطارده بهذا الشكل المفزع فهذا هو التجبر وغرور السلطة بعينه ، إذ ماذا كان يملك أن يفعل لو لم يكن في موقع يسمح له بإرسال الوحوش إلى بيت ابنه ! هل كان سيستأجر بعض البلطجية لأداء هذا الدور القذر ؟.

فلنترك على أية حال هذا الحديث المؤلم .. ودعني أقل لك بعد كل ذلك أن الأيام يا صديقى تأسو الجراح ولقد مضت أيام الشقاء بخيرها وشرها .. وأنتما الآن زوجان سعيدان وشريكان ناجحان متفوقان ولستما فى حاجة إلى معونة أحد ولا إلى مساندته .. لكنكما فى حاجة بالتأكيد إلى أن يكون لكما أهل وأقارب لأن الإنسان الوحيد الذى تشغله رحلة الكفاح عن نفسه .. يبحث حين تستقر سفينته عن أهله ، وقد يتلمس أقاربه البعيدين لينتسب إليهم ويجدد صلاته بهم .

وأنتما لستما فى حاجة إلى البحث عن الأهل والأقارب لأنهم موجودون والحمد لله لكن ظروف حياتكما قد باعدت بينكم فلماذا لا تستكمل سعادتك بأن تفتح صفحة جديدة حتى مع من أساءوا إليك وظلموك ؟ ولم لا تستعيد صلاتك بأسرتك وتستعيد زوجتك صلاتها بأسرتها وأنتما الآن زوجان تفخر أية أسرة بهما ؟ ولماذا لا تتيح لأسرتك فرصة أن تعرف زوجتك على حقيقتها .. وطفلتك التى لم يروها حتى الآن . إنك إن فعلت يا صديقى فسوف يكون ذلك تأكيدا جديداً لاستقامة خلقك وعلى أنك من ذوى النفوس الكبيرة التى لا تؤثر فيها الصغائر ولا الأحقاد فلم لا تفعل .. لكى يعرف من أساءوا إليك أى جرم ارتكبوه فى حقك حين باعدوك وطاردوك ، لا لشىء سوى لأنك قد وجدت نعيمك وسعادتك مع الشريكة الرائعة !.

التحـــــــدى

غالبت نفسى كثيرا حتى تنازلت عن كبريائها « اللعين » وقبلت أن تقف موقف الشاكى من أحد وهى التى اعتادت أن يشكو إليها الناس وأن ينتظروا منها المشورة والعدل وسوف تعرف بعد قليل لماذا أجهدتنى نفسى لكى تقبل ذلك فأنا يا سيدى سيدة مرموقة بكل معنى الكلمة .. بدأت حياتى العملية منذ ٢٥ سنة عقب تخرجى من الجامعة .. واختارت لى الأقدار طريقا مبشرا بالنجاح .. وأردت أن أساعد نفسى على ذلك فالتحقت بالدراسات العليا بكليتى لأحصل على الماجستير والدكتوراه ، وفى قسم الدراسات العليا التقيت بأستاذى المشرف على رسالتى للماجستير ، وتكرر اللقاء بيننا لأستشيره فى أمر رسالتى من حين إلى آخر وكان وقتها يقترب من الأربعين وكنت فى الخامسة والعشرين تقريبا .. ونشأ بيننا اعجاب متبادل ولم نلبث أن أقتنع كل منا بشخص الآخر .. واتفقنا بعد قليل على الزواج وفى اللحظة التى تصارحنا فيها .. تنحى أستاذى عن الإشراف على رسالتى وكلف زميلا آخر بالإشراف عليها لأنى أصبحت خطيبته ، وساعدنى مساعدات كبيرة فى رسالتى حتى ناقشتها وحصلت على الماجستير وتزوجنا .

وفى بيتى الصغير عرفت الحب لأول مرة فى حياتى .. بالرغم من أننا لم نتبادل عبارات الحب المألوفة فى الخطوبة فلقد وجدت نفسى أحبه من أعماق

قلبي ووجدت نفسي أحترمه بقدر ما أحبه فلقد كان دائما رجلا على خلق وله مثالياته التي يحرص عليها في الحياة ، وكان كل يوم يمر على معه يكشف لى عن ميزة جديدة من مميزاته .. فهو أمين .. لا يكذب .. لا يقبل الانحراف بكل أنواعه .. شجاع يقول كلمته في الكلية ولا يبالى إن كانت ستكسبه خصوما أم أنصارا . أما في بيته فقد كان بحق زوجا مثاليا هادئا .. لا يعرف كيف ينطق بكلمة جارحة لأحد منظم جدا يؤمن بتعاون الرجل مع المرأة في كل شئون الحياة وقد أكسبته سنوات دراسته في أوروبا نظرة عملية للحياة غير متوافرة لدى الكثيرين فكان مثلا يشاركني العمل يوم الغسيل ويقف على الغسالة إلى جوارى . ويشاركني في كي القمصان والفساتين . ويشترى لى الخضار والفاكهة من السوق وهو الأستاذ المرموق ويحرص على مشاركتى في تنظيف البيت في اليوم المخصص لذلك ، وكان يهتم جدا بنظافة أرضية الدور الذى نسكن فيه من العمارة .. ولولا أنى أمسكت به ذات مرة في أول زواجى منه وأقسمت عليه ألا يفعل حرصا على مركزه .. لخرج من باب الشقة ليمسح أرضية الدور بالجردل وبالممسحة الطويلة التي جاء بها من أوروبا قبل أن توجد في مصر.. فعند هذا الحد قلت له أرجوك دع هذا الأمر للبواب لأن جيراننا سوف يستهجنون هذا التصرف ورضخ لمطلبي رغم عدم اقتناعه به لأنه يعيش في الواقع ويعرف الكثير عن الحياة وأصبح يدفع للبواب أجرا شهريا مقابل غسل أرضية الدور مرة كل أسبوع .

وقد تعلمت منه الكثير والكثير.. وتعودت على نظام حياته الذى يحرص عليه بدقة منذ تعلم في أوربا فعلمنى العمل لفترة يوم أوربى ـ وليست فترة اليوم المصرى المعروف الذى ينتهى عادة في الثانية بعد الظهر.. وأن أنظم حياتى على ذلك .. وتعلمت هذا النظام وارتحت إليه فكنا نستيقظ في السادسة

صباحا .. ونجلس على مائدة الافطار معا لمدة ساعة نتناول الطعام ونقرأ الصحف ونتبادل الأحاديث ثم نخرج إلى عملنا مبكرين هو إلى الجامعة وأنا إلى مكتبي بالهيئة التى أعمل بها وفى حقيبة كل منا سندوتشات للغداء نتناولها فى الثانية عشرة والنصف بالضبط ثم نبقى فى العمل حتى الرابعة والنصف ويمر بى بسيارته لنعود إلى البيت .. فنعد معا طعام العشاء ونتناوله فى السادسة مساء وبعدها يدخل إلى مكتبه وأنا معه فيقرأ وأدرس أنا للدكتوراه بجواره لمدة ساعتين ثم نشاهد التليفزيون لفترة وننام مبكرين .

أما يوم الخميس فإننا نخرج لنزور الأقارب والأصدقاء أو نسهر فى مسرح أو سينما وفى يوم الجمعة لابد من الخروج طول النهار إلى أى مكان ونعود منتعشين وقد جددنا نشاطنا لنستعد لأسبوع من العمل الشاق !.

هكذا كان نظامه .. ولا تتصور كم أفادنى ذلك فى عملى ـ فقد كنت الموظفة الوحيدة التى تبقى بالعمل كل يوم من ٨ صباحا إلى ٤,٣٠ مساء رغم انصراف كل الموظفين فى الثانية وكثيراً ما ضقت بالفراغ والوحدة فى ساعات بعد الظهر لكنه علمنى أن أستفيد منها فى دراسة عملى وإعداد التقارير واقتراح المشروعات وفعلت ذلك واكتسبت سمعة حسنة جدا لدى رؤسائى بسبب ذلك وأصبحوا يكلفوننى بالأعمال التى تتطلب دراسة وتفكيرا وترقيت سريعا فى عملى فأصبحت رئيسة لقسم ثم مديرة ادارة وبعد أن كنت أجلس فى غرفة بها ٤ مكاتب أصبحت لى غرفة صغيرة خاصة بى وساع يرتب أوراقى وملفاتى .

وكان زوجى يرقبنى بإعجاب ويشجعنى على بذل المزيد من الجهد فى العمل لأ تقدم أكثر.. ويساعدنى فى اختيار الملابس المحتشمة اللائقة بى .. بل أصبح يساعدنى فى عملى حين أعجز عن ابداء الرأى فى مشكلة فأستشيره

ويشير على بالرأى الصائب وبعد خمس سنوات من زواجنا رأى أن الوقت ملائم للإنجاب .. فأنجبنا أبننا الوحيد وبطريقته العملية طلب منى التفرغ من العمل لتربيته لمدة عامين بإجازة بدون مرتب ، وبعد عامين بالضبط طلب منى العودة للعمل وأحضرنا مربية للطفل اخترناها بعناية لكى تمضى فترة الصباح معه فى بيت أم زوجى المسنة حتى نمر بها عند العودة من العمل ونصطحب الطفل للبيت واكتسبت حياتنا طعما جديدا بعد مجىء الطفل .. لكن نظامها لم يتغير وبعد عامين آخرين ألحقناه بحضانة أطفال راقية واستغنينا عن المربية ومضت حياتنا هادئة سعيدة ورغم أننا لم نكن من الأثرياء فلقد عشنا حياة مضيئة بكل معنى الكلمة فى حدود إمكاناتنا .. فقد كانت لزوجى قطعة أرض صغيرة مزروعة حدائق فى بلده يؤجرها منه بعض أقاربه فكان إيرادها مع مرتبه ودخله من كتبه الجامعية التى كان يتنازل عن نصف مكافأة التأليف مقابل تخفيض أسعارها للطلبة توفر لنا حياة معقولة بلا اسراف .. أما مرتبى فلقد كان يصر على أن أحتفظ به لنفسى ويقول لى ضاحكا أنا متحرر فى تفكيرى فى كل شىء إلا فى هذه النقطة فأنا شرقى جدا فيها . وهكذا كنت أنفق مرتبى على متطلباتى الشخصية وعلى شراء الهدايا له فى المناسبات .. وكان هو يبادلنى الهدايا وواصلت نجاحى فى عملى وترقيت مديرا عاما وزادت أعبائى ولم أستطع مواصلة الدراسة للدكتوراه فتوقفت عنها وأسف هو لذلك كثيرا لكنه لم يعترض وواصل هو نجاحه فى عمله حتى أصبح رئيسا للقسم ثم وكيلا لكليته ورفض أكثر من مرة قبول العمل فى الخارج رغم مغرياته وفى هذه الفترة توفيت والدته رحمها الله .. وأصبحت شقتها خالية فنقل إليها بعض كتبه وأرشيفه .. وأصبح يمضى فيها أحيانا بعض الوقت كلما احتاج إلى أرشيفه .

وفجأة قفزت أنا قفزة كبيرة فى عملى حين أحيل رئيس مؤسستنا للمعاش ورقى وكيل الهيئة رئيسا لها فاختارنى وكيلا للهيئة بدلا منه وقوبل اختيارى لهذا المنصب بمعارضة صامتة واحتجاج داخلى من كثير من المديرين بهيئتنا .. وتألمت لذلك وشكوت لزوجى فقال لى اجعلى من هذه الاحتجاج تحديا يدفعك للعمل والإجادة واقناع المعارضين بأنك الأقدر فعلا على شغل هذا المنصب وبالفعل تفانيت فى العمل وأصبحت أعمل صباحا ومساء ويوم الإجازة وأتنازل عن اجازتى السنوية التى كان زوجى يحرص حرصا شديدا على قضائها معى فى المصيف .. ولأول مرة فى حياتى افترقنا عدة أسابيع حين جاء الصيف فانتقل إلى المصيف فى أغسطس واستأجر الشقة المعتادة هناك .. واصطحب ابنى وبقيت وحدى فى القاهرة أذهب إليه مساء كل أربعاء بسيارة الهيئة وأعود مساء الجمعة .

ولم يشك زوجى من شيء .. بل كان سعيدا ومنطقيا كعادته وقال لى ليست هناك مشكلة ما دمنا سعداء معا .

واستمررت فى عملى كوكيلة للمؤسسة وبذلت أقصى طاقتى فى العمل مع اقتراب خروج رئيس المؤسسة إلى المعاش بعد عامين وبعد أن أصبحت المرشحة الأولى لشغل منصبه .. بترشيحه وترشيح كفاءتى لذلك غرقت فى العمل فعلا خلال السنوات الأخيرة وأصبحت أيامى تنقضى فى اجتماعات ولجان وسفر لتفقد الفروع وحضور الاحتفالات المختلفة وكلما تصورت أننى أنجزت شيئا اكتشفت أن هناك جبالا من الأعمال تنتظرنى .. ولم ينفعنى اليوم الأوربى فى ذلك .. فأصبحت أذهب للعمل فى الثامنة وأعود فى الثالثة أو الرابعة .. أتناول طعام الغداء واستريح ساعة ثم أعود للعمل فى السادسة والنصف أو السابعة وأبقى فيه حتى الحادية عشرة أو الثانية عشرة وأحيانا

للواحدة صباحا .. وهكذا كل الأيام بما فيها يوم الجمعة أحيانا .. وابتلعني العمل بغير أن أحس واكتشفت فجأة أن أياما كثيرة تمر بدون أن أرى زوجي وأتحدث إليه فهو يكون خارج البيت حين أعود ظهرا .. ويكون نائما حين أعود ليلا وأيام الجمع التي يحرص على الخروج فيها أصبحت لا أرافقه معظم المرات لأني أصل إلى نهاية الأسبوع منهكة القوى فأجد نفسي نائمة معظم ساعات نهار الجمعة «كالفسيخة» من شدة التعب .. أفطر وأنام .. وأتغدى وأنام وكثيرا ما صحوت بعد العصر فأجده عائدا مع ابني من النادي أما أعمال البيت فلم أعد أضع يدي فيها بكل أسف لأني متعبة وقد خصصت نصف مرتبي كأجرة لمديرة بيت تأتي في الثامنة صباحا وتذهب في الخامسة لأعوض هذا الإهمال مني لكني كنت سعيدة وألمح الرضا في زوجي عن نجاحي .. وكثيرا ما قال لي إنه لابد أن تكوني رئيسة للمؤسسة وسوف تنجحين في ذلك إن شاء الله .

وذات يوم كنت في مكتبي فدخلت على مديرة مكتبي بلا أوراق أو ملفات في يدها فاستغربت ذلك وتوقعت أن تطلب مني اجازة واستعددت للرفض لكنها اقتربت وجلست ثم قالت لي إنها تريد أن تتحدث معي في أمر خاص ثم قالت لي خبرا نزل فوق رأسي كالمطرقة .. قالت لي إن زوجي قد تزوج من شهور من زميله له بالكلية مطلقة في الأربعين من عمرها وأنها عرفت ذلك منذ أسبوع من زوج شقيقتها الذي يعمل موظفا بنفس الكلية وأن الخبر معروف في الكلية منذ شهور لأنهما لا يخفيانه وأن « الأستاذة » تقيم مع أمها لأنها لم تنجب وأن زوجي يعد شقة أمه الراحلة لتكون عش الزوجية !.
أسرعت أضع النظارة على عيني لأخفي انفعالاتي وسألتها هل أنت متأكدة من ذلك فقالت لي نعم ولأول مرة منذ سنوات طلبت سائق السيارة ونزلت من

مكتبي قبل مواعيد العمل وأسرعت عائدة إلى البيت .. ووجدت زوجي فيه يجلس ساكنا على فوتيل يقرأ كتابا ويدخن البايب فى هدوء !.

ولم تبد عليه دهشة لعودتى المفاجئة .. وجلست بجواره وسألته عن الموضوع فإذا به يقول لى بهدوء عجيب .. الخبر صحيح !.

وصرخت فيه لأول مرة فى حياتى تزوجت ؟ فنظر لى مندهشا من ارتفاع صوتى وقال لى نعم ! قلت لماذا .. قال بنفس الهدوء لأنه لابد لكل رجل من زوجة ! فصرخت مرة أخرى وأنا ماذا أكون ؟ فقال أنت وكيلة هيئة مرموقة مشغولة بعملها ولجانها واجتماعاتها وطموحاتها .. ولم تعودى زوجة منذ أكثر من ٥ سنوات . لقد صبرت كثيرا وتحملت كثيرا وانتظرت أن تفيقى إلى نفسك وأن تؤدى إلى حقوق كزوج ولكنك لم تتنبهى إلى ذلك هل تذكرين متى كانت آخر مرة جلسنا فيها جلسة هادئة لمدة ساعتين معا ! ليس قبل عام على الأقل .. هل تذكرين آخر مرة تناولنا فيها طعام العشاء أو الغداء معا ؟ ليس قبل ١٠ شهور .. هل تذكرين آخر مرة أمضينا فيها أجازة لمدة ٣ أسابيع معا فى المصيف أو فى القاهرة ليس قبل عامين ؟.

ماذا كنت تنتظرين منى .. إنك تعرفين استقامتى وتعرفين أنى لا أقبل أن أفعل الخطأ .. لذلك كان لابد لى أن أتزوج وقد تزوجت !.

ووجدت نفسى عاجزة عن الرد لكنى قلت له وابنك ؟ قال ابنى أصبح شابا فى السابعة عشرة يفهم الدنيا .. وسوف يعذرنى إذا شرحت له الأمر لكنى لن أفعل ذلك إلا إذا أخبرتيه أنت بذلك لكن الأفضل أن يعرف الأمر فى الوقت المناسب وتجمد لسانى فى حلقى .. وبعد دقائق مرت كالشهور قلت له : والعمل ؟ قال لى كما تشائين .. إذا أردت استمرار العلاقة الزوجية فأنا على استعداد لذلك وإذا أردت الانفصال فأنا أيضا على استعداد لذلك ولن يتغير

أي شيء فى حياتك لأنى سأترك لك الشقة بما فيها وسآخذ كتبي وأوراقى فقط لكنك إذا سألتينى عن رأيي فسوف أنصحك بقبول الأمر الواقع وأن تستمر علاقتنا الزوجية حفاظا على مظهرنا الاجتماعى وعلى مركزك ولن تفتقدى شيئا منى .. لأنك فقدتينى بالفعل منذ سنوات ؟.

ونهضت من أمامه محطمة ودخلت غرفة نومى وانهرت فى بكاء عنيف ولم أشعر إلا بزوجى يقول لى : السيارة حضرت ! فقلت له لن أذهب للعمل اليوم قل للسائق أن يعود غدا !.

وأمضيت اليوم فى سريرى بلا طعام . وذهبت إلى العمل فى اليوم التالى وأنا شبه مريضة ، ومرت أيامى ثقيلة أفكر فى حالى وفى العرض الذى عرضه على زوجى .. وبعد أسبوعين من التفكير قررت ألا أطلب منه الطلاق وأن استمر معه حفاظا على كرامة الأسرة وحرصا على مشاعر ابنى وتظاهرت بالقوة والاستهانة بالأمر وازددت استغراقا فى العمل لأنسى مشكلتى لكنى كلما تذكرت الأيام السعيدة التى عشتها معه .. وتذكرته وهو يعلمنى حقائق الحياة ثم وهو يشجعنى على العمل والتقدم فيه ونزهاتنا البريئة فى الأيام الخالية .. ثم أتذكر حالى وما وصلت إليه من وحدة وافتقاد للزوج والحبيب والأستاذ فأنهار وأبكى وفى أحيان أخرى أتذكر أن لى « ضرة » تسعد بزوجى ويسعد بها فتنشب النار فى جسمى .. وأفقد سيطرتى على نفسى وأشد شعرى من الغيظ فهل رأيت وكيلة مؤسسة على سن ورمح ترأس أكثر من مائة موظف ولها ضرة ؟.

وهل أخطأت حين قبلت الاستمرار معه ولم أطلب الطلاق لقد مر على قرارى هذا ستة شهور إلى الآن لم أهنأ فيها بنوم ولا براحة ولولا مشاغلى وحياتى الاجتماعية فى العمل لجننت وزوجى يحرص على عدم جرح مشاعرى

ولكنى أحس أنه بعيد عنى وبينى وبينه حواجز عالية فهل ترى أننى أخطأت فى قبول هذا الوضع وكيف يشجعنى على التفانى فى العمل ثم يحاسبنى على العمل بنصيحته وعلى النجاح الذى حققته بفضله ؟ وماذا يريد منى أكثر مما قدمت وسنواتنا معا مرت كلها بلا مشاكل ولا أزمات ؟.

□ □ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : يريد الرجل من زوجته يا سيدتى أن تكون « زوجته » أولا ثم أى شىء آخر بعد ذلك ! لقد علمك حقائق الحياة كما تقولين وشجعك على العمل والنجاح لكنك تجاوزت باعترافك الخيط الرفيع بين الطموح المشروع للزوجة فى عملها وبين دورها كزوجة تشارك زوجها حياته وأفكاره وأوقاته .. فاختلطت عليك الأوراق .. وانفصلت معنويا عن زوجك منذ فترة طويلة بغير أن تشعرى . وغابت عنك حقائق كثيرة .. فغاب عنك أن زوجك ينتظرك .. وأنه مل الانتظار وأنه قد تجاوز بعد صبر طويل الاحتجاج الصامت إلى الاحتجاج العلنى .. فتزوج !.

لقد بحث عنك زوجك يا سيدتى طويلا ولم يجدك .. ولأنه رجل جاد فلقد رأى أنه بلا زوجة ويحتاج إلى زوجة فتزوج .. فإن كنت ألومه على شىء فعلى أنه لم يكن كالعهد به صريحا معك فى هذا الأمر .. ولم ينبهك فى الوقت المناسب إلى أنه لم يعد يحتمل انشغالك عنه وعلى أنه لم يحاول جديا استعادتك إليه من عملك ومشاغلك .. ولم ينذرك مرة ومرات إلى خطورة استمرار هذا الحال قبل أن يقدم على خطوته كما لم يبلغك بنواياه قبل أن يقدم على الزواج ويخيرك بين الاستمرار وبين الانفصال ولو فعل كل ذلك لما كان ملوما فيما فعل !.

فأنت فعلا قد انصرفت عنه إلى طموحك وإلى التحدى الذى قبلتيه فى عملك وأجهدت نفسك فى مواجهته وليس فى اهتمام الإنسان بعمله وفى تفانيه

فيه ما يعيبه .. بل هو من مزاياه بكل تأكيد ولكن بشرط ألا يكون ذلك على حساب واجباته الأساسية الأخرى .. وأى واجب أحق بالأداء من واجب الزوجة تجاه زوجها وابنها وأسرتها ؟ وأى معنى للزواج حين يفتقد الزوج زوجته وهى معه تحت سقف واحد وحين تمر الشهور بل والأعوام وهما لا يلتقيان ولا يتناجيان ولا يتشاركان فى شئون الحياة ولا يبدد كل منهما وحشة الآخر ؟.

إن التوفيق بين الطموح الشخصى والتفانى فى العمل وبين الحياة الخاصة أمر ليس مستحيلا لكن بعيدى النظر هم وحدهم الذين يحرصون عليه لأنهم يعرفون حقائق الحياة ويعرفون جيدا أنه لا قيمة للطموح ولا المناصب ولا المال .. ولا للوجاهة الاجتماعية ولا لأى شىء والإنسان تعيس فى حياته الخاصة ووحيد داخليا رغم زحام الآخرين حوله .

ولقد غاب عنك هذا الدرس يا سيدتى فى السنوات الأخيرة من حياتك فدفعت ثمنه غاليا من سعادتك الشخصية . لكنك لم تخسرى المعركة نهائيا على أية حال ... فأنت شخصية صلبة ذات إرادة قوية ولقد قبلت التحدى فى حياتك العملية وواجهتيه باقتدار فلما لا تقبلينه أيضا فى حياتك الخاصة ! وتواجهينه بنفس الاصرار ؟ إنك تستطيعين إستعادة زوجك الذى تربطك به وتربطه بك علاقة العمر والروابط العديدة ... لو تذكرت فقط أنك فى بيتك زوجة وأما وامرأة أولا وقبل كل شىء ولست وكيلة مؤسسة ولا وكيلة وزارة . لأن الرجل يا سيدتى لا يرى فارقا بالمرة بين وكيلة الوزارة وبين وكيلة المدرسة الإبتدائية فى علاقته الخاصة بها ... وهو كزوج يرى فى شريكة حياته زوجة وامرأة وأما ورفيق حياة قبل أن تكون أى شىء آخر ، أما وظائفها وألقابها فلتكن ما تكون خارج حدود علاقته بها وخارج حدود بيته وعالمها الصغير .

فلم لا تراجعين نفسك .. وتصلحين من شأنك .. وتقتربين من زوجك

ليستعيد فيك الزوجة الغائبة .. والحبيبة الأولى .. إننى أتصور أن علاقتكما أعمق من هذه الأزمة العابرة التى يمكن أن تنتهى بعودة زوجك كاملا إليك .. وأتصور أنكما سوف تعبران هذه المحنة الطارئة بقليل من الإنصاف منك لنفسك أولا قبل زوجك .. وبقليل من المهارة والإرادة القوية التى يستفزها التحدى فتنهض لمواجهته وتنجح دائما فى تحقيق ما تريد فلم لا تخوضين هذه المعركة الجديدة يا سيدتى متسلحة هذه المرة بدروس ثمينة من هذه التجربة الأليمة ؟.

صورة تذكارية

أكتب لك يا سيدى فى إحدى مناسباتى العائلية لأحكى لك قصتى لعل فيها ما يفيد الآخرين . فمنذ سنوات طويلة كان أبى موظفا بسيطا بالحكومة تزوج من والدتى وأنجب منها ابنتين وولدا هو أنا ، وقبل أن أتم عامى الثانى رحلت أمى عن عالمنا فتزوج أبى بعد فترة من سيدة ريفية بسيطة أنجبت له ٥ بنات فى ٥ سنين وهكذا وجدت نفسى حين بلغت سن الصبا ولدا وحيدا على سبع فتيات ووجدت أسرتى المكونة من عشرة أفراد تعيش فى شقة صغيرة من حجرتين وصالة تغالب قسوة الظروف وقلة الدخل وحين تزوجت أختى الكبرى كادت الأسرة تتوقف عن الحياة من التقشف ووطأة التكاليف ، ثم أحيل أبى إلى المعاش بعدها بعام واحد فانخفض الدخل إلى حوالى النصف وأصبحت الحياة أشد مرارة .

ورغم قلة الدخل وكثرة الأعباء فلقد كان أبى مصمما على تعليم أبنائه ليجدوا لأنفسهم موطئ قدم فى زحام الحياة . ولم تكن ظروفنا تسمح لنا بترف الرسوب فى المدرسة لهذا واصلنا تعليمنا تحت ضغط ظروف لا ترحم حتى حصلت على الثانوية العامة بمجموع كبير رشحنى للالتحاق بكلية الطب ـ وهنا توقفت قليلا لأفكر .. كلية الطب .. ومن أين لى بنفقات الكتب والدروس الخصوصية فيها . وهل أستطيع أن أعتمد فيها على نفسى وحدها كما

اعتمدت عليها فى المراحل السابقة ، وأقنعت نفسى بعد جهد بأنى أستطيع ذلك فعلا فالتحقت بكلية الطب فى مدينتى الساحلية ، لكنى أكتشفت بعد قليل كذب أوهامى ، فلم أستطع الحصول على بعض الكتب حتى نهاية السنة .. وتعذر على متابعة بعض العلوم بدون مساعدة خارجية ولم أجد طبعا مليما واحدا لأدفعه ثمنا لدرس خصوصى فضلا عما وجدت نفسى فيه من غربة داخل مجتمع الكلية بمظهرى البائس وبملابسى التى يرجع تاريخ بعضها إلى المرحلة الإعدادية ، وهكذا رسبت فى أول سنة لى فيها رسوبا فاحشا ، وانطويت على نفسى حزينا لمدة ثلاثة أيام أشفق على خلالها أبى وإخوتى وهم يعرفون مرارة الظروف فلم يلمنى أحد ، وبعد تفكير طويل وجدت أننى أحتاج لكى أنجح إلى العمل لكى أوفر لنفسى أثمان الكتب وإلى تقسيم وقتى بحيث لا يؤثر عملى على دراستى فبدأت من شهور الصيف أعمل واستذكر دروسى معا ، وكان العمل الذى اخترته بسيطا للغاية وقد بدأ بثلاثة جنيهات اقترضتها من أبى ، فصحوت فى الفجر وذهبت إلى منطقة الملاحات واشتريت من الصيادين « شروة » سمك بساريا وضعتها فى كيس كبير ثم رحت أطوف على بيوت الأحياء القريبة لأبيعها بالقطاعى للأسر لتستخدمها كطعام للبط والدجاج . ولم يسفر اليوم الأول عن ربح يذكر ، وفى اليوم الثانى شكوت للصياد الذى اشتريت منه بالأمس ذلك وشرحت له ظروفى فقال لى متألما إنه ظن أنى اشتريته لأسرتى فأعطانى السمك بسعر المستهلك ، لكن ما دمت اشتريته كوسيلة للرزق فسوف يخفض لى السعر ويوصى زملاءه أيضا بذلك ، وأعطانى فى هذا اليوم السمك بنصف سعر الأمس تقريبا ، وهكذا بدأت رحلتى «كتاجر» سمك صغير على باب الله وبعد أسبوع رددت لأبى القرض الذى اقترضته منه وبعد شهرين بدأت أمد أسرتى ببعض القروش الصغيرة ،

وجاء العام الدراسى وانتظمت فى الدراسة ولم يتغير فى نظامى شىء سوى أن أعود للبيت فى الصباح لأبدل ملابس بائع السمك بملابس طالب الطب وإن كانت لا تكاد تفترق كثيرا عنها ! ونجحت فى السنة الاعدادية بصعوبة ، وفشلت فى السنة الأولى ثم نجحت فى العام التالى ولحقت بى إحدى شقيقاتى فى نفس الكلية وأنا مازلت فى السنة الثانية ، ووجدت عائد المهنة لا يسعفنى فضلا عن طول المشوار إلى الملاحات فى الفجر وقررت أن أبحث عن عمل آخر أكثر إيرادا وذات يوم كنت عائدا من مشوارى الصباحى فوجدت أمامى مخزنا لأنابيب البوتاجاز والعمال يضعون الأنابيب على عربات تروللى صغيرة وينصرفون بها . وبلا تفكير وجدت نفسى أتقدم إلى صاحب المخزن وأسأله عما إذا كان يريد عاملا جديدا فتفحصنى برهة ثم قال لى : من أنت يا ابنى ؟ فعرفته بنفسى وأخرجت له بطاقتى الشخصية وبطاقة الكلية فتفحصها باستغراب ثم قال لى ، إنه لا يستخدم إلا من يعرفه شخصيا من العمال لأنه يسلم كلا منهم عربة تروللى وبضع أنابيب لذلك فهو يخاطر إذا فعل ذلك معى ، لكنه مع ذلك يتوسم فى الأمانة لذلك فسوف يستخدمنى ابتداء من الغد « ورزقى ورزقه على الله » !.. فاندفعت أصافحه بشدة وأهز يده وأشكره من كل قلبى وهو يضحك ويستغفر الله وفى صباح اليوم التالى كنت أقف أمام باب المخزن أنتظره حتى جاء ، وجاءت عربة البوتاجاز ووزع على كل منا نصيبه ورحت أدفع التروللى أمامى وأطوف على البيوت وقد ربطت الأنابيب بسلاسل حديدية فى العربة ، وبعد أن حدد لى المنطقة التى أعمل بها فأدخل أول عمارة وأطرق بالمفك على الأنابيب ، فتنفتح أبواب الشقق ويتعالى النداء على فأحمل الأنبوبة على كتفى وأصعد وأتولى فك الأنبوبة الفارغة وتركيب الجديدة وأقبض الثمن وأنزل وتفرغ حمولة التروللى فأعود مسرعا إلى المخزن

لأحضر حمولة جديدة وهكذا واستمررت فى هذا العمل أربع سنوات تحسنت خلالها ظروف وظروف الأسرة قليلا فاشتريت الكتب لكن مظهرى لم يتحسن وربما ساء رغم أنى كنت أحرص على ارتداء الأوفرول فوق ملابسى فى المخزن ثم أخلعه بعد انتهاء العمل وأحمل كتبى وأذهب إلى الكلية .

ولأن للجسم طاقة لا يستطيع تجاوزها ، فكثيرا ما كنت أبدو خلال الدروس العملية بالكلية التى تمتد أحيانا إلى ما بعد الظهر منهكا فاقد الحيوية واستلفت ذلك نظر زميلة لى بالكلية كانت رقيقة وجميلة ومهذبة دائما فوجدتها ذات يوم تقولى لى : « أنت مالك مبهدل ونايم على نفسك دائما كده ؟ » ثم أحست بالخجل بعدها وحاولت الاعتذار فهونت عليها الأمر فلقد وجدت فى سؤالها رغم قسوته نوعا من الاهتمام بى سعدت به على عكس ما توقعت هى ، ولست فى حاجة لأن أقول لك إننى حتى هذه اللحظة وكنت فى السنة الرابعة من الكلية لم أكن قد تنبهت بعد إلى أن فى الكلية زميلات .. أو أن فى الحياة فتيات عدا أخواتى ، فأنا مشغول بعملى الشاق وبدراستى وبظروف حياتى عن مثل هذا الترف لذلك فقد سعدت جدا باهتمام هذه الزميلة واطمأننت إليه وأصبحت كلما لقيتها أحييها وأتبادل معها الحديث وواصلت العمل والدراسة .. وازدادت ثقة صاحب المخزن فى فأصبح يعطينى عربة بأربع عجلات تتسع لحوالى عشرين أنبوبة وخصص لى صبيا صغيرا يخرج معى ليحرس العربة حين أحمل الأنابيب إلى الأدوار العليا ، ولم يعد يضايقنى شىء فى هذا العمل سوى تحكم بعض بوابى العمارات وإصرارهم على عدم السماح لى بحمل الأنابيب بالمصعد وتمسكهم بأن يكون التسليم ولو للدور العاشر عن طريق السلم المرهق .

وذات صباح حملت أنبوبة بوتاجاز إلى شقة فى الدور الخامس من عمارة

فاخرة جديدة أضافها صاحب المخزن إلى منطقتى بعد أن تركه أحد العمال وسافر للعراق فدخلت إلى المطبخ وفككت الأنبوبة الفارغة وركبت الجديدة وأجريت لها الاختبار التقليدى وغادرت الشقة بسلام وحملت الأنبوبة الفارغة على ظهرى ومددت يدى إلى ربة البيت لأتسلم الأجرة فوجدت إلى جوارها فجأة زميلتى بالكلية إياها والتقت عيناى بعينيها ، فى لمحة خاطفة .. فتأكدت من أنها عرفتنى رغم الأوفرول المشحم والمنديل الذى أربط به رأسى ، لكنها لم تبد أى انفعال وأسرعت أنا أهرول على السلالم .. وأنا لا أكاد أرى طريقى من الضيق والهم ووقفت على باب العمارة لحظات حتى تهدأ أنفاسى ، ثم ساعدت الصبى فى دفع العربة وأنا شبه غائب عن الوعى .. والخواطر تتدافع داخلى ماذا ستفعل ؟.. هل ستذيع سرى فى الكلية ويتغامز الطلبة علىّ ويهزئون بى .. وهل سترحب بصداقتى بعد ذلك أم سترانى غير جدير بها ؟.

وعند العمارة التالية حاولت أن أرفع أنبوبة مملوءة لأدخل بها العمارة فوجدت ذراعى تخوناني فعدلت عن ذلك ، وأدرت العربة إلى طريق المخزن واعتذرت لصاحبه بأنى مريض وحاسبته وانصرفت إلى بيتى .

وأمضيت فى البيت ثلاثة أيام لأذهب خلالها إلى الكلية ولا أكاد أنام .. وبعد يومين ساءلت نفسى لماذا كل هذا الضيق وأنا لا أخجل من ظروفى أمام أى أحد .. ووجدت الإجابة واضحة كالشمس أمامى .. لأنى غارق بغير أن أدرى فى حب هذه الزميلة الفاضلة حبا صامتا يملك على عقلى وكيانى وأتطلع إلى مستقبل أفضل أتغلب فيه على صعوباتى وأصبح فيه جديرا بها .. لكن ما حدث قد هدم هذه الأحلام .

وبقوة الألم وحدها شققت طريقى إلى الكلية فى اليوم الرابع وأنا أتحسب

لكل نظرة من زميل أو زميلة فوجدت العيون خالية من أى تعبير ثم جاءت هى بنفس النظرة الهادئة المهذبة التى عهدتها فيها من أول يوم وقالت لى بلهفة : أين أنت أريد أن أتحدث معك وانتحت بى جانبا من الكلية وسألتنى بحنان عن قصتى فوجدت نفسى أحكى لها كل شيء ، وعندما انتهيت كانت نظرة الاحترام تطل من عينيها وهى تؤكد لى أننى شاب مكافح شريف وأنها تتمنى لنفسها انسانا مكافحا أمينا مثلى ، وأنها لا تعترض على عمل البوتاجاز فى شيء إلا فى أنه مرهق ويسلبنى معظم طاقتى على الدراسة والاستذكار لذلك فهى تفضل أن أبحث لنفسى عن عمل أقل مشقة .. واختتمت حديثها قائلة : وسوف نبحث عن هذا العمل معا !.

يا إلهى لماذا لا تأتى السعادة غالبا إلا بعد مكابدة العذاب ؟! ! لقد عشت ثلاثة أيام فى الجحيم .. فإذا بكل آلامى تذوب فجأة وأنا أسمع هذه الكلمات السحرية .. وأقبلت على الحياة من جديد وواصلت العمل فى البوتاجاز لمدة شهرين فقط بدأت بعدهما أعمل كمدرس خصوصى لطلبة الاعدادى فى المنازل والمساجد ، ورغم انخفاض الدخل فلقد كان ما يأتى به هذا العمل خير معين لأسرتى ولى ، وساعدنى بالفعل على اعطاء جهد أكبر لدراستى ، وتخرجت فتاتى من الكلية قبلى بعام ولم تنقطع عنها ولاعنى وتقدم لها خطاب كثيرون رفضتهم جميعا وشجعتنى على إنهاء دراستى وتخرجت بالفعل وعادت فشجعتنى على التقدم لأسرتها وأنا مشفق من ظروف ومن الرفض لكنى استجبت لها وتقدمت وليتنى ما فعلت ، فقد سمعت كلاما كوى جسدى وقلبى بالنار ، وخرجت مهزوما مدحورا ولم أشأ أن أحملها ما لا طاقة لها به ، فانسحبت من حياتها ومن المدينة كلها وطلبت نقل سنة الامتياز الخاصة بى إلى إحدى المستشفيات فى أقصى الصعيد ، وحملت ملابسى القليلة وسافرت إلى

هناك ومضت الشهور ثقيلة مريرة وأنا أتابع أخبارها عن طريق شقيقتى طالبة الطب ، وانتهت سنة الامتياز وبدأت سنة التكليف فى الصعيد وأفرغت كل طاقتى فى العمل وفى رعاية أسرتى على البعد فكنت أرسل إليها معظم ما أتقاضاه .

ووجدت فى هذه المدينة الصغيرة البعيدة سلواى عن فتاتى التى لم أحب سواها وافتتحت عيادة صغيرة بعد عامين جعلت منها مسكنى وعملى ، وعرفت وأنا هناك أن فتاتى قد أرغمت على الزواج من رجل أعمال « من بتوع اليومين دول » وأنها غير موفقة معه وأن حياتها جحيم لا يختلف عن جحيم حياتى .. ومضى عام آخر ونفسى لا تسلوها ولا تغيب عنى صورتها وفى الساعة الرابعة من مساء ذات يوم كنت جالسا فى غرفة الكشف بالعيادة استعد لاستقبال المرضى حين فتح الباب ودخلت سيدة فرفعت رأسى إليها فإذا بها فتاتى بلحمها وشحمها .. وقفزت أرحب بها وجلست تروى لى بدموعها قصتها ، فقالت لى أنها حصلت على الطلاق بعد حياة مريرة وزواج غصبت عليه تحت ضغط الأهل ، وأنها بحثت عنى بعد الطلاق فى كل مكان من المدينة فلم تجدنى حتى عرفت أخيرا مقرى ، وأقنعت أهلها بأن يعطوها حريتها فى اختيار شريك حياتها بعد أن أثبتت التجربة المريرة حقها فى ذلك ، فركبت القطار فى الفجر لتراني .. وتسألنى هل مازلت راغبا فيها وأنها ستعود بنفس القطار بعد ساعة ، فوجدت نفسى أقول لها على الفور : لن تعودى إلى مدينتك إلا وأنت زوجة لى على سنة الله ورسوله وتركتها فى العيادة وخرجت وعدت بعد نصف ساعة ومعى مأذون البلدة وصاحب البيت الذى أقيم فيه وطبيب بالمستشفى الحكومى .. وعقد القران ، وشهد صاحب البيت والصديق الطبيب على العقد وطلبت منها أن تنهض لتلحق بالقطار ، فقال لى الحاج

صاحب البيت ولماذا تعود كل هذا الطريق فى الليل وهى زوجتك أمام الله والناس .. تعاليا معى إلى شقتى لنخاطب أسرتها فى التليفون ونبلغها بالخبر السعيد ونستأذنها فى بقائها معك إلى أن تنزلا معا بعد أيام فى اجازة ، وسأعد لكما الشربات وعشاء الزفاف على بركة الله .. وفى مسكنه تم الاتصال التليفونى ووزع الشربات ، وأطلقت إحدى السيدات زغرودة فتساقطت معها دموعى ودموع زوجتى وأحتفت بنا أسرته إلى أن نزلنا إلى مسكننا لنرشف السعادة التى حرمنا منها بلا ذنب ونهجع إلى السكينة بعد طول عذاب .

وبالفعل سافرنا بعد يومين واسترضينا الأهل وباركوا زواجنا وسعدت به أسرتى وعدنا إلى البلدة الطيبة التى وجدت فيها مستقبلى ونقلت زوجتى إليها ، ووجدنا بعد شهور شقة أخرى لسكننا ، وابتسمت لنا الدنيا ، أخيرا وتخففت من كثير من الأعباء فتخرجت أخواتى وأصبح لكن منهن حياتها . وكانت المناسبة العائلية التى أوحت إلىَّ بالكتابة إليك هو عيد الميلاد الثالث الذى احتفلنا به أمس لطفلتنا الوحيدة ثمرة الحب والعذاب «وفاء» .. فلقد وقفت مع زوجتى وبيننا طفلتنا لنلتقط صورة تذكارية لنا ، فوجدتنى فجأة غارقًا فى الذكريات أستعرض شريط حياتى من «شروة السمك فى الفجر إلى سنوات البوتاجاز إلى سنوات الحب اليائس إلى الهزيمة والاندحار إلى اجترار الآلام فى بلدة بعيدة .. إلى عودة الحب الذى توجناه بالارتباط وبالطفلة التى اخترنا لها إسم وفاء !»!.

وقررنا أن نكتب إليك هذه الرسالة ، لعل البعض يجدون فيها ما يساعدهم على تحمل ظروفهم وما يحفزهم على ألا يفقدوا الأمل دائما فى غد أفضل يتحقق بالكفاح والإرادة والحب فنحن مازلنا نكافح لتحسين ظروفنا ، لكن الكفاح فى ظلال الحب أهون كثيرا منه فى ظل الشقاء

والتعاسة .. وهذا ما أردت أن أقوله لقرائك والسلام ..

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : لقد سعدت بنشر رسالتك هذه رغم أنها لا تحمل مشكلة ولا تطلب رأيا .. لأن فيها فعلا ما يفيد الآخرين ويهدئ المشاعر ويبعث الأمل فى النفوس ، فليس برسائل المعذبين وحدها نتعلم الحكمة وانما برسائل السعداء أيضا نثرى تجاربنا الإنسانية ونفهم أسرار الحياة ، ولو سطر كل إنسان تجربته فى الحياة على الورق سعيدة كانت أم شقية لأضافت بكل تأكيد إلى معرفة الآخرين بالنفس البشرية الكثير .. وفى الحق أنه ليست هناك دائما تجارب شقية أو تجارب سعيدة من البداية إلى النهاية ، لأن الحياة مزيج عجيب من الاثنتين ولا بأس بذلك لأنها سنة الحياة ، ولأن المهم هو أن يسقط المطر وينبت الخير فى النهاية لمن بذر الحب والوفاء والعطاء للآخرين كما فعلت . بل ولا عجب أيضا فى أن يعود إليك نصفك الغائب حتى ولو ضل الطريق إليك ثلاث سنوات ، لأن ما جمعه الله لا يفرقه إنسان ولأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ! !.

إن أجمل ما فى رسالتك يا صديقى هى أنها تخلو من نغمة الرثاء للنفس التى تسود رسائل كثيرين من القراء ربما لم يكابدوا بعض ما كابدته فى حياتك من كفاح ومعاناة . وأروع ما فيها هى أنها تقول للآخرين بالتجربة الصادقة أن الإنسان قادر دائما على أن يحقق لنفسه بعض ما تصبو إليه بالكفاح وبالإرادة والصبر ، فلقد استطاع الإنسان أن يتغلب على كوارث الطبيعة ويروض الوحوش ويستأنس الجوارح بقدرته على الكفاح والتكيف وتلمس أسباب السعادة فى أبسط الأشياء ، فى حين عجز الديناصور الذى تفوق قوته قوة الإنسان عشرات المرات ، عن أن يغالب ظروفه ويتكيف معها فانقرض واندثر وبقى الإنسان ينسج كل يوم قصص حبه وكفاحه ويبنى أعشاشه كل يوم وإلى

أبد الآبدين إن شاء الله .

لقد كانت رسالتك هذه يا صديقى نسمة رقيقة تنسمتها وسط الأنين الذى ينبعث من مئات الرسائل الأخرى .. لكن لماذا يا ربى لا تخلو حتى رسائل السعداء مما يثير الشجن ؟.. ولماذا تخفق قلوبنا معهم وهم يتحدثون عن معاناتهم حتى إذا ما وصلوا إلى لحظة السعادة والتنوير التى يتبدد فيها الظلام ويجتمع الشمل .. وجدنا العين تندى معهم فى أفراحهم .. كأنه لابد دائما مما يثير الأحزان ولو فى لحظات السعادة !!!.

المتـــــفوق!

أنا سيدة فى الثانية والثلاثين من عمرى تخرجت منذ ٨ سنوات فى إحدى الكليات العلمية وأعمل بوظيفة محترمة وبمرتب لا بأس به . وقد بدأت رحلتى فى الحياة فى ظل أبوين عطوفين لم ينجبا غيرى . وكان أبى مهندسا أمضى حياته فى خدمة الحكومة قنوعا شريفا فعشنا حياة هادئة لا ترف فيها ولا ضيق ، وقد جعل أبى هدف حياته أن يحسن تعليمى وتربيتى فأدخلنى المدرسة الفرنسية منذ صغرى ، ولم يبخل على بشىء فى سبيل تهذيبى وتقويمى ، وكان يقول لى أنت ثروتى الوحيدة التى خرجت بها من الحياة ، ولقد أحببته وأحببت أمى كثيرا ونشأت فى جو أسرى صالح . ومضت بنا الحياة هادئة إلى أن التحقت بالجامعة وتقدمت فيها حتى السنة الثالثة وفى هذه المرحلة من العمر تعرفت بزميل لى فى الجامعة كان ينافسنى فى التفوق بالكلية ، فكان ترتيبى الأولى على دفعتى فى السنة الأولى وكان ترتيبه هو الثانى وفى السنة الثانية جاء هو الأول وكنت الثانية ، فلما جاءت السنة الثالثة تقدم منى ذات صباح فى الكلية ، وقال لى بدون مقدمات أنه آن الأوان لكى نتعرف جيدا ، لأن خط كل منا فى الحياة متشابك مع خط الآخر !!.

ورحبت بالتعارف به ، فلقد كنت أشعر بأننا سوف نلتقى ذات يوم رغم أننا لم نتبادل سوى كلمات التحية فى مناسبات متفرقة وسألنى عن الطريقة التى

نتعرف بها فقلت له إن الطريقة الوحيدة التى أعرفها هى أن يقوم بزيارتى فى البيت لأقدمه لأبى وأمى كزميل لى لأنى تعودت على أن أفعل كل شىء فى النور .. وألا أخفى شيئا عن أبى وأمى ، فتردد قليلا ثم قبل دعوتى له لتناول الشاى عصر اليوم التالى وأعطيته العنوان ، وعدت للبيت فرويت لأمى وأبى كل شىء وفى الموعد جاء زميلى واستقبله أبى بلا تكليف ورحب به وتحدث معه عن الدراسة والكلية ورحبت به أمى بطبيعية وقالت له إنها تعرف أنه ينافسنى فى التفوق وأنها سعيدة بذلك لكى يحفزنى على التفوق دائما . وأمضينا ساعة فى جلسة عائلية هادئة وانصرف زميلى سعيدا ، وفى اليوم التالى سألنى عن رأى أبى وأمى فيه فقلت له ما قالاه وهو أنه شاب ذكى مجتهد ، فسألنى عن رأيهما فى « هندامه » لأن ملابسه ليست غالية فى رأيه ، فقلت له إنهما لا يقيمان الناس بملابسهم وإنما بأخلاقهم واستقامتهم ، فسعد جدا بهذا الكلام وبدأ يزورنى كل أسبوع أو أسبوعين .. ويزور أبى فى مكتبه وأحب أبى كثيرا وأحبه أبى الذى لم ينجب ولدا ولم تمض أسابيع حتى فاتحنى بحبه ورغبته فى خطبتى وخوفه من أن يرفضه أبى لأنه من أسرة صغيرة وأمامه سنوات طويلة لكى يستطيع أن يبنى حياته ، فشجعته على مفاتحة أبى وطلبت منه أن يشرح له كل ظروفه بلا مداراة ، وجاءنا عصر ذلك اليوم وانتحى بأبى جانبا فى الصالون وتحدث معه طويلا وأبى يسمع له بعطف .. ثم انتظر كلمتة فنادى أبى أمى ونادانى .. وجلسنا فقال موجها الحديث لأمى : اشرحى « لفلان » كيف كان حالى حين تعرفت بك وتقدمت لخطبتك وكيف ساعدنى أبوك رحمه الله فى بداية حياتى ، فانطلقت أمى تحكى قصة زواجها وكفاحها وتنقلها بين مدن الأقاليم إلى أن استقرا فى القاهرة وأثثا هذه الشقة .. إلخ . وأنهت حديثها بأن الحب يصنع المعجزات وأن سنة الحياة أن يبدأ الإنسان

صغيرا ثم يكبر وأن يساعد الكبير الصغير فى بداية مشواره .

ولم يتردد أبى فى الموافقة لأنه قد سألنى حين أبلغته بالأمر عن مشاعرى تجاهه ومدى رغبتى فيه فأجبته بالصراحة التى تعودتها معه وشرحت له كل ظروفه العائلية .. فلم يتوقف عندها لأنه يحترم كل إنسان مهما صغر شأنه ..

وهكذا جاءت أسرة خطيبى لتخطبنى ورحبت بها أسرتى ولم تشعر بأى غربة رغم انكماشها وتهيبها ، وكان الأمر الذى أثار تردد خطيبى هو أن أباه موظف صغير بالابتدائية القديمة ، وأن أمه شبه أمية ، لكن ذلك لم يغير من الأمر شيئا وسعدت بخطبتى ولم أخف فرحتى عن زميلاتى وصديقاتى ورحنا نذاكر معا ونحضر المحاضرات معا وظهرت نتيجة السنة الثالثة فكنت الأولى مرة أخرى وكان هو الثانى ، وقال لى خطيبى ضاحكا بعدها أنه تعمد ألا يجيب على إحدى فقرات سؤال فى إحدى المواد لكى يعطينى الفرصة «كجنتلمان» على حد تعبيره لأن أتقدم عليه فى الترتيب ، فثرت عليه وطالبته بألا يفعل ذلك فى السنة النهائية لكى لا يضيع فرصته فى التعيين كمعيد فى الكلية وأن يترك الأمر للحظ والنصيب وحدهما .

وأيدنى أبى فى ذلك وضحك طويلا لهذه الحكاية .. واعتبرتها أمى دليلا قاطعا على حبه لى .. ثم جاءت السنة النهائية وبذل كل منا جهدا خارقا فى المذاكرة .. وظهرت النتيجة فجاء هو الأول وجئت أنا الثانية .. ولم أحزن لذلك بل سعدت به لأنها كانت فرصته الوحيدة للتعيين فى وظيفة معيد أما أنا فقد كنت لا أجد نفسى فى التدريس وأتمنى أن أعمل عملا آخر .. ومع ذلك فلم يعين لا هو ولا أنا بالكلية ، وإنما عينوا الثالث والخامس ! ! وثار خطيبى ثورة عارمة وسب ولعن ونوى أن يرفع قضية على الكلية ، فحاول أبى تهدئته والتخفيف عنه بأنه سيسعى لتعيينه فى هيئة علمية لها نفس مكانة الجامعة

وبنفس الكادر الجامعى ، وفعلا تمكن من تعييننا معا فى هذه الهيئة ، وبدأنا حياتنا العملية وانتوينا معا أن نستكمل دراساتنا العليا .. وبعد شهور من التعيين رحل أبى عن عالمنا فى هدوء .. لفظ أنفاسه فجأة وهو جالس إلى مكتبه قبل أن يصل إلى سن المعاش بعامين كأنه أراد أن يطمئن على أنه قد وضعنا على بداية الطريق ثم يتركنا لنستكمله معا ، وعرفت الحزن لأول مرة فى حياتى .. وخلت حياتنا من أبى الباسم العطوف ، ووقف خطيبى إلى جوارى فى هذه المحنة وخفف عنا الكثير منها .. وبعد أن انتهت أيام الحداد فاتح أمى فى أن نعجل بالزواج .. فعرضت عليه أن نتزوج معها فى شقتها لأنها أصبحت خالية عليها بعد رحيل أبى ، وأيدت اقتراح أمى بشدة وتم الزواج بعد احتفال بسيط ، وأحسست أن الله قد عوضنى عن فقد أبى بأب وزوج لا يختلف عنه .. وابتسمت أمى لأول مرة بعد أن وجدت فى زوجى الابن ورجل الأسرة بعد غياب أبى .

وأنجبت طفلة جميلة حولت هدوء بيتنا إلى ضجيج لذيذ وتقدم زوجى فى عمله بخطوات سريعة ، وتقدمت معه ، وعدنا إلى مشروعنا القديم للدراسات العليا ورجعنا للمذاكرة سويا والسهر معا ، وحصلنا معا على الماجستير فى فترة متقاربة وسجلنا للدكتوراه ، وفى هذه الفترة بدأ حماسى للدراسة يقل لأنى شغلت بعملى وبيتى وابنتى وأمى وبزوجى قبل كل شىء ، وقلت له إننى سأتفرغ لرعايته خلال فترة إعداد الدكتوراه على أن أستكملها أنا فيما بعد ، لأنه كان شديد الإصرار على الحصول عليها فى فترة قياسية ليعمل بالتدريس الجامعى حلمه القديم . وفى أقل من ٣ سنوات ناقش رسالته وحصل على الدكتوراه ولم أكن أنا قد انهيت نصف رسالتى بعد ..

ولم يتنازل زوجى عن رغبته فى التدريس فسعى إلى الانتداب لإحدى

كليات الأقاليم ليدرس بها وأصبح يغيب عنى ثلاثة أيام كل أسبوع ، ولم اعترض على ذلك بل سعدت له ، لكنى وجمت حين جاءنى ذات يوم ليقول لى إنه سعى للعمل فى إحدى الجامعات العربية وأنه سيسافر إليها وحده لكى لا أقطع دراستى للدكتوراه وحاولت اقناعه باستطاعتى تأجيلها لعامين لكى أسافر معه .. فرفض بحجة أننى لو سافرت معه سأنصرف نهائيا عنها وهذا ما لا يرضاه ..

وهكذا افترقنا لأول مرة منذ ٨ سنوات .. وغاب شهور العام الدراسى كلها وجاء الصيف فعاد معه وقابلته بكل شوق الزوجة المحبة لزوجها وأصبحت فترة إقامته معنا عيدا ، ومضى عام دراسى آخر ثم عاد محملا بالهدايا .. وأشرقت حياتى من جديد وفى هذه الإجازة طالبته بالعودة لكليته بالجامعة الاقليمية ، خاصة وأن حياتنا معقولة وليس لدينا سوى ابنة واحدة نستطيع تربيتها أفضل تربية ، لكنه قال لى إنه شقى فى حياته كثيرا ويريد أن يوفر لابنته كل ما يكفل لها الحياة الراقية المريحة ، وسافر مرة أخرى ثم عاد فى اجازة العام الثالث ومن اللحظة الأولى التى رأيته فيها أحسست بأن شيئا ما فيه قد تغير ، ففرحته بلقائنا يشوبها نوع من الوجوم ويكاد يشعر بالخجل تجاهى وسألته عما به وألححت عليه فانهار وبكى ثم فاجأنى بآخر ما كنت أتوقع أن أسمعه منه فقد قال لى زوجى الحبيب أنه دعى وهو هناك لمساعدة طالبة « وطنية » أى من أهالى البلد الذى يعمل فيه فى رسالتها للماجستير فى بيتها ، وأنه استجاب للدعوة أملا فى أن يساعده أبوها فى « تثبيت أقدامه » بهذا البلد على حد تعبيره ، لأن الجامعة تتجه للاستغناء عن «غير الوطنيين» وأنهت بالفعل خدمة عدد من زملائه ، وأن هذه الطالبة مطلقة فى السادسة والعشرين من عمرها ولا تنجب وأنه .. تزوجها !!.

هل يتخيل ذلك ؟.. وهل تتخيل حالى حين سمعت هذا الكلام وأنا التى كانت تعد الأيام على وصوله وتشطب على أوراق النتيجة كل يوم وتفرح باقتراب موعد عودته ؟!!.

هذا ما حدث يا سيدى .. والعجيب أنه يطالبنى بأن أسامحه لأن ضميره يعذبه .. وأنه لن يفرط فىَّ ولا فى إبنته وأن هذا «المشروع» مؤقت وسينتهى فى اللحظة التى تنتهى فيها إعارته !.

كانت اجازة سوداء .. أمضى كل لياليها ينام فى الصالون ولا يجسر على أن يرفع عينيه فى عينى وكلما نظرت إليه طفرت الدموع من عينى .. وتعجبت كيف هان الحب عليه وأنا التى لم أغاضبه يوما .. ولم ير منى شرا ، واقتربت عودته .. وجاء يودعنى ويطلب الصفح عنه !! فقلت له كلمة واحدة : الطلاق ! فارتاع كأنه يسمع شيئا غير متوقع وقال لى إنه لا يستغنى عنى فقلت له إذن طلاق الأخرى وعودتك لجامعتك .. أو سفرى معك ، فطالبنى بمهلة ليدبر أموره .. وطالبنى أيضا بألا أنساق وراء عواطفى !.

ويبدو يا سيدى أن المصائب لا تأتى فرادى كما يقولون ، فعقب سفره بشهرين رحلت أمى عن الحياة وأصبحت وحيدة تماما بلا أهل ولا زوج وعاد زوجى فى اجازة لمدة أسبوعين ليقف إلى جوارى فى هذه المحنة لكنه رفض العودة النهائية إلى عمله فى مصر وطالبنى مرة أخرى بتحكيم العقل !.

ومضت الشهور ثقيلة حزينة .. وأنا وحدى فليس لى إخوة ولا أقارب قريبون منى سوى خال وحيد يقيم فى مدينة بعيدة وقد جاء عند الوفاة ثم عاد لمدينته .. أما أهل زوجى فكانوا يزوروننى من حين لآخر .. وحين جاء أبوه بعد الوفاة قال لى وهو صادق إنه غاضب مما فعل ابنه لا يقره عليه لأنى طيبة وجميلة وقد وقفت بجواره منذ عرفته ، لكنه لا يملك أن يرغمه على شىء ..

ومضت الأيام ثقيلة حتى فوجئت بزوجي يدخل على ذات يوم بغير أن يخطرنى من قبل بعودته .. وبلا حقيبة سفر كالعادة .. لأكتشف من حديثه أنه جاء منذ أيام مع زوجته الجديدة ويقيمان فى فندق ٥ نجوم يليق بمكانتها ! وأنه جاء ليرانى ويرى الطفلة ويستأذننى فى أن تزورنى « زوجته » لتتعرف على وترى الطفلة التى تحبها كثيرا لأنها تحب الأطفال ومحرومة منهم ، ثم ليشكو لى من أبيه وأمه اللذين رفضا أن يزورا الزوجة الجديدة فى الفندق وقالا له لا نزورها ولا تزورنا لأننا لا نعرف لك زوجة سوى « فلانة » التى قبلتك وأنت لا تملك شيئا وحفظتك فى غيابك ولم نر منها ولا من أبويها إلا كل خير خلال السنين الطويلة ! وهذه كلماته هو بنفس الحروف والله يا سيدى .. فرفضت أن تزورنى أو أن ترى الطفلة بالطبع .. وانصرف آسفا .. وظننت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد .. لكنه عاد من جديد يقدم لى عرضا أغرب وأعجب .. فهل تعرف ماذا يريد يا سيدى ؟.. يريد منى ألا أكون « أنانية » وأن أضحى من أجل سعادة ابنتى .. وأن يأخذ ابنتى معه ليلحقها بالمدرسة الابتدائية لأن التعليم هناك ممتاز .. لكى تتمتع « بالعز » الذى ترفل فيه « ضرتى » وتتوافر لها ظروف التربية الراقية على يد مربية سيرلانكية وتتمتع باللعب الأليكترونية والملابس الفاخرة .. إلخ ! ! وسوف يعيدها إلىَّ فى اجازة الصيف لتمضى معى ٣ شهور كل سنة !.

ولم أشعر بنفسى وأنا أسمع الكلام .. وصرخت من أعماق .. يا ظالم حتى ابنتى تريد أن تحرمنى منها بعد أن حرمتنى منك ، وبكيت وولولت وطالبته بالطلاق .. فخرج آسفا وسافر بغير أن يودعنى ، وراح يلاحقنى بالرسائل من هناك .. يحاول اقناعى باستمرار علاقتنا « الزوجية » ! وبقبول سفر ابنتى إليه ويحاول اغرائى أحيانا .. وتهديدى أحيانا أخرى بأنها ابنته ومن حقه أن يضمها

إليه ليوفر لها حياة أفضل ، رغم أن عمرها ٦ سنوات فقط .

وقد احترت فى أمرى .. ولم أعد أنام الليل من همومى .. فهل يستطيع يا سيدى أن يضمها إليه فعلا بحجة الحياة الأفضل قبل السن الشرعية ؟ وماذا أفعل لو جاء وطلب سفرها معه بقوة القانون وهو أبوها إننى وحيدة وليس بجوارى أحد أسأله وأستشيره وأبوه وأمه وإخوته متعاطفون معى لكنهم لا يملكون له شيئا فماذا أفعل .. هل أستمر فى هذه الحياة .. أم أطلب الطلاق وأتمسك به .. وكيف أحمى ابنتى من الابتعاد عنى .. وهل أنا أنانية حقا لأنى أتمسك ببقائها معى وأحرمها بذلك من التربية الراقية كما يقول ؟.

□ □ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : عفوًا يا سيدتى إذا قلت لك إننى لم أشعر منذ فترة طويلة بالضيق وبالتقزز من تصرف إنسان كما شعرت بهما تجاه زوجك وأنا اقرأ السطور الأخيرة من رسالتك الدامية هذه !

إن هذا الرجل يا سيدتى لم يحبك يوما واحدا ولم يستحق أبدا حبك ولا تضحياتك من أجله بكل أسف . إنه إنسان أنانى شديد الطموح يجيد الوصول إلى الأهداف بغض النظر عن الوسائل التى يستخدمها وما أنت سوى « درجة » من درجات الحياة ارتقاها حين كنت أملا بالنسبة له ، وعندما لاحت له « درجة أعلى لم يتردد فى التضحية بك وارتقائها ولو لاحت له فرصة أخرى أعلى لقفز إليها لتحقيق تطلعاته .

لقد بلغ به التضليل لتحقيق هدفه أن يحاول انتزاع طفلتك منك واقناعك بالمنطق المزيف بأنها تضحية من أجل سعادتها ومن أجل الحياة الأفضل والتربية الراقية لها حتى أرتج عليك الأمر وساءلت نفسك أهى أنانية حقا أن ترفضى ذلك ؟.

لا يا سيدتى لست أنانية .. وإنما الأنانى فعلا وحقا هو من يريد أن يحرم

أمَّا من طفلتها وطفلة فى السادسة من أمها لكى يقدمها هدية لامرأة ثرية لا تقل عنه أنانية « لتلهو » بها فى أوقات فراغها ثم تنصرف عنها تاركة إياها معظم الوقت لمربية سيرلانكية أو هندية شبه أمية لكى تسقيها قيمها وسلوكياتها ، فأية تربية راقية هذه ؟ وكيف تفضُل مربية أجنبية مهما كانت مؤهلاتها أمًّا طبيعية مثقفة مثلك ؟.

إذا كانت زوجته ترغب فى تبنى طفلة فلم لم تبحث عنها فى الملاجئْ وهى كثيرة وموجودة فى بلادها وفى كل مكان ؟.

إن كل ما فى الأمر هو أن زوجك « الانتهازى » الذى قبل أن يتزوج من أخرى لمجرد أن يثبت أقدامه فى الوظيفة مهدرا كل قصة حبكما الطويلة وكل سنوات العمر الجميلة هذه ، يريد أن يطيل من عمر هذا « المشروع » لأطول فترة ممكنة ، وقد استشعر بقرون استشعاره أن زوجته الجديدة راغبة فى الطفلة لتعويض حرمانها من الإنجاب ، فسارع لتنفيذ رغباتها ، بغير أن يتوقف لحظة واحدة أمام حقوقك أنت فيها لأن الأنانى لا يتوقف طويلا أمام حقوق الآخرين ولا يعرف سوى تحقيق رغباته هو .. ولو لم يكن الأمر كذلك لما جرؤ على أن يقترح مجرد اقتراح هذه الرغبة خوفا من أن يفشل « المشروع » ويطرد من الجنة التى يتمسك بترابها ! وهو فى رأيى قصير النظر على عكس ما يتصور فى نفسه لأن هذا « المشروع سوف يطرده إن عاجلا وإن آجلاً لأن من طباعه التقليدية التقلب وسرعة الملل وكثرة التغيير وعندها سوف يكتشف أنه قد أضاع الحب الحقيقى من يده وأفسد حياته واختار أسوأ نهاية لأجمل بداية بدأها معك .

وما أعجب ما أقرأ أحيانا فى رسائل البريد ؟.

أليست هذه هى تقريبا قصة أوبرا مدام بترفلاى ؟ لو لم استشعر الصدق

فى كلماتك وأطلع على البيانات والأسماء التى حذفتها من رسالتك لانسقت وراء خيالى وتصورت أنك تروين لى مأساة بترفلاى ! ولا عجب فى ذلك ؟.. أليس هذا المشهد الغريب الذى عاد فيه زوجك يطالبك بالابنة ليضمها للزوجة الجديدة بحجة توفير الحياة الأفضل لها هو نفس مشهد الزوج الأمريكى الضابط بنكرتون الذى عاد مع زوجته الأمريكية ليطالب زوجته اليابانية بترفلاى بالطفل الوليد ليتربى فى حضانة زوجته بنفس حجة الحياة الأفضل فى أمريكا ؟.

لقد سلمته بترفلاى الطفل وانتحرت ووجدوا بجوارها خنجرا منقوشا عليه هذه العبارة : إذا لم تستطع أن تعيش كريما فمت كريما !.

لكن ذلك قد حدث فى الخيال ولأننا نتعامل مع الواقع رغم غرابته فإنى أقول لك إن ابنتك من حقك شرعا وقانونا إلى أن تبلغ السن الشرعية ، وهى كل من بقى لك فى الحياة الآن بعد أن خلت دنياك من الاعزاء وآخرهم هذا الغادر فلا تفرطى فيها استجابة لأى ضغط أو انخداعا بأى تضليل ، ولا يستطيع أحد أن يحرمك منها فإن شئت أية مساعدة قانونية فإن لبريد الأهرام من كبار المحامين أصدقاء عديدين سوف يسعدهم بكل تأكيد أن يقفوا إلى جوارك وأن يدافعوا عن حقوقك .

فإذا أردت نصيحتى فإنى أنصحك بألا توقفى حياتك على هذا الزوج الذى يريد أن يجمع كل شىء بين يديه ، ويحتفظ بك كرصيد استراتيجى تحسبا لتقلبات الزوجة الجديدة ، وأطالبك بأن تخيريه نهائيا بين عودته وتخلصه منها وبين طلاقك منه . فإن أبى ففى المحاكم متسع للجميع والقانون معك ، كما أطالبك بأن تستكملى رسالتك للدكتوراه وأن تنسى هذه التجربة الأليمة وتواصلى مشوار تفوقك الذى تنازلت عنه من أجل هذا الزوج وسوف تجدين

دائما من يقف إلى جوارك ومن ينصرك .. وأولهم أسرة زوجك التى تعرف لك فضلك ومكانتك وتأبى لك الظلم والخداع لأن الدنيا بخير ولأن الفضلاء أكثر كثيرا من المخدوعين بالدنيا .. حتى ولو بدا لنا ذلك غير صحيح من شدة الظلام فى بعض الأحيان !.

الصوت الحزين!

أنا سيدة فى السادسة والثلاثين من عمرى ـ تقدم لخطبتى منذ ١٧ سنة بالطريقة التقليدية رجل فاضل رأى أهلى فيه أنه ملائم لى فوافقت عليه ..

وبدأنا معا مشوار الحياة ، وكان مشوارا جميلا رغم متاعبه فلقد كان موظفا بمرتب صغير وكنت موظفة بمرتب أصغر.. فتشاركنا فى كل شىء. وبعد حصولنا على الشقة بدأ كل منا فى إعداد جزء من الأثاث من مرتبه .. فاشترى هو غرفة النوم والمطبخ واشتريت أنا غرفة السفرة والأنتريه .. وتعاونا فى كل شىء.. وتشاركنا فى كل شىء.. واخترنا كل قطعة فى بيتنا بعد التشاور والمفاضلة بينها وبين غيرها .. وكانت أياماً جميلة أحببته خلالها وأحبنى كأننا عاشقان ربطت بينهما قصة حب طويلة قبل الزواج .

وعشنا فترة عامين ندفع أقساط الأثاث وحين أوشكت على الانتهاء زففت إليه فى احتفال بسيط .. وبدأت رحلة حياتى الزوجية معه . وبالمعاشرة اكتملت معرفتى لزوجى .. وتعمق حبه فى قلبى .. فلقد وجدته إنسانا مهذباً مسالماً يريد أن « يعيش » .. ويحبنى ويحترمنى .. وتوافقت طباعنا لأنى أنا أيضاً إنسانة مسالمة أريد أن أعيش وقد نشأت فى أسرة ترى أن هدف الحياة هو تربية البنت وإعدادها لتكون زوجة صالحة والحق أنى زوجة شاطرة فى بيتى .. وفى عملى .. وليست لى مطالب خاصة فكل حياتى مكرسة لبيتى وزوجى ..

وأقصى سعادتى حين أصنع لزوجى طعاما ينال إعجابه رغم بساطته ..، وحين أصل بميزانية البيت إلى نهاية الشهر.. أما زوجى فأقصى سعادته أن يؤدى عمله بما يرضي ضميره وأن يعود إلى عشنا لكى يتفرغ لى بقية اليوم .. فنمضى المساء معاً .. أو نخرج فى زيارات عائلية أو نزهات بريئة .

ومر العام الأول من الزواج فى سعادة تامة ..، وبدأت أحس بشىء يتحرك فى أحشائى وعرفت أنها البشرى بالمولود الذى سيضىء حياتنا ويوثق علاقتنا .. وانتظرت زوجى عند عودته وأبلغته بالخبر السعيد ، وطار فرحاً بالبشرى .. ونهض يؤدى لله صلاة شكر .. ومرت شهور الحمل الأولى بمتاعبها المعروفة .. وكانت متاعب لذيذة .. للأم التى تنتظر مولودها الأول .. ، وحدد الطبيب لنا موعد الولادة بعد شهرين .. ونصحنى بالمشى وممارسة حياتى بطبيعية .. وبعد يومين من زيارة الطبيب كنت فى شقتى فأحسست بآلام شديدة فى بطنى .. آلام لم أجربها من قبل تبدأ من ظهرى وتصب فى بطنى .. كان زوجى ساعتها يتفرج على التليفزيون .. فرآنى أتألم .. وانزعج وسألنى ما بك .. فهونت عليه الأمر وقلت له إنه يبدو أن الطفل يتقلب فى بطنى .. وأنه لا داعى للانزعاج فاطمأن قليلا وتحاملت على نفسى لكيلا أزعجه .. لكن الألم تزايد حتى لم أعد أستطيع تحمله فانهرت وانطلقت صرخاتى إلى السماء ولم أشعر بنفسى بعدها إلا وأنا فى المستشفى وقد جاء المولود إلى الحياة قبل موعده بشهرين ووضعوه فى الحضانة لرعايته .. لكنه لم يصمد طويلا وانتهت حياته القصيرة بعد يومين فقط ..

وخرجت من المستشفى صفر اليدين .. وخيمت سحابة خفيفة من الحزن على حياتنا حاول زوجى أن يخفف منها على .. بالاهتمام بى .. والخروج معى بعد فترة النقاهة كل مساء لنتمشى على النيل أو الذهاب إلى السينما ..،

وتراجعت ذكرى المولود الذى لم أره بعد فترة .. وعدنا لحياتنا العادية وقد ربط الألم الجديد بيننا بروابط جديدة .. وبعد عدة شهور أخرى أحسست بنفس الأعراض الأولى واهتم زوجى هذه المرة بتوفير الرعاية لى من البداية .. وذهبنا إلى الطبيب وطمأننى على حالتى .. والتزمت بتعليماته التزاماً حرفياً .. وبدأت أتردد عليه كل شهر ثم كل أسبوعين .. ثم فجأة أحسست بأعراض الولادة قبل موعدها بشهر .. وكنت قد اكتسبت خبرة ثمينة من تجربتى الأولى فنبهت زوجى إلى حالتى وأسرعنا إلى المستشفى وتمت الولادة بمعاناة أقل هذه المرة .. لكن المولود كان يحتاج إلى رعايته فى الحضانة أيضاً .. فنقل إليها .. وفى هذه المرة سمحوا لى برؤيته مرة ثم أعادوه إليها .. ثم بعد يومين أيضاً فوجئت بنظرة حزينة فى عينى زوجى .. فنظرت إليه مرتعبة وهممت بأن أتكلم فلم أستطع فأمسك بيدى . وقال لى بصوت حزين .. كل شىء انتهى .. والمهم سلامتك فتفجرت دموعى كالنهر .. وزوجى يطالبنى بالتجلد لكى أسترد صحتى وأغادر المستشفى .. وغادرتها مرة أخرى وذراعى خالية إلا من السراب ..

وتكررت التجربة الأليمة فى حياتنا .. وبدأت أرى فى وجه زوجى مسحة خفيفة من الحزن تستقر فيه .. رغم محاولاته المستمرة للتظاهر بالمرح .. وعدم المبالاة ..

ولن أطيل عليك يا سيدى فى وصف حياتنا .. لكنى سأقول لك فقط إن هذا المشهد الحزين قد تكرر فى حياتى بعدها ٤ مرات أخرى فى كل مرة يصل المولود فيها إلى الحياة قبل موعده .. ثم يغادرها مسرعا خلال يوم أو يومين .

ولن أحكى لك كل ما عانيته فى كل مرة يخفق قلبى فيها بالأمل حتى اللحظة الأخيرة ثم يتلقى نفس الطعنة بكل آلامها .. ولا كل ما حاولته وجربته

من الوسائل .. حتى لقد أمضيت فى الحمل الخامس والسادس ستة شهور مستلقية على ظهرى لكى يثبت الحمل ويستقر الجنين . ورغم ذلك جاء قبل موعده .. ورحل أيضا فى موعده ! وفى كل مرة يعطينى الطبيب الأمل فى طفل أفرح به من المستشفى مثل كل الأمهات فأغادرها وليس معى سوى الفراغ . وفى المرة الأخيرة بذل الطبيب كل جهده طوال شهور الحمل وفى الولادة .. ومع ذلك فلقد كان ماكان ..

إن كل أم تدخل المستشفى لتلد وتستخرج شهادة بميلاد ابنها .. وأنا أدخل المستشفى لألد واستخرج تصريحا بمواراة مولودى التراب !.

وكل أم ترى مولودها .. وأنا أسمع صرخاته وأنا فى غيبوبة البنج كصوت حزين يأتى من بعيد وعندما أفيق لا أراه ، لكنها إرادة الله ـ ولا معقب عليها .. وبعد المرة الأخيرة قررت أنا وزوجى عدم التفكير فى الإنجاب . لكنى كنت أهدأ فترة ثم أجد نفسى تهفو من جديد إلى طفل يعوض تعبى ويخفف دموعى ، وانتظرت حدوث الحمل مرة أخرى فلم يحدث وتوجهت للطبيب فطلب فحوصا وتحاليل عديدة وبدأت رحلة أخرى طويلة .. انتهت بكلمات صارمة من الأطباء أننى لن أحمل مرة أخرى .. وأنه لا أمل لى إلا فى علاج حديث فى الخارج نظرا لصعوبة الحالة ..

وخرجت من المستشفى وقد تعلق أملى بحلم مستحيل .. وبعد تفكير طويل قررت أن أعفى زوجى من مسئوليتى وأن أعطيه حقه فى أن يكون له طفل يسعد به فطلبت منه الطلاق ، فرفض بشدة وغضب منى لهذا التفكير .. وطلبت منه أن يتزوج من أخرى وأن أبقى زوجة له على أن أعود لأعيش فى بيت أبى كما كنت قبل الزواج .. وعلى أن أعطيه تنازلا عن كل شىء فى الشقة لكى يستطيع أن يبدأ حياة جديدة فيها تعوضه عما عاناه معى من آلام ومن

إحباط وكتبت له هذا التنازل فعلا فرفضه ورفض هذا العرض لشدة إيمانه بالله ولحبه لى ، وقال لى بصدق اسمعى يا فلانة أنت زوجة طيبة ومخلصة .. ولقد بذلت كل ما فى وسعك لكى تحقق أمل الإنجاب .. وأرهقت نفسك بأكثر من اللازم . وعرضت حياتك للخطر ست مرات .. لإسعادى .. فكيف تنتظرين منى أن أكافئك على ذلك بالانفصال أو بالابتعاد عنك والزواج من أخرى .

ورغم أحزانى فلقد أسعدتنى كلماته وزادتنى حبا واحتراما له .. لكن النفس لا تهدأ يا سيدى فمن حين إلى آخر استرجع ذكريات التجارب الأليمة .. وأنظر إلى بيتى الهادئ وأقول آه لو اكتملت السعادة بطفل يحبو بين جدرانه ، ويبدد وحشته .. ويمسح أحزانى وأحزان زوجى التى يخفيها عنى لكنى أحس بها وأتمزق لها وأنا أرى تطلعه الصامت إلى أطفال الآخرين .

سيدى ألا من أمل ؟.

□ □ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : لا ينقطع الأمل فى الله أبدًا ياسيدتى..لكن السؤال هو لماذا نعذب أنفسنا دائما بالآمال البعيدة .. ونغمض عيوننا غالبا عما يمكن أن نلتمس فيه العزاء عما ينقصنا ؟.

إن العقلاء هم من يوازنون بين ما أعطته لهم الدنيا وما حرمتهم منه .. ليعرفوا فى النهاية أن لكل إنسان كأسه التى يتجرعها وأن الكئوس دائما متساوية فى النهاية . أو لسنا نرى فى الحياة زوجات وأزواجا حرموا من الانجاب .. وتمتعوا رغم ذلك بالسعادة والحب والطمأنينة !.

أولسنا نرى فيها أيضا أزواجا رزقوا بالبنين .. لكنهم حرموا من السعادة والسلام وراحة البال .

بل ألسنا نرى فى الحياة أمهات وآباء شقوا بأبنائهم بأكثر مما شقوا بأى شيء آخر فى حياتهم ؟.

لقد كان المليونير اليونانى أوناسيس أغنى رجل فى العالم حتى قيل إن جرد ثروته يحتاج إلى عامين وأنه لا يعرف حجمها بالضبط وكان له ابن وحيد يعده ليرث امبراطوريته المالية العريضة فلقى مصرعه فى حادث طائرة فانكسر قلب أوناسيس وارتخت عضلات عينه اليمنى وتدلى جفنه عليها بصفة دائمة ولم ينجح أساطين الطب فى العالم فى علاجها وقيل وقتها إنه بعد مصرع ابنه تمتع بكل شيء فى حياته من الثروة والنفوذ والشهرة ما عدا شيئا واحدا فقط هو السعادة !.

أليس هذا أيضًا هو ما عناه الراوى الأعمى عند سوفوكليس حين أشار إلى الملك الذى يحمل جثمان ابنه فى « أنتيجون » وقال : كريون يحمل مصيبته ! يا سيدتى .. إن كل إنسان يحمل مصيبته ويمضى بها فى الحياة مع اختلاف الآلام ودرجاتها فلا تعذبى نفسك بالجرى وراء الآمال المستحيلة وكفاك ما عانيت وما عرضت نفسك له من مخاطر ست مرات قاسيات ، وحاولى أن تروضى نفسك على قبول الأمر الواقع . وأن تعيدى إكتشاف حياتك وسوف تجدين فيها الكثير مما قد تغبطك عليه أخريات لم يحرمن من الانجاب لكنهن حرمن من الشريك العطوف المتفهم كزوجك الذى يحبك ويحترمك ويتمسك بك ولا يرى لنفسه حياة بعيدا عنك فإن مسك قرح فقد مس القوم قرح مثله وهذه هى الحياة يا سيدتى التى لا تروى أبدا عطش الظمأى !.

الضـــوء الأخــــير

أكتب إليك بعد صراع مرير مع نفسي وأرجو أن تسمعني وأن تؤجل حكمك علي إلى النهاية . أنا سيدة متوسطة العمر نشأت فى أسرة فقيرة .. وقاسيت مرارة الحاجة وحين بلغت سن الزواج لم أفكر فى الزواج من شاب مثلي لأني كنت فى حاجة إلى زوج جاهز يوفر لى المسكن والملبس والمأكل ولا يكلفني شيئا . وقد وجدت هذا الزوج فى شخص مطلق له أولاد وعنده شقته ولديه إمكانات الحياة ، بل ولا أكذبك إذا قلت لك إني فرحت به بالنسبة لظروفي التي شرحتها لك وهكذا تزوجته واعتزمت أن أحافظ عليه وعلى حياتى الجديدة .. وكان هو أيضا سعيدا بي .. لكن شيئا ما فى داخلي كان يدفعني دفعا لإساءة معاملة أطفاله ــ رغم أنهم أبرياء ــ ولتعذيبهم .. تسألني لماذا أقول لك لا أعرف .. هل أساءوا إليك أقول لك إنهم أطفال صغار حرموا من أمهم وفرحوا حين وجدوا أمًّا ترعاهم لكن النفس الأمارة بالسوء كانت تدفعني دفعا لتعذيبهم .. ولم يخف الأمر طويلا على زوجي .. فلقد أحس ــ بقلب الأب ــ بعذاب أطفاله .. ولم يكن هناك ما يربطني به سوى حسن العشرة فلم أنجب منه أطفالا .. لذلك لم يجد صعوبة فى التخلص مني وطلاقي ، فعدت إلى الوحدة وإلى معاناة ظروفي الاجتماعية بعد فترة قصيرة من الاستقرار معه ..

وحاولت أن أجد مخرجا من ظروفى فعملت فى إحدى الشركات ومن خلال عملى التقيت بتاجر كبير يتعامل مع الشركة له بنات وأبناء متزوجون كان أرمل توفيت زوجته .. ولفت نظرى إليه بحديثه الدائم عن زوجته الراحلة وأبنائه الذين يتحدث عنهم بحب شديد .. ووجدت نفسى أميل إليه رغم كبر سنه وأتمنى أن أتزوجه .. وشاءت الأقدار أن تتحقق أمنيتى بعد فترة قصيرة إذ فاتحنى برغبته فى الزواج منى وسعدت بطلبه جدا وسارعت بالموافقة .. وبارك أبناؤه زواجى من أبيهم لكى يجد من ترعاه فى وحدته .. وشهدوا جميعا مراسم الزواج وأحاطوا بأبيهم سعداء بسعادته وقال قائلهم إن الحياة لابد أن تستمر وأن من حق أبينا أن يجد من يؤنس حياته بعد زواجنا جميعا وانشغالنا بأسرنا ، وزففت إليه فى حفل عائلى صغير وخرج الأبناء وهم يودعون أباهم بالقبلات ويودعوننى بحرارة والبنات يقبلننى ويثنين على جمالى الهادئ .

وأحسست أن هذه الأسرة يجمعها الحب الصادق بين أفرادها .. وحمدت الظروف التى جعلت منى واحدة منهم . وانتويت أن أستمتع بحياتى .. وأن أكسب حب زوجى وأولاده . ومضت الأسابيع والشهورسعيدة والجميع يعاملوننى بحب واحترام .. وكنت قد تركت عملى وتفرغت لأسرتى الجديدة ووجدت فيها كل ما أحتاج إليه . لكنى يا سيدى بدأت أغار شيئا فشيئا من حب زوجى لأولاده وأحفاده .. وبدأ الشيء يتحرك من جديد .. وبدأت أضيق بحديث زوجى عن ذكرى زوجته الراحلة وباهتمامه بأمور أبنائه وبناته ، فإذا أردت أن اشترى فستانا قالى لى زوجى اشترى لأولادى معك .. وإذا فكرت فى شراء شيء جديد للبيت قال لى اشترى معه لأولادى .. حتى وجدت نفسى فجأة أكره أولاده وبناته بلا سبب .. وأريد أن أبعد هذا الزحام عن زوجى لكى أنفرد به وباهتمامه .. وبدأت أشكو لزوجى من

أبنائه .. وفى البداية لم يكن يسمع لى .. ثم بدأ يسمع ولا يعلق .. ثم بدأ يسمع ويتعاطف معى ببعض الكلمات .. بغير أن يخطئ أبناءه أو يلومهم .. ثم بدأ يسمع ويعبر عن سخطه ببعض الكلمات القاسية .. ثم بدأ يتغير تجاههم تدريجيا .. وأنا لا أدع له فرصة للتراجع ولم يمض سوى عامين حتى كان يكره أبناءه وأحفاده وأنا « أتلذذ » « لذة » الانتصار عليهم !.

تسألنى مرة أخرى لماذا .. وسأقول لك لا تسألنى لأنى لا أعرف سوى أنى أردت أن أبعد كل هذا الحشد عن زوجى وأن يخلو لى وحدى .. وأن طبيعتى غلبتنى كأنى نسيت كل ما جرى فى زواجى الأول ونسيت طلاقى وعودتى للعمل ومعاناتى للحرمان مرة أخرى ..

وبعد أن انفردت بزوجى انقطع الأبناء والأحفاد عن زيارتنا ولم يعد يدخل بيتنا أحد .. وفى هذه الأيام بدأ زوجى بإيحاء وضغط منى يبيع أملاكه لكيلا تكون هناك أشياء واضحة يمكن أن ينازعنى فيها أحد والحق أن أبناءه لم يهتموا بذلك بقدر ما حزنوا لمقاطعة أبيهم لهم وحرمانهم منه .. وفى احدى المناسبات انفجرت ابنته الكبرى فىَّ باكية ودعت الله أن يحرمنى من « نظرى » كما حرمتها وأخوتها من أبيهم وبدلا من أن أغضب أو أجزع وجدت نفسى أضحك سعيدة بالانتصار عليهم ..

وتفرق الأبناء .. وبدأوا يهاجرون كل إلى بلد مختلف .. فهاجر بعضهم إلى البلاد العربية وهاجر البعض الآخر إلى أوربا ، حتى البنات هاجرن وراء أزواجهن بعد أن سلمن أمرهن لله فى أبيهن .

وخلت الدنيا تماما من حولنا .. وبدأت أستمتع بالهدوء مع زوجى .. لكنه لم يطل كثيرا .. فلقد توفى زوجى بعدها بعام وفوجئت به وهو فى لحظاته الأخيرة يهتف بأسماء أبنائه وبناته وقد كنت ظننت أنه قد نسيهم .. فاندفعت

أقول له أنا بنتك وزوجتك وأمك وكل شيء لك فى الدنيا ، لكنه لم يحفل بى وفارق الحياة ولسانه يهتف بأسماء أبنائه وعيناه تبحثان عنهم فى ضيق ويأس .

وانتقل زوجى إلى العالم الآخر .. وحزنت عليه لأنى وجدت معه الحياة التى أردتها .. لكنى تماسكت ودبرت كل أمورى بحكمة وكانت كل ثروته تحت يدى أموالا سائلة فانفردت بها وحرمت كل أبنائه وتجاوزت الأزمة بسرعة .. وعشت حياتى مطمئنة للمستقبل فعندى الشقة التى نقل زوجى عقدها باسمى وعندى أموال فى البنك لكن الأبناء لم ينازعونى فى الشقة ولا فى غيرها وعشت عامين هادئين .. أحيا حياة أرملة ثرية احتاطت للمستقبل باحتياطات عديدة .. عندى سيدة ترعى شئون بيتى وأشغل وقتى بزيارة الصديقات اللاتى تعرفت بهن فى السنين الأخيرة أو استقبل بعضهن فى الصباح ونروح نتحدث فى أمور الدنيا .. وأتفرج على التليفزيون ، وأفلام الفيديو كل يوم ، وبدأت أفكر فى استئجار شقة للمصيف أمضى بها الصيف فى الإسكندرية ..

وأسرفت فى التفرج على أفلام الفيديو حتى بدأت أحس بزغللة بسيطة فى عينى ونصحتنى صديقة بأن أعمل نظارة تحفظ نظرى .. فذهبت إلى أكبر طبيب عيون لعمل النظارة ، واخترت نظارة أنيقة زادت وجهى شياكة وأنا أرتديها .. واستعدت راحتى فى التفرج على الفيديو لكن النظارة الجديدة لم تلبث شهرين حتى بدأت تزغلل عينى من جديد فعدت إلى طبيب العيون الذى استبدلها لى بأخرى جديدة ، واستعدت اطمئنانى سريعا .. لكن النظارة لم تلبث أن ضايقتنى فاستشرت صديقتى فنصحتنى بالذهاب إلى طبيب آخر وذهبت إليه ففحصنى بدقة ثم نظر لى طويلا وقال : يا مدام أن القرنية عندك تضمر منذ زمن .. وقد تأخرت كثيرا فى بدء العلاج !.

فصرخت فيه : ماذا تعنى ؟ فقال : كل شيء بأمر الله ! فغامت الدنيا

أمام عينى .. وتركت العيادة وأنا لا أرى الطريق وفى طريق عودتى إلى البيت مر شريط حياتى أمام عينى .. من الفقر والحرمان إلى الزواج الأول .. إلى الطلاق والحرمان .. إلى الزواج الثانى إلى الراحة والاطمئنان والمال .. ثم فجأة قفزت إلى مخيلتى صورة ابنة زوجى الكبرى وهى تدعو الله أن يحرمنى من بصرى كما حرمتها من أبيها وتسمرت فى مكانى ..

وسألت نفسى بفزع هل يكون هذا هو النذير؟.

لا .. لن يكون إن معى مالا .. وهناك أطباء .. وسأصرف آخر قرش معى فى علاجى ..

وبدأت الرحلة المريرة .. وطفت على الأطباء ومراكز العلاج .. وبت ليالى تعسة أنتظر نتائج الفحوص .. وكل يوم يمضى تظلم عيناى فيه قليلا عن اليوم الذى سبقه .. وتوقفت عن مشاهدة التليفزيون والفيديو وقراءة المجلات ..

وأمضيت أياما قاسية معصوبة العينين ..، ثم انسحب آخر ضوء من عينى منذ أسابيع وتحولت الحياة إلى ظلام قاتم أيكون هذا هو العقاب الذى توعدتنى به ابنة زوجى يا سيدى ؟.

إننى لا أسالك لكى تجيبنى لأنى عرفت فعلا أنه كذلك منذ أن أظلمت عيناى لأول مرة ونفض الأطباء أيديهم منى يائسين ..

لكنى أملى هذه الرسالة على أعز صديقاتى التى وقفت معى فى محنتى لكى أطلب منك شيئا آخر.

لقد كنت من قراء هذا الباب قبل أن أفقد القدرة على القراءة وأصبحت الآن أستمع إليه .. وبعد صراع مرير مع نفسى قررت أن أكتب إليك لأطلب منك أن تنشر قصتى لكى تدعو أبناء زوجى للحضور إلى لكى أعطيهم نصيبهم

مما ترك أبوهم رحمه الله من مال . فصورته وهو ينادى أبناءه لا تفارقنى منذ كف بصرى .. ووجود مالهم الذى حرمتهم منه معى يلسعنى بالنار ويذكرنى بما فعلت وبما جنيت وأدعوك لأن تكون شاهدا على أنى سوف أبرئ ذمتى أمام الله مما دخلها من مال حرام حين يحضر أبناء زوجى وأعيد إليهم حقوقهم .

ولتسأل الله لى الرحمة .. ولتسأل أبناء زوجى لى السماح والمغفرة وكفانى ما ألاقيه من عذاب . والسلام عليكم ورحمة الله .

□□ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : إن رسالتك هذه يا سيدتى من الرسائل القليلة التى لا أجد فى نفسى أى ميل للتعليق عليها لأن ما تقوله كلماتهم لا يدع زيادة لمستزيد . إذ ماذا يمكن أن أقول أنا أكثر مما قلت أنت فى هذا الاعتراف ؟ وأى كلمات يمكن أن تحذر من ظلم الأبرياء وأنانية الإنسان ووساوس النفس الأمارة بالسوء « أردع » من هذه الخاتمة المفزعة لرسالتك ؟.

إن كارثة البعض هى أنهم يتصورون أنهم لن يسعدوا أبدا إلا بهدم الآخرين ولن يرتفعوا إلا فوق جثث الضحايا .. ولن يرتووا إلا بحرمان الظمأى من ماء الحياة مع أن الكرة الأرضية تتسع للجميع ويستطيع كل إنسان لو أراد أن يحقق لنفسه السعادة بغير إيذاء الآخرين وأن يجد الأمان بغير أن يشرد غيره وأن يعيش فى سلام ويدع الآخرين يعيشون حياتهم فى هدوء .. لكن ذلك يبدو صعبا إلا على من يتقون الله فيجعل لهم مخرجا .. ويغرس القناعة والطمأنينة فى نفوسهم .

إنك تتساءلين أهو العقاب ! نعم يا سيدتى هو العقاب بل هو العدل الإلهى الذى يغيب عن أنظار البعض فى قمة اندفاعهم لاشباع أهوائهم .. حين يتصورون أن الدنيا بين أيديهم وأنه لا عقاب ولا حساب .. كما ضحكت أنت مثلا بشماتة وابنة زوجك لا تملك إلا دعاء العاجزين !.

الآن انتهى وقت الضحك يا سيدتى .. وجاء وقت الحساب .. ووقت الضعف البشرى ، والتماس العفو ممن قسونا عليهم وظلمناهم .. والظلم شر القبائح كما كان يقول أبو العلاء المعرى .. وما أعجب الإنسان فى جبروته .. وما أضأله فى ضعفه ! لكنى لن أطيل عليك فى ذلك لأنك قد عرفت الآن كل ذلك وبثمن غال تهون معه كل أموال الدنيا وأعانك الله عليه وشفاك منه . فأما أبناء زوجك فإنى أدعوهم للعودة إليك واستعادة حقوقهم التى طابت نفسك لأن تؤديها لهم الآن وأما دعوتى لأن أكون شاهدا وشهيدا على ذلك فإنى ألبيها مرحبا بأن أسهم فى مثل هذا العمل الخيّر لعله يكون طريقك إلى العفو ممن يملك العفو والمغفرة . أما عفو أبناء زوجك عنك فأمره مردود إليهم إن شاءوا فعلوا وهو أكرم وأكثر قربى إلى الله وإن شاءوا أبوا حتى بعد استرداد حقوقهم ، فلا جناح عليك فى ذلك ولا جناح عليهم لأنك لا تطلبين « جائزتك » منهم وإنما تطلبينها ممن يملك منح الجوائز .. وأكبرها شأنا أن يقبل توبتك ويغفر لك ويفرج كربتك ويغرس الطمأنينة فى قلبك .. سبحانه وسعت رحمته كل شىء ..

الخنجر المسموم

منذ ٤ سنوات كنت طالبا بالسنة النهائية بإحدى كليات الهندسة .. وذات يوم التقيت بطالبة تخطو خطواتها الأولى فى الكلية .. فلفت نظرى فيها خجلها وحياؤها ، وشاءت الظروف بعد ذلك أن أراها واقفة مع زميلة قديمة أعرفها فتم التعارف بيننا ، وعرفت أنها من أصل ريفى .. وتشعر بالغربة فى الكلية بين الشباب المتحرر ولا تعرف كيف تتعامل معهم . وشدتنى إليها براءتها فاقتربت منها .. ورحبت هى فى حذر باقترابى ثم لم يلبث تعارفنا أن تحول إلى علاقة عاطفية قوية ، وتعاهدنا على الزواج عقب تخرجى ، وبدأت فتاتى تشد أزرى وتدفعنى للاستذكار ، وتحنو على بقدرتها العجيبة على العطاء العاطفى لأول شاب أحبته فى حياتها .. فكانت تتطوع بنسخ بعض المحاضرات لى رغم انشغالها بمذاكرتها .. وتحتفظ لى بما تحمله من طعام أو شيكولاته وتقتسمها معى وتنتظرنى بالساعات حتى أنهى محاضراتى وتركزت حياتها كلها فى دفعى للنجاح والتفوق حتى خشيت عليها من الرسوب لانشغالها الزائد بى ، وطالبتها بأن تهتم بنفسها فلم تبد أى استجابة ، وتقدمت للامتحان ونجحت ، ونجحت هى أيضا ، والتحقت بالخدمة العسكرية .. وبعد فترة التجنيد الأولى خرجت للقائها وشوق العالم كله فى قلبى إليها واتفقنا على أن أتقدم لأسرتها بعد أيام وتقدمت لها بالفعل وحددنا يوم الخطبة ، وجاء اليوم السعيد ، وكان أجمل

أيام حياتى وتألقت فتاتى جمالا وفتنة فى الخطبة رغم أنها لا تضع أية مساحيق وترتدى الملابس المحتشمة دائما وأنهيت فترة التجنيد ووجدت عملا بعد جهد وبدأت أكرس كل طاقتى لبناء عش الزوجية .. وأصبحت أعمل ليلاً ونهاراً لأوفر طلبات الزواج ، وتم عقد القران بعد عام من الخطبة ، وكانت فرحة فتاتى بالقران كبيرة .. وكذلك فرحت أنا وتخرجت فتاتى بعدى بـ٣ سنوات واستطاعت أن تجد عملا فى شركة خاصة ، وبدأت حياتها العملية وبعد شهرين فقط تم زفافنا فى حفل صغير وجمعنا أخيرا عش الزوجية بعد ٤ سنوات من الحب والعطاء لم ينغص صفوها أى شيء .. وكانت الأيام الأولى سعيدة جداً وإن شهدت بعض المتاعب الصغيرة نتيجة لعدم التأقلم فى بداية الحياة الزوجية .. وبسبب بعض المحاولات الصغيرة من جانبها للسيطرة على البيت ، لكن كل ذلك توقف بعد شهرين فهدأت فتاتى تماما وتفرغت للعطاء العاطفى بسخاء وأصبحت مثالية فى كل شيء وبعد أسابيع بدأت زوجتى تشعر بآلام الحمل .. وكانت معاناتها منها عادية فكانت تفقد الوعى أحيانا فى البيت وتسقط فى الطريق مغمى عليها فى أحيان أخرى وتراودها فكرة أنها ستموت .

فزاد حنانى لها وعطفى عليها وسألت بعض أهلى فقالوا إن بعض الفتيات الصغيرات تكون معاناتهن من الحمل الأول غير طبيعية فطالبتها بإصرار بأن تتوقف عن العمل ما دامت غير قادرة على تحمله مع متاعب الحمل ورفضت فى البداية ثم بعد جدل ومناقشة وافقت على أن تحصل على أجازة طويلة من العمل مع نهاية شهرها الرابع فى الحمل وعندما اقترب الشهر الرابع من الانتهاء ولم تبق سوى أيام على انقطاعها عن العمل عدت ذات يوم إلى البيت فوجدت الشقة نظيفة ومرتبة والملابس مغسولة ومنشورة فوق حبال الغسيل بالشرفة وكل شيء فى الشقة تمام وفى أحسن حال لكن زوجتى غير موجودة ، فاعتقدت أنها

خرجت إلى السوق لشراء بعض الأشياء ولمتها فى داخلى لاجهاد نفسها بهذا الشكل وهى تعانى من الحمل .. وجلست فى انتظارها فمضت الساعات ولم تعد ، فارتديت ملابسى وذهبت إلى بيت أسرتها فلم أجدها فيه ، فتولانى الرعب وخشيت أن تكون قد أغمى عليها فى الطريق أو حدث لها مكروه ، فخرجنا جميعا نبحث عنها فى المستشفيات وفى كل مكان بلا جدوى .

وتوجهت إلى عملها فى اليوم التالى فعرفت أنها لم تذهب إليه فى اليوم السابق .. ولا أطيل عليك فبعد يوم واحد اتضحت الحقيقة مرة .. لقد فرت زوجتى الساذجة التى لا تعرف كيف تتعامل مع الآخرين ولا تضع المساحيق وترتدى الملابس المحتشمة مع زميل لها بالشركة عاقد قرانه هو أيضا على أخرى .. إلى بلد أجنبى وبجواز سفر سجلت فيه أنها آنسة لم تتزوج ، وطعنتنى بخنجر مسموم فى قلبى وعرضى ، وطعنت أسرتها وكل من يعرفها بنفس الخنجر ..

وتبين لى بعد ذهول الصدمة أنها ليست حاملا وأنها ارتبطت بأول رجل قابلها فى حياتها العملية وضحت بحب عمرها كما كانت تقول وسافرت معه فى مقعدين مجاورين على نفس الطائرة .

ومازلت حتى هذه اللحظة مذهولا .. وقد فقدت ثقتى فى كل شىء .. فى نفسى وفى الحب .. وفى النساء وفى البشر وفى الحياة . لقد قرأت فى بعض رسائل الزوجات إليك أنهن ينعين على أنفسهن أنهن لم يرتبطن بأزواجهن عاطفيا قبل الزواج وسرن نياما إلى الزواج بلا حب ويفكرون فى هدم عش الزوجية لأنهن لم يشعرن بالحب بعد الزواج وأريد أن أسألهن ماذا يقلن فيمن أحبت قبل الزواج « حب العمر » ثم هدمت العش بعد شهور فقط منه .. وأين هو الإخلاص الذى نسمع عنه .. وماذا يفعل شاب مثلى أحب بصدق

وكان أمينا مع نفسه ومع من أحب ثم يجد نفسه بعد ٤ شهور فقط من الزواج مطعونا فى قلبه ورجولته وكرامته .. ونظرة الرثاء تحيط به من كل جانب .. فأين الخطأ .. وأين الصواب وأين الخير .. وأين الشر وكيف يستطيع الإنسان أن يميز بينهما ، وكيف أتعامل مع الناس بعد ذلك ؟.

□□ ولكاتب هذه الرسالة أقول : إن الغدر هو أحقر الجرائم الإنسانية وأكثرها خسة ، لأن الإنسان يستطيع دائما أن يفعل ما يريد فى مواجهة الآخرين وليس من خلفهم .. ولقد كانت فتاتك تستطيع إذا اقتنعت باستحالة الحياة معك أن تتوقف وأن تطلب الانفصال وتصر عليه حتى تناله ثم تفعل بحياتها بعد ذلك ما تشاء غير ملومة من أحد .. فهكذا يفعل الأمناء مع الحياة ومع الآخرين .. أما التعمية والمسايرة وادعاء البراءة والسذاجة والاحتشام فى المظهر والسلوك فى نفس الوقت الذى تدبر فيه بليل جريمة كاملة الأركان كجرائم الدهاة من المتآمرين ثم تنقض عليك فى اللحظة المناسبة بخنجرها المسموم لتطعنك به فى لحظة خاطفة ، فهذا هو ما يفعله القتلة المحترفون وليس الأسوياء من البشر ..

ومن حقك أن تحزن لنفسك أن تلقيت هذه الطعنة القاسية ممن قدمت لها الحب والوفاء والإخلاص .. لكنك لا تستطيع أبدا أن تحزن على فقد مثل هذه الفتاة المزيفة فى كل شىء ولربما كنت جديرا بأن تشكر الأقدار على أنها قد هتكت الأستار عن حقيقتها وأنت لم تنجب منها بعد وإلا لكان لجريمتها أكثر من ضحية سواك . ومثلها لم تكن لتتردد فى أى مرحلة من العمر عن الاستجابة لنزوة مماثلة مهما كان ضحاياها من الزوج والأبناء .

أما « حب العمر » الذى كانت تتحدث عنه فهو كالحمل المزيف وكالاحتشام الكاذب وكالسذاجة إياها ، كان ادعاء كاذبا .. لأن حب العمر

لا يتهاوى أمام أول طارق .. ولا يستجيب لأول نزوة .. وإنما يصمد كالحصن المنيع أمام المغريات والعواصف والمحن والأنواء ، ويعبر الأزمات بسلام والقصة كلها لا علاقة لها بالحب الحقيقي الصادق .. وإنما هي قصة الجنون وضعف المقاومة والنزوية .. والميل للمغامرة ، لأن تجربتها في العمل التي انتهت بهذه المغامرة الفاضحة لم تتجاوز بضعة شهور ، ولا عجب في ذلك لأن بعض الناس يا صديقي كالذباب لا يسقط إلا على كل شيء قذر ، لهذا سقط كل منهما على الآخر .. ووجد معه نفسه ! لكن سعادتها لن تكون حقيقية أبدا ولن تطول مهما طالت لأنها قامت على جماجم الآخرين ، ولأن لكل جريمة عقابا ولو بعد حين في الدنيا وفي الآخرة على السواء ، والحكمة الصينية القديمة تقول لا تقتل خصمك .. وإنما اجلس على حافة النهر وانتظر وسوف ترى بعد حين جثته طافية فوق الماء !.

وهذا طبيعي لأنه لو كان شريرا فلسوف تقتص منه الحياة نيابة عنك .. وبغير أن تلوث يديك بدمائه ، وأنت سوف ترى بكل تأكيد جثة سعادتها طافية فوق نهر الحياة بعد حين لأن كلا الطرفين قد طعن قلبا بخنجره قبل الرحيل وبخسة ونذالة ولن يفرا أبدا من قصاص الحياة خاصة فتاتك بالذات ، ليس فقط لأنها قد أدمت رجولتك ومشاعرك ، وإنما أيضا لأنها أدمت قلوب أبويها وأهلها بلا رحمة .

فاطو هذه الصفحة الكريهة بكل آلامها .. وأسقطها تماما من حياتك .. وانظر إلى الأمام بقلب يتطلع إلى نصيبه العادل من السعادة والوفاء والاخلاص ولسوف تعوضك الحياة بمن تأسو آلامك وتكون بلسما لجراحك ، واسترد ثقتك بنفسك ولا تتحسس من نظرة الرثاء لأنها نظرة تعاطف معك ومشاركة لمشاعرك وليس يعيب الإنسان أن يعقره كلب مسعور في الطريق ،

لكنه يعيبه بالتأكيد ألا يسارع بتضميد جراحه ، أو أن يتصور أن الجميع سوف يعقرونه لأن كلبا ضالا قد عقره من قبل ، فليس الأمر كذلك يا صديقى .. وأنت لست فى النهاية سوى إنسان سيئ الحظ ، خدعت فى فتاة ظننت فيها البراءة والسذاجة .. لكنها ليست كل الفتيات .. ولا هى كل الحياة فإذا كان جرحك غائرا الآن فإن جرح الشباب سريع الالتئام ! فلا تفقد ثقتك بالبشر فالأصل فى الحياة هو الخير والاستثناء هو الشر.. والفضليات المخلصات هن الأكثرية الصامتة ، ومثيلات فتاتك هن الأقلية الضئيلة المحتقرة مهما بدا لنا غير ذلك .. ومهما رأينا من تناقضات عجيبة فى الحياة .

الفراشة!

أنا شاب فى السادسة والثلاثين من عمرى ، تخرجت فى إحدى الكليات النظرية منذ ١٥ عاما ، وكان أبى مفتشا بالتربية والتعليم ويقيم مع أسرتى فى إحدى مدن الأقاليم، وحين التحقت بجامعة عين شمس جاء بى إلى القاهرة وطاف شوارعها حتى نجح فى العثور لى على شقة صغيرة من غرفتين وصالة بإيجار شهرى ٤ جنيهات وبخلو رجل بسيط لم يزد أيامها عن مائة جنيه .. وقال لى عليك الآن أنت أن تعتمد على نفسك وأن تواجه الحياة ، وعملت بإرشاداته وتحملت اغترابى عن أمى وأبى وأشقائى فى هذه السن الصغيرة ونظمت حياتى على أن أعيش بمبلغ عشرين جنيها يرسلها لى كل شهر أدفع منها الإيجار الشهرى وتكاليف الطعام والمواصلات إلى الجامعة أما الكتب والملابس فكان يشتريها لى فى بداية كل سنة .

ومضت حياتى رغم صعوبتها التى لم يكن يخفف منها سوى زيارتى الشهرية لبيت الأسرة لأنعم بدفء مشاعر أمى وأشقائى وبالطعام الساخن ، الذى كنت لا أذوقه تقريبا إلا فى هذه الزيارة لأنى أعيش معظم أيام الشهر على الأطعمة الجافة والجبن ، وفى السنة الثالثة لى بالكلية نجحت فى الحصول على عمل فى مجال دراستى بإحدى الهيئات بمكافأة شهرية قدرها ١٥ جنيها وواصلت دراستى بلا صعوبات وفى العام الأخير من دراستى توفى أبى الحبيب

وتركنى فى سن العشرين مسئولا عن أشقائى الثلاثة ، ولم أكن فى وضع يسمح لى سوى بتحمل المسئولية الأدبية والنفسية عن إخوتى .. فأعلنت لأمى تنازلى عن نصيبى من المعاش وأصبحت أزور أسرتى كل أسبوعين بدلا من كل شهر .

وواجهت قسوة الحياة بصبر خلال هذه الفترة إذ لم يعد لى فى الدنيا راع يهتم بأمرى أو يشترى لى الكتب والملابس .

وأذكر أنى جلست فى شقتى بعد وفاة أبى بشهرين أحاول أن أدبر أمرى وأقسم المبلغ الذى يتبقى لى بعد الإيجار على نفقات المعيشة والمواصلات وأعيد الحسابات فلا أجد وسيلة لكى أكفل لنفسى الوجبات الثلاث كل يوم أبدا حتى ولو اقتصرت على الخبز والجبن . ولأن الحاجة هى أم الاختراع كما يقولون فلقد علمتنى الأيام وسيلة جديدة لمقاومة الجوع فكنت أشترى البطاطا بكميات كبيرة وكان ثمنها فى ذلك الوقت لا يزيد على ٥ قروش للكيلو وأخزنها فى البيت فتكون طعامى الوحيد حين تنضب النقود من يدى فأطهوها فى الماء حتى تنضج ثم آكلها بالملح فتسد حاجتى من الطعام وكم من أيام يا صديقى عشتها لا يسد رمقى فيها سوى البطاطا وكم من ليال سهرتها لأذاكر وليس فى بيتى مما يؤكل سواها بل كم من مرة أكلتها نيئة .. وأجبرت نفسى على ذلك حين اكتشفت فى الليل وأنا أذاكر أن وابور الجاز خال من الوقود والوقت متأخر ولا أستطيع اقتراض بعض الجاز من جيرانى الطيبين ومع ذلك فلقد مضت الحياة بخيرها وشرها فكنت أذهب للكلية صباحا وللعمل ظهرا ونجحت فى الليسانس وعينت فى نفس الهيئة التى عملت بها وأنا طالب بعد عام من تخرجى وزاد مرتبى عشرين جنيها وأصبحت ظروفى تسمح لى بأن أقتطع مبلغا بسيطا أرسله لأسرتى كل شهر وواصل إخوتى التعليم وافتتحت فى عاصمة

المحافظة جامعة اقليمية فالتحقوا بها تباعا فلم نواجه صعوبة كبيرة فى مواجهة نفقاتهم ، خاصة أنى تقدمت فى عملى واستعنت بقدرتى على الترجمة فى زيادة دخلى وزيادة المبلغ الشهرى الذى أساهم به فى ميزانية الأسرة ، وكان لأمى نصف فدان يدر علينا خمسين جنيها كل سنة فأراد المزارع الذى يستأجره أن يشتريه ليبنى فوقه بيتا فاشتراه بسعر معقول قسمته بين أمى وشقيقتى وشقيقىّ ووضعت لكل منهم نصيبه فى البنك ليستعين به على مستقبله .. ورفضت أن أحصل على مليم منه أديت واجبى تجاه أسرتى ورددت لأبى بعض أفضاله على ، وركزت جهدى فى عملى وفى هذه الفترة كنت أذهب إلى احدى الهيئات لأقوم بعمل إضافى بها وقد بلغت من العمر التاسعة والعشرين بغير أن أرتبط عاطفيا بأحد لظروفى العائلية وفى هذه الهيئة ألتقيت بفتاة تعمل بها لفت نظرى إليها شىء ما فى جمالها .. فهى فتاة من هذا النوع الملون الذى يجذب الأنظار . رغم أنها ليست صارخة الجمال .. ووجدت نفسى منجذبا إليها ووجدتها تبدى اهتماما بى ورغم تحذير زميلاتى لى منها بأنها فتاة متقلبة ولا تعرف ماذا تريد إذ خطبت قبل ذلك مرتين وفسخت فى كل مرة الخطبة من جانبها ، فلقد وجدت نفسى غارقا فى حبها وراغبا فى الارتباط بها .. أما هى فلقد تقبلت مشاعرى بترحيب وطلبت منى أن أترك لها فرصة لكى تكتمل معرفتها بى ، وخلال هذه الفترة طلبت زيارتها فى البيت وقابلتنى أسرتها بالترحيب وكانت أسرة متوسطة فى مثل ظروفى لكن فتاتى كانت طموحة وتحلم بحياة أفضل ، وصارحتها بظروفى وقلت لها إنى من أسرة كريمة لكنى مكافح ولا سند لى فى الحياة سوى عملى ، وأن لى شقة من غرفتين ويمكن أن نبدأ بها ويمكن أيضا أن أبيعها وأدفع ثمنها كمقدم لشقة أوسع كما أنى سأحصل على شقة عن طريق نقابتى المهنية التى تشترك هى نفسها فيها خلال عامين . فرحبت

بكل ذلك وأعلنت الخطوبة فعلا وقدمت لها شبكة لائقة .. وواصلت الليل بالنهار فى العمل لأوفر متطلبات الزواج وأصبحت أعمل فى ٣ جهات فى وقت واحد بل وقبلت العمل فى وردية الليل بإحدى الهيئات فكنت أخرج منها يومين كل أسبوع إلى عملى الأساسى بلا نوم تقريبا لأواصل العمل حتى المساء ومع ذلك فلقد كنت سعيدا .. ويزداد حبى لها كل يوم ، لكن فتاتى بدأت بعد فترة تعاملنى بفتور ، ثم تتشاغل عنى وصارحتها بذلك فبدأت تحدثنى عن صعوبات الحياة ، وأنى لن أستطيع بعد الزواج أن أعمل فى ٣ جهات .. لكى أواصل الحصول على هذا الدخل العالى و.. و.. وبدت لى الحقيقة قاسية .. فقد وقع ما حذرتنى منه زميلاتى .. وحاولت مناقشتها فلم أتوصل معها إلى شىء .. وسألتها عن اعتراضاتها على شخصيتى فقالت لى ساهمة إنها لا تجد فى ما تشكو منه فأنا كما قالت شاب وسيم وجاد ومخلص ومستقبلى طيب وتتمنانى أى فتاة ولكنها لا تشعر بالاطمئنان للمستقبل معى !.

وأحسست بكلماتها كطعنات تنغرس فى قلبى .. وتركتها طالبا منها أن تعطى نفسها فرصة أخرى للتفكير..

ولاحظت زميلة متزوجة لى بالهيئة ما جرى وكانت تتعاطف معى وتحترمنى فطلبت منى أن تحادثها لتقنعها واختلت بها فى أحد المكاتب لمدة ساعتين ثم خرجت فتعلقت عيناى بها ووجف قلبى .. انتظارا لكلماتها .. فانفجرت ساخطة : إنس هذه الفتاة نهائيا .. إن ظفرك برقبتها .. وأنا على استعداد لأن أزوجك أجمل وأحسن منها بعد أن تنساها .

وسمعت كلماتها صامتا .. وأحسست بألم شديد وشكرتها وانصرفت ولم أذهب ليلتها إلى العمل الليلى وفضلت أن أختلى بنفسى فى شقتى .. وفى الليل طافت بى صور حياتى الماضية وعرفت أن فى الدنيا آلاما أقسى من الوحدة

وافتقاد النصير ، وأكثر مرارة من ازدراد البطاطا النيئة . وبعد يومين خرجت من الشقة ، وقد استجمعت ارادتى على أن أنساها ولم أفكر فى الاساءة لها أو الانتقام منها لكنى حاولت بقدر الإمكان ألا أوجد فى الهيئة فى ساعات عملها ومضت الأحداث سريعة .. فسمعت بعد فسخ خطبتى بشهرين أنها قد خطبت إلى زميل فى نفس الهيئة عائد حديثا من الإعارة لدولة عربية بعد ٥ سنوات ويملك شقة تمليك وسيارة إلخ ..

ثم سمعت بعد ستة شهور أخرى أنها قد فسخت خطبتها منه وارتبطت بزميل ثالث فى نفس الهيئة جاء دوره للخروج إلى إحدى الدولة الأوربيه للعمل فى وظيفة شبه دبلوماسية تابعة للهيئة لمدة ٤ سنوات وعرفت أنها تخلصت من الخطيب العائد بنفس البساطة ونفس القسوة الباردة التى أنهت بها خطبتى لأن حلم السفر إلى أوربا كان أكثر اغراء لها من الشقة التمليك ومدخرات الإعارة !.

وفى هذه الفترة كنت أقضى بعض أوقاتى فى مبنى النقابة المهنية التى ننتمى إليها ألعب الشطرنج فى الصالة العلوية التى تطل على حديقة النقابة وهى لا تخلو كل يوم تقريبا من فرح أحد الأعضاء فلاحظت على نفسى شيئا غريبا فى هذه الفترة هو أنى أحس بأسى شديد داخلى كلما ترامت إلى أذنى نغمات زفة العروسة فى أى فرح يقام بالنقابة ونغمات الزفة بالذات ولا شىء آخر .. حتى لقد ذرفت الدموع من عينى ذات مرة وأنا أقف فى ظلام الصالة وحدى أطل على فرح فى الحديقة وفرقة العوالم تزف عروسين إلى الكوشة .. ليس حسدا والله العظيم .. فأناأحب كل الناس وأتمنى لهم السعادة .. ولكن حزنا على نفسى لأنى أحببت بكل قوتى من لم يحبنى ولم يحفظ عهدى .. وكنت أتمنى أن أقف معه نفس هذا الموقف .

وذات مساء كنت ألعب الشطرنج فترامت نفس النغمات إلى أذنى ووجدت فى نفسى رغبة مفاجئة لأن أطل من النافذة على الحديقة لأرى الفرح فاعتذرت لصديقى وأطللت من النافذة ففوجئت بها تجلس فى الكوشة إلى جوار من اختارته وهى فى غاية الابتهاج والسعادة فلم أحتمل المشهد وأسرعت أغادر مبنى النقابة إلى مسكنى .

ولعلك تسألنى هل كنت لا أزال أحبها ؟! وأجيبك بكل الصدق نعم كنت أحبها حتى وهى فى الكوشة مع من فضلته على ! لكن ماذا أفعل لقد عشت أياما بعدها حزينا أؤدى عملى بلا حماس .. ثم بدأت أستعيد نشاطى وحيويتى وعدت إلى الانتظام فى الذهاب للهيئة التى تعمل بها « معذبتى » بعد أن رحلت مع زوجها إلى أوربا .. وبدأت أتعود على الواقع .. ومر عامان على هذه الذكرى الحزينة .. ووجدت نفسى فى الواحدة والثلاثين والعمر يجرى بى والوحدة أصبحت ثقيلة على فبثثت همى للزميلة المتزوجة التى بذلت مساعيها مع خطيبتى السابقة فنصحتنى بالزواج وأبدت استعدادها لتعريفى بجارة لها ترى فيها الصفات التى أطلبها . وطلبت منى بعد أيام زيارتها فى بيتها .

وفى الموعد ذهبت إليها فاستقبلتنى مع زوجها بالترحيب ، ووجدت معها فتاة توحى ملامحها بالطيبة والألفة والبساطة فاستراح لها قلبى من الوهلة الأولى .. وتبادلنا الأحاديث العادية لمدة ١٥ دقيقة انصرفت بعدها الفتاة ، وانتظرت أن تسألنى زميلتى عن رأيى فيها .. فلم تفعل وإنما استمرت فى الأحاديث العادية فسألتها مداعبا : لماذا لم تسألينى عن رأيى فى « العروسة » فقالت لى بدهشة : أية عروسة ؟ إن الفتاة التى حدثتك عنها لم تأت بعد لأنها ستتأخر ساعة لأمر طارئ .. أما الفتاة التى كانت هنا فهى ابنة أختى وقد جاءت على غير موعد فى أمر عائلى ، ولم يخطر فى بالى أن أرشحها لك لأنها

ما زالت طالبة فى الليسانس ، والأخرى خريجة وتعمل فى وظيفة محترمة !.

فطلبت منها رؤيتها مرة أخرى ورفضت الانتظار إلى أن تصل الجارة الموعودة وانصرفت ، وسئلت الفتاة عن رأيها فى فأبدت ارتياحها لى فرأيتها ثم خطبتها وبعد عدة شهور تم الزواج واحتفلت به فى نفس حديقة النقابة التى شهدت من قبل آلامى وعذابى ، وجرى كل شىء بسهولة ويسر لا تفسير لها إلا أنها إرادة الله سبحانه وتعالى فلقد قبلت خطيبتى الزواج فى الشقة الصغيرة إلى أن تأتى شقة النقابة ، وقبل أن ينتهى العام الأول من الزواج جاءت الشقة الواسعة فانتقلنا إليها ، وبعت شقتى الصغيرة ، وحجزت لزوجتى فى مستشفى لائق للولادة لكى تضع مولودها الأول ، وجاءت طفلتى الحبيبة نهى لتملأ الدنيا حبا وسعادة ، ومعها جاء الخير كله ، فترقيت فى عملى الأساسى وأصبحت قادرا على الاستغناء عن العمل الليلى ، ثم رشحتنى الهيئة فجأة وبدون أى سعى منى ، للسفر إلى الخارج فى بعثة تدريبية لمدة عامين .. وأين ؟ فى نفس الدولة الأوربية التى تقيم فيها خطيبتى الأولى والتى من أجلها تركت العائد من الدول العربية وكلما عدت إلى زوجتى حاملا لها خبرا جديدا من هذه الأخبار أحسست بفرحتها الطاغية تعيد إلى ثقتى فى نفسى وأحسست أيضا أن كل ما أصابنى من خير يرجع الفضل فيه بعد الله إليها لأنها لا تطلب شيئا .. وترضى بالقليل .. وتفرح بالشىء الصغير كأنه معجزة لا يستطيع أحد أن يحققها سواى !.

وفى غمار كل ذلك كان حبها يتسلل إلى قلبى رويدا رويدا من الأيام الأولى للزواج فيزحف كل يوم إلى موقع جديد تنسحب منه الأخرى الملونة حتى احتل كل قلبى وطرد شبحها من قلبى تماما بعد شهور قليلة . وسافرنا إلى أوربا .. وأكملت الغربة اكتشافى لكل الجوانب الخيرة فى زوجتى .. ووجدت

نفسى فى ليالى الشتاء هناك أحكى لها كل شىء عنى وعن كفاحى وعن أيام الحرمان التى عشتها فتسيل دموعها إشفاقا ويزداد إعجابها بى .. وحبها لى .. وقد مست قلبى حين قالت لى أنها يتيمة مثلى منذ صغرها ولم تستشعر الأمان والحنان إلا معى ، وأنها تحس بأن الدنيا قد عوضتها بى عن كل آلامها .. وهكذاأصبح بيتنا عشا هادئا يظلله الحب والعطف والحنان .. وواحة يقصدها الأصدقاء الذين تعرفنا بهم فى الغربة ومن هؤلاء الأصدقاء تطايرت إلى سمعى أخبار الأخرى الملونة التى تعيش فى نفس المدينة .. ويحكى المصريون عن خلافاتها مع زوجها ومشاجراتها التى وصلت إلى حد إبلاغ الشرطة ضده فى إحدى المرات بتهمة أنه ضربها بالقلم .. وهى مصيبة كبيرة فى الدولة الأوربية وكيف تدخل السفير شخصيا لكى يحول دون حبسه لأن القانون هناك صارما ولا يرحم فى هذه المسألة .. وكيف تطلب السفارة من الهيئة إعادتها إلى مصر بعد أن كثرت فضحاتها .. إلخ ..

.ووجدت نفسى أسمع هذه الأخبار بلا أى تأثر كأنها شخص لا أعرفه ولم أسمع به من قبل .. فلا شماتة .. ولا انفعال .. ولا اهتمام بل شكر لله سبحانه وتعالى أن أزال الغشاوة عن عينى واختار لى شريكة حياتى هذه التى لم أسمع صوتها عاليا مرة واحدة خلال أربع سنوات .. ولم نتغاضب على شىء يوما .. ولا تحتمل أن يقع بيننا أى خلاف صغير مما لا تخلو منه الحياة .. فلا تمضى دقائق حتى تجيئنى لتقول لى آسفة فأسارع لأسبقها قبل أن تنطق بها وأقولها أنا لها ، أنى أقرأ فى غربتى رسائل بريد الجمعة التى تروى آلام الناس ومشاكلهم .. وتجاربهم وقد اقترب موعد عودتى فخطر لى أن أكتب لك عن تجربتى لعلها تفيد بعض من يواجهون الموقف الذى واجهته فلا يحزنون على ما فاتهم .. وليعرفوا أن الله سوف يبدلهم بمن خذلوهم من هن أفضل منهن لأن الله لا يضيع أجر

المخلصين والسلام عليكم ورحمة الله .

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : لا عجب فى أن يبدلك الله بمن هى أفضل ممن خانت عهدك ولم تعرف لك قدرك ، بل لعل العجب هو ألا يحدث لك ذلك ، فأنت شاب مخلص أمين مكافح تحملت مسئولية نفسك فى سن الصبا ومسئولية أسرتك فى سن الشباب .. وكنت نعم الابن والأخ لأسرتك .. فكيف يضيعك الله يا صديقى ؟.

لقد كان حقا على الحياة أن تعوضك عن صبرك وكفاحك ومعاناتك بمن تجد فى صحبتها الدفء والحب والأمان ، وكان حقا على الدنيا أن تجزيك خيرا عميما عن ترفعك عن الإساءة لمن أذتك والانتقام ممن أدمت مشاعرك فى جريها وراء طموحها .

إن الحكماء من أمثالك هم من يترفعون عن الإساءة لغيرهم والانتقام منهم لأنهم يعرفون جيدا أن الدنيا سوف تنوب عنهم فى الانتقام لهم ممن أذوهم لأن المكر السيئ لا يحيق دائما إلا بأهله ، ولأن الله جل شأنه لا يتسامح مع من يرتكبون جريمة الإضرار بالآخرين بغير أن تطرف عيونهم .. فلماذا ننتقم نحن ممن ظلمونا .. ولو صبرنا قليلا لرأينا بأعيننا إنتقام العزيز الجبار منهم .. بلا أي جهد من جانبنا !.

وبعيدو النظر يا صديقى هم من لا يحزنون طويلا على شىء فاتهم .. ومن يتذكرون دائما كلمة الإمام أحمد بن حنبل لمن سأله النصيحة : إذا كان كل شىء بقضائه وقدره فالحزن لماذا .

نعم فالحزن لماذا واليأس لماذا يا صديقى والحياة تتجدد كل يوم وما فات قد فات والمؤمل غيب كما يقولون ؟.

إننا نتصور أحيانا بعقولنا القاصرة أننا نختار لأنفسنا حياتنا وفقا لحساباتنا

وتدبيرنا فقط فيجهد البعض منا نفسه فى التحسب .. والتفكير.. لكيلا نشقى بمن اخترناه فى المستقبل وننسى أن المستقبل فى النهاية بيد الله وحده وأن مبالغتنا فى ذلك لن تغير مما كتب لنا اللوح المحفوظ شيئا .

نحن مطالبون بالتدبر ، هذا صحيح لكننا مطالبون أيضًا بالتسليم بإرادة الله .. وبقبول ما تأتينا به الحياة بصدر رحب وتجربتك الفريدة « خير » مثال على ذلك فأنت قد اخترت فى البداية من لم تخترها الأقدار لك .. وزميلتك العطوفة قد اختارت لك أيضًا ، فكان الاختيار الحقيقى فى النهاية هو ما لم تدبر له أنت وما لم تفكر فيه فكان نعم الاختيار.. ونعم الجزاء .

أما فتاتك الملونة .. فهى فراشة فعلاً فى ألوانها الزاهية وفى تنقلها بين الزهور ترشف رحيقها .. وتطير من زهرة إلى زهرة بحثا عن الأفضل والأنفع .

لكن مصير الفراشات دائما هو أن يصيدها فى آخر الأمر صائد مهما طارت وتنقلت فيصنع بها ما قالته مدام بترفلاى فى الأوبرا التى تحمل اسمها لزوجها متخوفة مما يحمله لها المستقبل : يقولون إن الرجل فى بلادكم إذا صاد فراشة فإنه يقتلها بإبرة ؟ لكى يحفظها ! .

والقتل بالإبرة قد يكون أحيانا أهون من العذاب والمعاناة والتعاسة المستمرة فلا تشمت بها يا صديقى .. فهى دروس الحياة التى تعلمنا كل يوم أنه لا يفلح الظالمون ، وأنه عسى أن نكره شيئا وهو خير لنا .. وعسى أن نحب شيئا وهو شر لنا . الله يعلم وأنتم لا تعلمون ! مع أجمل تمنياتى لك ولزوجتك الوفيه .

فـــن الحيـــاه

أنا سيدة فى التاسعة والعشرين من عمرى ، بدأت قصتى مع الحياة حين بلغت سن الرابعة عشرة من عمرى وشببت عن الطوق قبل الأوان كما يقولون فجاء من يقطف زهرة صباى قبل أن أتنسم عبيرها ، ويطلب يدى من أبى فى هذه السن الصغيرة لسببين هما جمالى الملحوظ .. وفقرى الشديد وقلة حيلتى .. فأبى موظف بسيط ينوء كاهله بأسرة من ٥ بنات .. ومرتبه لا يكاد يكفى لإطعامها خبزا فقط والأسرة تدخر بالسنوات لكى نشترى أسمالا تستر أجسامنا الضئيلة لهذا بدا هذا الزواج وكأنه ليلة القدر لأبى وتم الزواج سريعا وقطعت دراستى وكنت وقتها طالبة بالمدرسة الإعدادية وتنفست أسرتى الصعداء لكن فرحتها لم تطل فقد أغلق زوجى سامحه الله الأبواب فى وجه أسرتى ملتمساً فى البداية الأعذار.. ثم ناهراً وآمرا بقطع كل الصلات مع أسرتى الفقيرة ، فوجدت نفسى فجأة وأنا فى سن الخامسة عشرة أو تزيد وحيدة فى بيت زوجى ومغتربة عن أهلى وليس بينى وبينهم سوى بضعة كيلو مترات تفصل ما بين الفقر الشديد فى بيت أسرتى وفى الحى الشعبى الذى تعيش فيه ، وبين البيوت العامرة بالغنى والثراء فى الحى الذى أقيم فيه مع زوجى ..

ووجدت نفسى مغلوبة على أمرى فاستسلمت لمصيرى وتعلمت فى وحدتى « وغربتى » فى هذا العالم الغريب الصبر فكان أول دروس الحياة التى تعلمتها

الصمت فكان سلاحى فى دفع الأذى عنى .. وتعلمت ما هو أهم من ذلك الصلاة والابتهال إلى الله ليل نهار أن يمدنى بالعون والمساعدة والقدرة على تحمل الألم . وكان على أن أقوم بخدمة زوجى صباحا ومساء وفى الأسحار وأحيانا حتى صباح اليوم التالى صابرة محتسبة آملة فى الله أن يعوضنى عن صبرى خيراً ، واستمرت حياتى على هذا المنوال ٤ سنوات طويلة وأنا شبه محرومة من أهلى ومن أنس صحبة شقيقاتى وصديقاتى ، حتى أننى كنت أفتقد أحيانا ملاعب صباى وذكريات طفولتى فلا أجد سوى الدمع أروح به عما فى صدرى بينى وبين نفسى بعيداً عن أنظار زوجى الذى يجب أن أبدو أمامه دائما باسمة سعيدة حتى ولو كانت ابتسامتى حزينة .

وبعد ٤ سنوات بدأ زوجى يتململ من عدم الإنجاب وعقم حياتنا الزوجية .. فذهب بى إلى الطبيب ليجرى لى الفحوص والاشعات ويكتشف أننى أحمل رحم طفلة لا يزيد عمرها ٣ سنوات ولا يقوى على الامتلاء والحمل فكانت صدمة شديدة بالنسبة له لأنه كما قال لى لم يحصل بذلك على حقه كاملا من الزواج وهو الإنجاب ، أما بالنسبة لى فلم أستوعب الأمر ولم أهتم له فقد كنت فتاة فى الثامنة عشرة وليس إلى جانبى أم استشيرها ولا صديقات يشرحن لى الأمر ، وهكذا لم يجد جديد فى حياتى .. فالحياة ماضية كما هى وحدة .. واغتراب .. وطاعة عمياء لزوجى وصبر وصمت واستعداد لقبول كل شىء لكنه يبدو أننى لم أكن أشعر بما حولى ، لأنى فوجئت ذات يوم بزوجى بلا مقدمات ولا سابق إنذار يسحبنى من يدى أى والله هكذا إلى مكتب المأذون ويطلب منى أمامه أن أتنازل عن كل شىء لى عنده حتى عن ملابسى ، ووجدت نفسى أوافق على كل ما طلب منى بلا معارضة وماذا كنت أستطيع أن أفعل يا سيدى وأنا ضعيفة وحيدة بلا أب أو أم يقفان إلى

جوارى فى هذه اللحظة الصعبة ، فوقعت على ما طلب منى التوقيع عليه ، ووقفت فى انتظار الخروج لا أعرف كيف أعود إلى بيت أبى حتى تفضل الرجل الذى قطف زهرة صباى بإعادتى إلى بيت أبى .. فعدت إليه كما خرجت منه بلا حقيبة ملابس وأصدقك القول يا سيدى أننى رغم عودتى إلى الحرمان والحياة المتقشفة الصعبة إلا أننى أحسست بالألفة التى افتقدتها فى ذلك البيت الموحش الصامت طوال ٤ سنوات ، وإن كنت لا أنكر أنى تألمت لحالى وسنوات عمرى التى ضاعت هباء فأصبح الحزن يكسو ملامحى وعدت إلى دراستى التى قطعتها ، وبعد بضعة شهور دعينا إلى حضور زفاف إحدى فتيات الأسرة فقابلت فى الفرح شاباً تنبئ ملامحه لأول وهلة بالطيبة والخلق فصافحته بين من صافحت من المدعوين وصافحنى ، ولم نتبادل أكثر من كلمات التحية العابرة ثم انتهى الفرح وعدت إلى بيتى ، فإذا بهذا الشاب يجيء فى اليوم التالى لمقابلة أبى ويطلب منه يدى وبعد أن سأل عنى طوال الليلة السابقة كل من يعرفنا أثناء الفرح وقابله أبى بترحاب لكنه كان قد تعلم الدرس فتردد فى الموافقة على استعجال الزواج وصارح هذا الشاب بحقيقة مشكلتى فى الإنجاب ، وطلب منه عدم التسرع وعدم الإقدام على الزواج إلا بعد أن يتأكد تماماً من حقيقة مشاعره ومن استعداده لتقبل هذا العجز ، وقبل الشاب رغبة أبى فى تأجيل الزفاف وبدأ يتردد علينا .. وبدأت أحس تجاهه بمشاعر فياضة ، وكعادة الخطيبين سألته ذات يوم ماذا شد انتباهه إلى فأجابنى على الفور بأنها مسحة الحزن والاستكانة التى استقرت فوق ملامحى ! فقلت لنفسى .. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .. فلقد ربطت بيننا هذه المسحة التى كرهتها من قبل وكانت السر فى لقائنا وتمسك خطيبى بإتمام الزفاف فتزوجنا بعد عام من الخطبة وهاجرت معه إلى البلد العربى الذى يعمل فيه ،

وشتان ما بين الهجرتين ، ففى الأولى كنت فى نفس المدينة على بعد خطوات من أسرتى وبينى وبينهم سدود وجبال من تكبر زوجى واستعلائه عليهم ونفوره منهم وفى الثانية كنت على بعد آلاف الأميال منهم لكنهم أقرب إلى من أى وقت مضى فزوجى رجل فاضل يعرف ربه حق المعرفة فلم يقطع ما بينى وبين أسرتى ولم يحاول أن يضع سداً بين فقرهم ويسر حياته وإنما تواضع لله وشكره فأعطاه من فضله الكثير وكان دخولى إلى بيته فاتحة خير له فاتسعت أعماله بدرجة مذهلة ، وخلال سنوات قليلة أصبح فى مصاف كبار رجال الأعمال بل ومن أصحاب الملايين وكلما زاده الله من فضله ازداد شكراً لله وتواضعاً له ورقة معى والتصاقاً بى واهتماماً ورعاية لى ، فأعاننى على تزويج شقيقاتى كلهن وأكرم أبى وأمى أكرمه الله وقمنا بحج بيت الله جميعًا أكثر من سبع مرات . ولم يفقد الأمل يوماً فى علاجى فطاف بى أنحاء العالم طلباً للشفاء .. وبدأ العلاج يؤتى ثماره بعد تلك السنوات الطويلة فأصبح لى رحم أنثى كاملة لكنى لم أستطع الإنجاب لأننى أحمل أنبوبتين مسدودتين ، فجاءنا الأمل بعد ٥ سنوات فى عملية الإنجاب عن طريق طفل الأنابيب ، فقمت بإجرائها لأول مرة فى لندن وفشلت وعدنا إلى البلد الذى نقيم فيه ففوجئنا بافتتاح قسم فيه لأطفال الأنابيب فكنا أول من ذهب إليه ، وخلال ٥ سنوات قمت بإجراء هذه العملية إحدى عشرة مرة كانت أكثرها نجاحاً هى المرة التى عاش فيها الجنين داخل رحمى ٥ أسابيع فقط .. وفشلت جميعها لكننا لم نفقد الأمل فى الله أبداً وسوف أقوم بالعملية رقم ١٢ فى أواخر أبريل القادم رغم ما أعانيه من آلام لا تعرفها سوى من قامت بإجراء هذه العملية من تناول جرعات الهرمون المتزايد ، ومن آلام العمليات الجراحية التى يحصلون بها على البويضات ، وأعدك يا سيدى إذا نجحت هذه العملية أن أبلغك بذلك وإن

لم تنجح فأنا وزوجي من الصابرين الشاكرين .. وقد أكرمني الله بزوجي .. وعوضني عما لقيت في زواجي الأول من آلام .. وفي حياتي السابقة من عناء فلنشكر الله دائماً .. ولنطلب منه دائماً أن يشملنا بعطفه ورعايته والسلام عليكم ورحمة الله .

□ □ تلقيت هذه الرسالة ضمن رسائل أخرى تعلق على رسالة سابقة نشرتها منذ فترة بعنوان « زائر الصباح » للمهندس الذي فقد وليده بعد رحلة عناء طويلة مع الأمل في الإنجاب ولأني كنت قد نشرت رسالة منذ أسبوعين تعليقا عليها فلقد اعتزمت، ألا أنشر رسائل أخرى حول نفس القصة لننتقل معاً إلى هموم الحياة الأخرى وما أكثرها لكني بعد قراءة هذه الرسالة لم أستطع مقاومة نشرها ليس فقط تلبية لرغبة كاتبتها في نقل تجربتها للمهندس ومواساته ، وإنما أيضا لما ترويه من تجربة إنسانية تضيف إلى خبرتنا بالحياة الجديد ، فلقد شد انتباهي إليها ما تنبض به من صدق إنساني فريد يجعل منها قطعة أخرى من أدب الحياة الذي يطلعنا فيه أصحابه على قصصهم مع الحياة لنتعلم منهم دروس التجربة وعبرتها .

أما أنت يا سيدتي فلقد زادتني رسالتك اقتناعاً بما أؤمن به دائماً من أن أصحاب النفوس الراضية لا خوف عليهم مهما قست عليهم بعض ظروف الحياة ، لأنهم يواجهون شدائدها بهذه النظرة المتسامحة التي تغفر للحياة كل ما يلاقونه فيها من آلام وينتظرون بصبر لا يكل حظهم العادل من السعادة وهو ما عبرت عنه أنت في رسالتك بالاستسلام لما لا حيلة لك فيه وقبوله برضا واستكانة فأنت رغم جفاف حياتك قبل الزواج الأول والثاني لم تكوني ساخطة على ظروف أسرتك بل مشفقة عليها منها ، وفي سنوات زواجك الأول الموحشة الكئيبة لم تكوني ساخطة عليها حتى وأنت تعانين مرارة الوحدة

والصمت والاغتراب النفسى والحرمان الظالم من الأهل .

وإنما كنت مشفقة على نفسك .. وصابرة على البلاء ولا تفكرين فى هدم عشك طلباً لحقك العادل فى حياة سعيدة وأنت يا سيدتى رغم ما تعانين منه الآن بسبب مشاكل عدم الإنجاب لست ساخطة على حرمانك منه ولا على ما تلاقين من عناء شديد فى سبيل تحقيقه وإنما تتقبلين أقدارك برضا ولا تقصرين فى حق نفسك ، فتجرين وراء الأمل مرة ومرات حتى بلغت ١١ مرة عدا ما تحملت فى كل منها أشد الآلام وأشد العناء بصبر ورضا وسوف تقدمين على المحاولة الثانية عشرة وسوف تشكرين إن نجحت وتصبرين إن فشلت وأصحاب النفوس الراضية من أمثالك يدافع الله عنهم حين لا يحسنون هم الدفاع عن أنفسهم ، لذلك فقد أقدم زوجك الأول على هدم عشك وقسا عليك واستلبك حقوقك .

ولولا أنه قد تسرع فهدم خلية النحل لربما ظل يرشف رحيق العسل حتى الآن ، ولما هيأ الله لك هذا الزوج الفاضل الذى يعرف حقوق ربه فيرعاك ولا يقطع رحمك ويكون لك ولأسرتك عوناً وسنداً فى الحياة ولا عجب فى ذلك فمن تركز فى رسالتها وهى الآن زوجة لأحد أصحاب الملايين على وصف فقر أسرتها وقلة حيلتها ، وفضل زوجها فى مساعدتها ، لابد أن تكون من هذا النوع من النساء اللاتى قال عنهن سليمان الحكيم فى أمثاله : « امرأة فاضلة من يجدها فإن ثمنها يفوق اللآلئ » ولابد أن تكون إنسانة أصيلة حسنة الطوية ، لم يغير منها الثراء المفاجئ .. ولم يدر رأسها كما يفعل ببعض الحمقى الذين يفقدهم فتات الدنيا أتزانهم ويفسد صلاتهم بالآخرين اتدرين يا سيدتى أين هو السر فى كل ذلك .. إن السر هو أنك حققت لنفسك ما يجهد الكثيرون أنفسهم للوصول إليه بلا فائدة وهو طمأنينة القلب والرضا دائما بالواقع وطمأنينة

النفس لا تتأتى إلا بتقبل الحقيقة مهما كانت مؤلمة ، لأن تقبل الواقع هو الخطوة الأولى دائماً للتغلب على الصعاب ومواجهتها فعسى أن يمن عليك ربك بما يحقق لك آمالك فى الحياة وعسى أن تسعدنى الظروف بأن أتلقى منك البشرى بنجاح العملية الجديدة بأمر ربك إن شاء الله وفى كل الأحوال فإن قيمة الحياة هى فى أن نحياها وأن نحيا كل ساعة منها ونتقبل منها كل شىء ، إذا كنا لا نملك تغييره ولست فى حاجة لأن أذكرك بذلك لأنك « أستاذة » بحق فى فن الحياة والرضا بالواقع ، والشكر لله على ما أعطى .. وما سوف يعطى بفضل منه ورضوان إن شاء الله .

الضـوء الخافت

أنا سيدة فى السادسة والثلاثين من عمرى .. نشأت فى أسرة متوسطة بين عدد من الأخوة تزوجوا جميعا وعاشوا حياة هادئة .. أما أنا فقد تقدم لى كثيرون من محيط الأسرة والأصدقاء ..لكنى صممت بينى وبين نفسى ألا أتزوج إلا ممن أحس حين أراه أنى سأحبه واستشعر الدفء العاطفى معه .. وهكذا انتظرت وكلما تقدم لى خاطب جالسته فى الصالون لأبحث فيه عن فارس أحلامى .. وحين لا أجد قلبى يخفق له اعتذر عن عدم قبول الخطبة . إلى أن جاء يوم وتقدم لى أحد معارف زوج شقيقتى وكنت قد رأيته قبلها مرة أو مرتين فى الزيارات العائلية لكنى لم أفكر فيه كخطيب..فاستعددت كالعادة للقاء الصالون التقليدى مع أبى وأمى وجاء هو مرتديا بدلة بيضاء وما أن دخلت إلى الصالون ونهض مبتسما ليصافحنى وهو ينظر فى عينى بثقة وثبات حتى وجدت قلبى يخفق له بشدة وأسرعت بالجلوس ، ودار حديث المجاملات ، فاكتشفت أنى استمتع به وأريد أن يطول الحديث وتطول الجلسة ولم أشعر بالرغبة السابقة فى الانسحاب بحجة الصداع وعقب انصرافه سألنى أبى عن رأيى فيه فقلت له بجرأة إنى أريده وأوافق عليه ، وتعجبت أمى لأنه لم يكن أفضل ممن تقدموا من ناحية ظروفه .. كما لم يكن أيضا أكثرهم وسامة بل لم يكن وسيما بالمقاييس العادية .. لكن ماذا تقول ياسيدى فى عين

المحب .. وتمت الخطبة بعد أسابيع وتم الزفاف بعد عام . وسافرنا معا إلى إحدى دول الخليج حيث كونت هناك أول عش لأحلامى معه . وبدأت أيامى معه كما تصورتها وكما أردتها لنفسى ومضت الأيام سعيدة وهو يعمل بجد فى عمله ، وأنا أعمل بنشاط فى عش أحلامى .. وأنتظره إلى أن يعود بعد الظهر لكى نتناول معا طعام الغداء مهما تأخر عن العودة .. ثم نمضى الوقت معا نزور الأصدقاء .. أو نستقبل زياراتهم أما حين لا تكون لنا زيارات ولا عندنا زوار ، فقد كنت أحرص على أن نتناول العشاء معا فى بيتنا الصغير على ضوء الشموع ! نعم الشموع ما الغرابة فى ذلك ولماذا لانمتع أنفسنا بالحب واللمسات الشاعرية الجميلة ، أليس الزواج مودة ورحمة ...؟ أوليس من المودة أن أوفر لزوجى الجو الجميل الراق فى بيته ؟ لقد عشت معه هكذا فى الخارج ٤ سنوات حملت خلالها وأنجبت بنتا ، ولم أتوقف أبدا عن اهتمامى بزوجى وبيتى وبهذه اللمسات الصغيرة ولم أغضب منه يوما واحدا .

وانتهت سنوات الإعارة وعدنا إلى بلادنا وأثثنا مسكنا جميلا . وأنجبت طفلى الثانى .. واستشارنى زوجى الحبيب فى أن يستقيل من عمله الحكومى ويعمل بالأعمال الحرة فشجعته على ذلك .. واستقال وافتتح لنفسه مكتبا للتجارة وبدأ يمارس عمله الجديد بنجاح .. ولم يتغير شىء فى حياتنا سوى أنه أصبح يغيب فى الخارج ساعات أطول فيخرج فى الصباح ويمضى اليوم كله فى المكتب ثم يعود فى المساء وأنجبت طفلتى الثالثة .. مع بداية توسع زوجى فى أعماله وكثرة أرباحه منه . واحتفل زوجى بولادة هذه الابنة احتفالا كبيرا واعتبرها بشير السعد له لأنها ولدت مع توسع عمله . ومضى على زواجنا ٩ سنوات ودخلت ابنتى وابنى المدرسة وشغلت بعض الوقت معهما فى مراجعة الدروس لكن لم يتغير شىء فى نظام حياتنا .. حتى بعد أن أصبح زوجى يتندر

أحيانا على حكاية الشموع والضوء الخافت كنت اتقبل دعابته بصدر رحب ، وأتمسك بها رغم ذلك وبين حين وآخر كان زوجى يصر على أن نترك الأبناء فى بيت أمى ونخرج للسهر فى المحلات العامة مع بعض الأقارب .. وكنت ألاحظ أنه فى بعض هذه الحفلات التى حضرناها أنه يحب الرقص الشرقى ويتفرج عليه بشغف شديد إلى درجة أنى أحس بالغيرة طول لحظات انشغاله الشديد بالرقص والراقصة ! وبعد ذلك رفضت أن نخرج إلى مثل هذه الحفلات لكنه كان يصر فى بعض الأحيان فهدانى تفكيرى . تفكير المرأة عندما تغار إلى شىء لايخطر على بال أحد ونفذته بكل جرأة ، فنزلت ذات صباح ومعى إحدى صديقاتى وركبنا سيارة أجرة إلى شارع محمد على وسألت عن المحلات التى تبيع بدل الرقص حتى اهتديت إليها واشتريت منها بدلة كان ثمنها أيامها ثلاثين جنيهًا ، وتحملت أسئلة البائع ونصائحه وطريقة كلامه معى ، باعتبارى من « المهنة » وعدت إلى بيتى سعيدة وأنا أقول لنفسى ما العيب فى ذلك ، إن للزوجة فى بيتها أن تفعل ما تشاء مادام لايراها سوى زوجها .. وحين عاد زوجى وأعلنت له مفاجأتى السارة ضحك طويلا وتعجب كثيرا .. واقتنع بعدم الذهاب إلى هذه الحفلات مؤكدا أنه يفعل ذلك تقديرا لمشاعرى كزوجة محبة وليس تقديرا لمواهبى الفنية !

ومرت أيامنا بعد ذلك سعيدة !.. إلى أن بدأ زوجى يتأخر فى الخارج عن موعده المعتاد ويعود مرهقا فى الليل ، ويضيق بلمساتى الشاعرية القديمة وسألته عما به فشكا لى أحوال العمل والكساد وضعف الإيراد إلخ .. فهونت عليه المشكلة وطالبته بالصبر.. وبدأت لا أطالبه بأى مصاريف إضافية للملابس أو للأولاد .. لكى أخفف عنه .. وبدأت أنفق بعض إيرادى من ميراثى عن أبوى على البيت لكيلا أرهقه .. لكن الأمر لم يتوقف عند هذا

الحد فقد زارتنى زوجة أحد أصدقائنا وصارحتنى بأن متاعب زوجى المالية لا علاقة لها بالكساد والأحوال الاقتصادية ، وإنما بنزوة وقع فيها منذ حوالى سنة مع سيدة تعاملت معه فى المكتب ووقع فى هواها وانفق عليها الكثير وأهداها سيارة حتى اختل ميزان تجارته وبدأت الديون تتراكم عليه فتوقف التجار عن البيع له بالأجل فتعثرت تجارته ، ووقفت مذهولة مما سمعت .. وراجعتها فيما تقول فأكدته مرة ومرات وقالت لى إن زوجها وجميع أصدقائنا وأقاربنا يعرفون ذلك وأنها ترددت فى إبلاغى لعلمها بحبى لزوجى لكنها قررت فى النهاية أن تبلغنى لأتصرف .

وانصرفت صديقتى وظللت جالسة فى نفس مكانى لا أقدر على الحركة أكثر من ساعة وأنا لا أصدق أن زوجى يفعل هذا . ويجر على نفسه وأولاده الخراب وأسأل نفسى ماذا أفعل هل أواجهه هل أصرخ فى وجهه .. هل أطالبه بالطلاق .. هل أطالبه بنصيبى فى المكتب وقد ساهمت فيه ببعض مدخراتى .. هل .. هل .. ودارت برأسى كل هذه الخواطر وأبنائى يلعبون حولى لاهين عما أعانيه وانتهيت بعد أن تعبت من التفكير إلى قرار .. لا أعرف كيف توصلت إليه .

فرفعت سماعة التليفون واتصلت بصديقتى وطلبت منها أن تكلف زوجها إبلاغ زوجى أنى قد عرفت الأمر كله ، عن طريق أشخاص آخرين وأنى أطلب منه عدم مفاتحتى فى هذا الموضوع .. وبقطع كل علاقة له مع هذه السيدة وانقاذ عمله وسمعته وأسرته .. وأننى سأساعده بما أملك على الخروج من أزمته .

وجاء زوجى يومها فى المساء مصفر الوجه خائفًا ففوجئ بى أستقبله بهدوء .. وبابتسامة حتى ولو كانت حزينة لكنها ابتسامة .. ثم وجد البيت

هادئا والعشاء جاهزا وعلى المائدة نفس الشموع التى كنت أحب أن أشعلها فى أوقات الصفاء .. وحاول أن يتكلم فانحبس صوته فتكلمت أنا عن أشياء عادية وأدرت الموسيقى وتصرفت بطبيعية ولم أنس أن أتبادل معه تحية المساء قبل أن أنام وفى الصباح وجد فى حقيبته « السمسونايت » التى يحملها معه بعض مجوهراتى وبعض المال المدخر من ميراثى ، فنظر إليها مستفهما فأشرت إليه برأسى أن تصرف فيها لإنقاذ تجارتك فحنى رأسه شاكرا ثم دعوته للإفطار .

ومضت حياتنا على هذا المنوال .. اهتم بأمره كأن لم يحدث شيء ارتب أشياءه أقف بين يديه وهو يرتدى ملابسه . استقبله على مائدة العشاء بالزهور والشموع وأنا أعلم أنه قادم من عند الأخرى لا أعاتبه ولا ألومه .. ولا يرى منى سوى الابتسامة الجريحة صحيح أننى كنت أختلس إليه النظر أحيانا لفترات طويلة لأنظر كيف استطاع أن يجد فى قلبه مكانا لامرأة أخرى أو كيف غدر بى وأنا لا أرى فى الدنيا سواه .. لكنه ما أن يرفع عينيه لينظر إلى حتى أهرب بعينى عنه .

والحق أننى لم أكن أتجاهل ما حدث وإنما كنت أريد أن أسلط عليه عذاب تأنيب ضميره ليفيق إلى نفسه ويرجع إلى عشه وساعتها كنت سأصفح عنه لأن فى قلبى دائما مكانا للصفح عنه .

وبدأت طريقتى تؤتى ثمارها .. وبدأ ضميره يعذبه كلما وجدنى أتفانى فى خدمته .. وحاول ذات مرة أن يعترف لى فوضعت أصبعى فوق فمه وقلت له أننى أرفض أن أسمع ما يسئ إلى زوجى وحبيبى وأبِ أولادى حتى ولو كان من شفتيه هو .. فطفرت الدموع من عينيه وشاركتها دموعى .. وبدأ عليه أنه عرف خطأه وتعلم منه لكن بعد فوات الأوان كالعادة فبعد هذه المحادثة بينى وبينه بعدة أيام .. صحوت فى الصباح الباكر لأعد طفلتى وابنى للخروج

للمدرسة فوجدته مستيقظا جالسا فى الصالة يدخن السجائر بشراهة ويشرب القهوة . فداعبته قليلا وانشغلت عنه بالولد والبنت حتى خرجا ثم عدت لأستكمل نومى ولا أدرى كم نمت ولا لماذا صحوت بعد حوالى ساعة ضيقة الصدر فذهبت إلى الحمام وفتحت بابه لكى أفاجأ بأبشع منظر يمكن أن تراه زوجة وأم لثلاثة أطفال أبرياء لزوجها وهو غارق فى دمه فى بانيو الحمام وشرايين يده مقطوعة ومدلاة من البانيو ولم أدر ماذا فعلت عندها ولا ماذا حدث بعدها حتى وجدت نفسى وأولادى الثلاثة فى بيت إحدى قريباتى بالاسكندرية .. بناء على نصيحة الطبيب بعد أن انتابتنى نوبة هيستيرية استمرت ٤ أيام .. فطلب إبعادى عن جو الحادث كله .. لكى يتوقف انهيار أعصابى .

وفى الاسكندرية عرفت بعد قليل باقى التفاصيل .. فعرفت أن زوجى الحبيب سامحه الله قد عجز عن مواجهة الموقف بعد تراكم الديون ولم يتحمل إشهار إفلاسه .. ولم يجرؤ على أن يطلب من أقاربنا إقراضه فقرر الهروب من كل ذلك بالانتحار تاركا زوجته وأطفاله الثلاثة للأقدار ، وبعد أسابيع قليلة تم الحجز على مكتبه وسيارته وتجارته وفاء للديون وساعدتنى أسرتى فى عمل بدل لشقتى بشقة أخرى لأنى لم أكن قادرة على دخولها مرة أخرى وعدت إلى القاهرة إلى شقة جديدة لأعيش حياتى مع أبنائى الثلاثة معتمدة على إيراد خاص من ميراثى عن أبوى اللذين رحلا عن الدنيا قبل سنوات وكرست حياتى لرعاية أطفالى ومحاولة نسيان هذه التجربة المؤلمة .

والآن ياسيدى مرت على هذا الحادث البشع ثلاثة أعوام وأصبح خلالها مجرد ذكرى بالنسبة للأصدقاء والأسرة .. أما أنا فمازال حيا فى خيالى وظل مشهد البانيو يطاردنى فى أحلامى أكثر من عامين وقد أصبحت الآن الأم

والأب والعم لأبنائى الصغار .. لايخفف من وحدتى سوى زيارات أشقائى وزياراتى لهم أمضى أيامى معهم وقد بدأت شقيقاتى يشفقن علىَّ من الوحدة والمعاناة ويقترحن على قبول فكرة الزواج خاصة وأن هناك من يرغب فى التقدم لكى أنسى التجربة المؤلمة .. فأسمع حديثهن أحيانا ولا أعلق .. وأسمعه أحيانا أخرى وأتساءل الزواج ! مرة أخرى ؟ ماذا أستطيع أن أعطى لرجل أكثر مما أعطيت لزوجى .. وماذا فعل عطائى له ؟ هل ضمن لى اخلاصه ووفاءه .. وهل حمانى من غدر الأيام .. ولماذا أكرر التجربة .. وأكرر المعاناة والعذاب ؟.

وهل صحيح أن جراح الخيانة تندمل بعد حين وأنى أستطيع أن أحيا حياة طبيعية لا أحس فيها بالمرارة تجاه كل رجل ولايساورنى فيه الشك كما أتوقع أن يكون حالى مع أى رجل إذا تزوجته ؟.

□□ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : من حقك فعلاً يا سيدتى أن تثور داخلك كل هذه التساؤلات وهذه الظنون ، فمن أعطت لزوجها مثل ما أعطيت أنت ثم فوجئت بغدره بها ، لابد أن تساورها الشكوك فى قيم الوفاء والإخلاص والأمانة وكل القيم الإنسانية . لكن هل تكفى تجاربنا المؤلمة وحدها للحكم على الطبيعة البشرية كلها ؟.

إننا نولد صفحات بيضاء ظاهرة لا تعرف غدرا ولا تضمر لأحد شرا ثم نتشكل وتتكون شخصياتنا وأخلاقياتنا بتأثير عوامل عديدة تحيط بنا ... وكل ما يتسلل إلى هذه الصفحات البيضاء من بقع سوداء إنما نكتسبه بكل أسف من معركة الحياة ومن الصراع المستمر بين مانريد وما ينبغى أن يكون لهذا فإننا لانستطيع أن نحكم على « الأنواع » وإنما نستطيع أن نحكم فقط على الأشخاص .. ولانستطيع أن نقول إن الرجل بصفة عامة غادر أو أن المرأة

بصفة عامة مارقة وإنما نستطيع فقط أن نحكم على كل شخص بتاريخه وأخلاقياته ما إذا كان أمينا أم خائنا ؟ وفيا أم جاحدا ؟ وهكذا أما مايقال فى هذا المجال من أحكام عامة عن المرأة والرجل فليس سوى آراء تتلون بنظرة قائلها وبتجاربه مع الجنس الآخر ولا سند علمى لها ولو كان كل مايقال صحيحا لصدقنا المتنبى مثلا الذى قال فى أحد أبياته :

إذا غدرت حسناء وفت بعهودها فمن عهدها ألا يدوم لها عهد !

أى أن المرأة إذا وفت بعهدها فمن باب الخطأ أو من باب الغدر ! فهل يمكن اعتبار ذلك صحيحا !.. وهل يمكن الحكم على كل الرجال بأنهم مارقون متبطرون لأن بعضا منهم خان العهد أو تبطر على النعمة ؟ أو تصرف تصرف بعض أجلاف الطبقة الجديدة الذين ما أن تجرى النقود فى أيديهم حتى ينجرفوا إلى اللهو والانحراف .. فلا يستفيد بثمار مالهم سوى حثالة المجتمع .. ولا يسهم مالهم فى ترقية الحياة أبدا . ليس كل الناس أشباها ياسيدتى .. وليس الغدر هو قانون الحياة وإنما قانون الحياة الطبيعية هو الوفاء وتحمل المسئولية واتقاء حدود الله واحترام حقوق الآخرين ولولا ذلك لانفرط عقدها منذ زمن بعيد وتحول البشر إلى خنازير هائمة لا تعرف حرمة ولاتتعفف عن شيء !.

لقد مررت بتجربة بشعة .. ومن الطبيعى أن تؤثر على نظرتك للحياة وللرجال وللأشياء لكنه من الطبيعى أيضا أن تراجعى نفسك بعد حين لتعرفى أن الحياة بريئة من أمثال هذا الشذوذ عن طبيعتها السوية .. وإننا إذا كنا سيئى الحظ فليس معنى هذا أننا لن نجد حظنا العادل من السعادة والوفاء مع آخرين ، وإن علينا فقط ان نتعلم من تجاربنا وألا يفقدنا ما لقيناه فيها ثقتنا

بالحياة ولا براءة المشاعر فنعجز عن تلمس الخير فى الآخرين أو اكتشافه والتعامل معه .

لقد اخترت زوجك الأول بمقياس العاطفة وحدها ،، أو بمقياس القبول النفسي وخفقة القلب الأولى ولا شك أن عامل القبول النفسى هو الأساس فى أية علاقة زواج لأنه يفتح الباب لتسلل المشاعر ونمو العاطفة لكنه وحده لا يكفى لضمان السعادة وحماية البناء من الانهيار ولابد من استشارة العقل بعد ذلك لكى نتجنب المزالق والعثرات بقدر الإمكان .

أنت تسألينى هل تستطيعين تكرار التجربة مرة أخرى ؟.

وأنا أقول لك : إنك فى مثل ظروفك أمام خيارين هما أن تعيشى لأبنائك وعلى ذكريات الأيام الجميلة التى سبقت النهاية البشعة وإما أن تتفتحى للحياة من جديد وتنسى التجربة المؤلمة .. وتتلمسى السلوى فى تجربة جديدة يتعاون فيها القلب والعقل على اختيار الآخر خاصة فى ظروفك الحالية ومسئوليتك عن ثلاثة أطفال أبرياء لا ذنب لهم فيما جرى ولابد من توفير أفضل الظروف لرعايتهم وتنشئتهم وهذه أمور لايكفى فيها الاعتماد على العاطفة وحدها وفى أغلب ظنى أنك لن تستطيعى مع الوحدة صبرا إذ ليست كل النساء قادرات عليها ولا كل الرجال لأنها بلاء لايقدر عليه إلا أولو العزم ممن امتحنتهم الحياة بشدائدها فرضوا بها ورضيت بهم وأنت فيما أتصور شخصية حالمة .. تحلم لنفسها بحياة سعيدة وبأشياء كثيرة ومثيلاتك يصعب عليهن تحمل الوحدة أو تكريس العمر لرعاية الأطفال فاقدمى على التجربة ياسيدتى فهى حقك المشروع .. وعزاؤك عما لقيت من غدر الأيام فإذا كانت الدنيا قد اهدرت الحلم فى تجربتك الأولى . فلعل الله يحققه فى ظروف أكثر أمانا ودواما واستقرارا إن شاء الله .

فـــوق الســطـــح

أنا يا سيدى رجل فى منتصف العمر بدأت رحلتى فى الحياة فى أسرة صغيرة يرعاها أب موظف بالحكومة لايملك سوى مرتبه وخلقه ودينه .. فربانا أنا وإخوتى على الاستقامة وحب الناس والخير والأمانة ، وأثمرت تربيته الجادة لنا فتخرجنا جميعا من الجامعات وشق كل إنسان منا طريقه فى الحياة ، وتخرجت أنا وتوظفت فى القاهرة وابتعدت عن أسرتى لأول مرة فى حياتى وفى هذه الفترة توفى أبى رحمه الله وتركنا وقد أدى واجبه نحونا خير أداء فى حدود إمكاناته البسيطة ، وبقى علينا نحن أن نواجه الحياة بما تعلمناه منه .

كنت فى الثانية والعشرين .. أسكن فى شقة من غرفتين بالدور الأرضى من بيت متهالك بأحد الأحياء الشعبية .

أثثت غرفة واحدة منها بسرير ودولاب وكرسى ووضعت فى الصالة مائدة صغيرة وكرسيين وفى المطبخ بعض الأدوات الضرورية وأغلقت الغرفة الأخرى الخالية .. لعدم حاجتى إليها ولعدم قدرتى على تأثيثها وكانت هذه الشقة وهذا الأثاث المتواضع هما آخر ما حققه لى أبى قبل الرحيل عن طريق استبدال جزء من معاشه ، وبعد وفاته واجهت الحياة وحدى فوزعت مرتبى الصغير على مطالب حياتى البسيطة .. جزء للايجار والباقى للمواصلات والطعام .. وكانت وظيفتى تدر على بعض المكافآت السنوية البسيطة فكنت أعتمد عليها فى شراء

الملابس الضرورية .. مع ذلك فقد كنت راضيا عن حياتى وسعيدا رغم أن المستقبل لاح أمام عينى صعبا .. فلا أمل فى زواج قريب .. ولا أمل فى مسكن لائق يرى الشمس .. ولا أمل فى وجاهة اجتماعية تساعد على تحقيق التقدم فى الوظيفة .. خاصة أنها كانت وظيفة ذات بريق يتقدم فيها من يملكون الإمكانات المادية .. ويتعثر فيها أمثالى ممن لاسند لهم فى الحياة ولاظهير .. ولا إمكانات .

ومع ذلك فلقد مضت الحياة بخيرها وشرها وحفظت عهدى لأبى أن أكون فى عملى مثالا للأمانة وللضمير الحى كما عاش هو حياته فعاش راضيا عن نفسه رغم أن زملاءه قد سبقوه فى سلم الترقى بسبب الأساليب الجانبية التى كان يرفضها ويغرس فينا كرهها والابتعاد عنها .

وكنت فعلا أمينا فى عملى رغم إغراءات الانحراف الكثيرة فيه ، ولم ألق بالا لبعض زملاء السوء الذين تندروا على بأن أمثالى لن يطفوا أبدا فوق السطح وسيظلون إلى آخر العمر فى قاع المجتمع .

إذ كنت لا أتكسب من عملى كما يفعلون .. وأعيش حياة متقشفة فى حين يعيشون هم حياة ميسورة لاتتناسب مع أوضاعهم .. ومع ذلك كنت راضيا بحياتى ونصيبى من الدنيا .. وكان يرضينى كثيرا أن رؤسائى فى العمل كانوا إذا واجهوا أمرا يتطلب تنفيذه شخصا أمينا .. كانوا يختاروننى « من بين هؤلاء الزملاء » ثقة فى خلقى وأمانتى .

وذات يوم كلفت بمهمة من هذا النوع .. وآسف لأنى أتعمد عدم ذكر التفاصيل لكيلا يعرفنى أصدقائى ، وكانت مهمة شاقة تتطلب بحثا ودراسة وفصلا فى أمر يتنازعه طرفان مختلفان ، فأقبلت على أداء هذه المهمة بإخلاص .. وبعد ٣ أسابيع من العمل المضنى والدراسة حاول خلالها أحد

طرفى النزاع استمالنى إلى جانبه فصدمته برفضى ، وقدمت تقريرى بما رأيته بضميرى أنه الحق والعدل ، وأخذ رؤسائى بتقريرى وعملوا به ، وانتهى الأمر بالنسبة لى .

وبعد ذلك بـ ١٠ أيام كنت جالسا فى مكتبى صباح أحد الأيام أقرأ صحيفة الصباح وأشرب القهوة وأتبادل الكلام مع الزميلين اللذين يقاسماننى نفس الغرفة .. حين دخلت المكتب سيدة ترتدى السواد وذات جمال هادئ ووقار وسألت : أين الأستاذ فلان ؟ فأشار لها زميل إلى فتقدمت إلى فى ثقة ومدت يدها لتصافحنى بحرارة فصافحتها مندهشا ودعوتها للجلوس ونظرت إليها مستطلعا .. فقالت لى إنها جاءت إلى لترى أولا هذا الشخص الذى راعى الله فى عمله ولم يقبل أن يحيد عن الحق رغم المغريات وثانيا لتشكرنى إذ أنصفتها وهى الضعيفة من الأقوياء الذين أرادوا اغتصاب حقوقها .

فلم أفهم شيئا .. وقلت لها من أنت ياسيدتى ؟ فقدمت نفسها لى فإذا بها الطرف المظلوم فى النزاع الذى انتصرت له بغير أن أعرفه ورغم أنى لم أفعل شيئا سوى أداء واجبى .. فلقد أحسست بالرضا عن نفسى أن ساهمت فى إنصاف هذه السيدة .. بل وأسعدتنى كلماتها عنى وتأثرت بظروفها التى روتها لى ، إذ كانت أرملة وحيدة ينازعها أهل زوجها الراحل فى بعض عرض الدنيا الزائل .

وتبادلنا كلمات المجاملة المألوفة وحين استأذنتنى فى أن تستشيرنى بين حين وآخر فيما يواجهها من متاعب .. شجعتها على ذلك بكل ترحيب ، وانصرفت وبالفعل .. لم تمض سوى أيام حتى اتصلت بى تطلب مشورتى فى شىء فأشرت عليها بما رأيته ..

ثم اتصلت بى بعد أسبوعين مرة أخرى تستأذننى فى الحضور إلىّ لأمر آخر

فرحبت بها وجاءت مرة ومرات .

ولا أطيل عليك فبعد عدة زيارات كانت قد نشأت بيننا علاقة متينة من الثقة والاحترام المتبادل .. بل والاحتياج المتبادل أيضا فلقد كنت شابا فى الخامسة والعشرين من عمرى أعيش وحيدا بلا أهل ولا أصدقاء وكانت هى أرملة فى الثامنة والعشرين من عمرها تعيش وحيدة بلا أبناء ولا أنصار فيما تواجهه من متاعب كثيرة .

وكانت ذات وقار فلم نتبادل أبدا كلمات الحب .. لكن كل شىء كان واضحا لكل ذى عينين ، وحين لمحت إلى باحتياجها إلى .. لم اتردد فى أن أصرح لها أنا أيضا باحتياجى لها ، لكن ظروفى لاتسمح لى بالاقتران بها إذ لا امكانات مادية على الإطلاق .. ولا أمل فى توفير متطلبات الزواج قبل عدة سنوات ، فهزت رأسها فى حزن وقالت كلمة لم أنسها أبدا حتى الآن : ولماذا العذاب مادام الله قد يسر لنا الطريق ؟.

وفهمت ما تريد قوله .. كانت تقول ولماذا الانتظار إذا كانت إمكاناتها المادية كفيلة بتحقيق أمانينا الآن ؟ وترددت فى قبول الفكرة وطلبت مهلة للتفكير .. انقطعت هى بكبريائها عن الاتصال بى خلالها وبعد المهلة اتصلت بى ودعتنى لزيارتها فى بيتها لتقدم لى بعض أقاربها ، وذهبت إليها وكانت المرة الأولى التى أدخل فيها شقتها فقوبلت بترحيب كبير من أهلها .. وبدت هى سعيدة وكأنها حصلت على موافقتى على الزواج بمجرد قبولى زيارتها .. وكان ذلك صحيحا إذ ما معنى أن أذهب لزيارتها لو لم أكن قد وافقت داخليا على الزواج ولم تمض أسابيع أخرى حتى كان الزواج قد تم .. وانتقلت إلى عش الزوجية فى شقتها وبدأنا حياتنا الزوجية الجديدة ، وحرصت زوجتى منذ البداية على إشعارى بأنى رجل البيت وحاميها وأملها فراعت دائما مشاعرى من

هذه الناحية ، وحرصت أنا من جانبي على أن أعطيها كل مرتبي فلا احتفظ منه إلا بخمسة جنيهات للمواصلات والقهوة والشاى فى العمل .

ومضت حياتنا سعيدة وقد كشفت لى العشرة عن الكثير من سمات شخصيتها .. فقد كانت محرومة من الإنجاب ولم تخف ذلك عنى قبل الزواج ولم أهتم به . وكانت وحيدة أحس برغبتها فى أن تجعل منى زوجا وابنا لها ..

وبعد عامين من الزواج أرادت أن تشترى سيارة صغيرة لأذهب بها إلى عملى بحجة أن مركزى يفرض على ذلك فرفضت بإصرار .. ورفضت دائما أن أقبل منها أية هدية لاتسمح لى إمكاناتى بأن أرد لها مثلها .

وكانت تغضب وتبكى .. وتقول لى إن رفضى لذلك يعنى أننى لا أنظر إليها كشريكة عمر ، وانه يشعرها بعدم الأمان معى .. فكنت استرضيها وأؤكد لها أن مصيرى قد ارتبط بها إلى آخر العمر .. وأنى لا أقبل إلا ما تسمح به إمكاناتى كرجل . وكنت صادقا فى ذلك .. إذ كنت أقول لنفسى أحيانا ألا يكفى أنها تنفق على البيت وعلى ملابسها أضعاف ما أعطيه لها من مرتبى وهكذا مضت سنوات حياتنا الأولى بلا مشاكل تذكر ..

وقد وفرت لى زوجتى الاستقرار العاطفى والاجتماعى مما أغرانى بمواصلة الدراسة التى توقفت عنها بعد التخرج .. وبالفعل عدت إلى الدراسات العليا وذاكرت ونجحت .. وحصلت على بعثة قصيرة لمدة عام لجمع مادة علمية من جامعة فرنسية فسافرت إلى فرنسا ..وكادت هى تجن عند سفرى .. وودعتنى باكية وودعتها حزينا ، وكنت أظن أنى سأستطيع الحياة وحدى فى البعثة فلم احتملها وأسرعت أدعوها للحضور فجاءت إلى طائرة على جناح الشوق وأقامت معى فى المدينة الجامعية فى غرفة لاتزيد على مترين فى مترين

بها زاوية صغيرة للمطبخ ، وشبه خالية من الأثاث إلا من سرير صغير ومكتب ومع ذلك احتملت جفاف الحياة فى بيت للطلبة بعيدا عن المدينة وكانت سعيدة .. وكنت أيضا سعيدا .. بل وارتحت إلى وجودها جانبى ومر عام البعثة طويلا كأنه دهر وراحت هناك ترعانى كما ترعانى فى القاهرة وتسهر معى حين أسهر للمذاكرة ، ثم انتهت البعثة وعدنا إلى مصر وقد استقر فى ضميرى أنى لا أستطيع الحياة بعيدا عن هذه السيدة ..

ومضت السنوات هادئة وقد تقدمت فى عملى وتحسنت أحوالى المادية كثيرا بعد أن انتدبت للعمل فى فرع إحدى الهيئات الدولية بالقاهرة .. وأصبحت قادرا على شراء سيارة من مالى فاشتريتها وماكدت اشتريها حتى تحررت هى مما فرضته على نفسها فاشترت لنفسها سيارة لتسافر بها إلى البلدة التى تقع بها أرضها كل شهر مرة .. وانتهت المتاعب والحساسيات .. واطمأنت زوجتى من هذه الناحية .. فراحت تهديبى فى المناسبات هدايا فاخرة فأردها إليها فى مناسباتها بهدايا لا تقل عنها .

وقد تقدمت بنا سنوات العمر فبلغت الأربعين منذ عامين وبلغت هى الرابعة والأربعين . وبدأت تستسلم للزمن .. وكان مفروضا أن تمضى حياتنا فى سعادة أبدية لولا أننى توقفت ذات يوم حين بلغت سن الأربعين وهى مناسبة مريرة لكل من عرفها لأراجع نفسى .. فإذا بى أقول لنفسى .. وماذا بعد ! لقد كافحت .. وعانيت وتكبدت الكثير من الآلام النفسية حتى أحافظ على كرامتى وحققت لنفسى الكثير مما كنت أصبو إليه .. لكن لماذا أحس دائما أن هناك شيئا ماينقصنى .. والعجيب أنى لم أفكر فى هذا الشىء الناقص إلا بعد أن بلغت الأربعين وبدأت أحس بأن العمر يسرقنى .. ولم تخف عليها خواطرى .. فراحت تسألنى فأنكر مرة .. ثم اعترف مرة فتتكدر .. ثم استرضيها

فترضى .. لكنها لاتنسى فتعود إلى سابق حالها من جديد ، وتنغصت الحياة بيننا لأول مرة .. وطال الأمر شهورا وعاما وعامين ..

وبعد عامين من الاضطراب .. لم أتوقف خلالها عن التفكير قررت أن أواجه الأمر بهدوء معها فقلت لها إنى اتذكر لك الكلمة التى كانت بداية لارتباطنا معا .. وهى لماذا العذاب وقد يسر الله لنا الطريق !.

فقالت بتحفز : وماهو الطريق !

فقلت لها هو أن نحيا كما نحيا الآن حتى نهاية العمر .. وأن تأذنى لى بقلب صاف بأن أتزوج لكى انجب طفلا ، نسعد به جميعا وتتحقق به آمالنا ففكرت لحظة ثم أعلنت قرارها .. وهو أنها لاتقبل ذلك أبدا وأنه حين أقرر أنا ذلك فإنها سوف تضع النهاية لحياتنا معا .

وانقلبت الحياة فى عشنا .. فلم تعد إلى ما كانت عليه أبدا وأصبحت الأيام تمضى كئيبة .. أنتظر أنا أن تغير رأيها .. وتنتظر هى أن أغير رأيى . وكلما جاءت سيرة هذا الموضوع تكدرت حياتنا وقد حاولت اقناعها كثيرا فتمسكت برأيها بصلابة وكبرياء ، وحزن أيضا يمزق قلبى فيجعلنى أتوقف عن الحديث .. لكن النفس الشقية لاتسلوه أبدا .. فما أن أخلو إلى نفسى حتى أفكر فيه إننى أستطيع أن أفعل ما أريد .. لكنى أتمسك بأن أفعله بغير أن أشعر بالذنب تجاهها فماذا أفعل ياسيدى أليست هذه رخصة شرعية تبيح لى الزواج أو ليس من حقى أن استخدمها بغير أن أظلم أحدا وبغير أن يحس أحد تجاهى بالمرارة ؟

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : نعم يا سيدى هى رخصة شرعية كما تقول .. لكن لماذا لا نتذكر دائما أمثال هذه الرخص إلا بعد أن تصل سفينتنا إلى بر الأمان ونحس بقدرتنا على الاستغناء عن الآخرين ؟ ولماذا لانتذكر الأشياء

الناقصة فى حياتنا إلا عندما تعطينا الدنيا من متاعها ما يسمح لنا بالبحث عنها ولو أدى ذلك إلى إفساد حياتنا وسعادتنا .

إننى لا أناقش هذه الرخصة لأنها فوق كل مناقشة .. لكنى أذكرك فقط بأن رفض الزوجة الاستمرار فى الحياة مع زوجها بعد زواجه من أخرى هو أيضا رخصة شرعية وقانونية لها .. فلماذا تريد أن تستخدم رخصتك وتأبى عليها حقها فى استخدام رخصتها إذا أرادت ذلك ؟.

إنك يا سيدى رجل أمين .. ترفض دائما مالا يقبله خلقك أو ضميرك .. ولقد تعففت عن مال زوجتك لكنك صنعت نفسك مستندا إلى ذراع هذه الزوجة المحبة التى جعلت منك زوجا وابنا ولم تشعر يوما معها بأى نقص فى حياتك .. وقد كان ذلك يكفيك رغم تطلعك المشروع للإنجاب لو أردت ذلك وقنعت بما أعطتك الأقدار .. لكنك تريد لنفسك كل شىء والدنيا لاتعطى أحدا كل شىء كما تعرف .. وأنت تريد أن تستمتع بما ستفعل بغير أن ينغص عليك سعادتك إحساسك بالذنب تجاه من اتعستها بتطلعك إلى غيرها وتنتظر منها أن تعطيك مقدما صك الغفران لكى تكتمل سعادتك وهذا صعب المنال ياسيدى مهما كانت أسبابك فما أظن أن هناك زوجة تحب زوجها وتخلص له تستطيع أن تسلم له بذلك وهى راضية فى أعماقها أبدا . لأنها بشر مثلك .. والحياة لاتستقيم لو صنع فيه كل إنسان ما يحقق له سعادته وحده على حساب سعادة الآخرين .

وفى حالتك بالذات فإنى أجزم بأن زوجتك لن يخلو قلبها من المرارة تجاهك أبدا لو أقدمت على ماتريد .. سواء قبلت الحياة معك بعده أو رفضتها ، فلماذا المتاعب ياسيدى وقد كان الظن أن نسعد بما اعطتنا الدنيا ونرضى بما اختارته لنا الأقدار .. ونتلمس السعادة فيما بين يدينا من أسبابها ؟

ومن هو ياسيدى الذى تخلو حياته نهائيا من الأشياء الناقصة مهما كان نصيبه من الدنيا ؟.

أم أن الأمر هو دائما كما يقول العقاد :

تصفو العيون إذا قلت مواردها　　والماء عند ازدياد النهر يعتكر !

أعاصير الحياة!

أنا شاب نشأت فى أسرة ثرية وعريقة ، فعشت حياة ميسورة وحصلت على الثانوية الإنجليزية من القاهرة ثم سافرت إلى الخارج للدراسة الجامعية وعدت بعد ٤ سنوات حاصلا على شهادة عالية .. وبدأت حياتى العملية ، وبعد شهور من عودتى خطر لى أن أقضى عدة أيام فى الغردقة على ساحل البحر الأحمر فسافرت إلى هناك ، مع صديق لى ، وخلال رحلة العودة فوجئت وأنا أقود السيارة بسيارة تخرج فجأة من خلف لورى قادم من الاتجاه العكسى لتصبح خلال ثانية واحدة فى مواجهة سيارتى بالضبط وأحاول تفادى الاصطدام بها فأعجز وأسمع صوت ارتطام السيارتين بعنف وأرى سيارتى تدور حول نفسها ثم تنقلب عدة مرات ونحن بداخلها ثم تستقر فوق الرمال .

وبعد وقت لا أدرى كنهه فتحت عينى فوجدت نفسى فى المستشفى ورأيت أشباحا تتخايل أمامى ولا أستطيع تمييزها .... فأشعر بالرغبة فى أن أسأل عما جرى فأجد صوتى غير قادر على الخروج وأحاول أن أشير بيدى ، فلا أجد سوى يد واحدة فأتحسس بها عينى فأجد واحدة مضمدة تماما فأدور بعينى الأخرى فيمن حولى فأجد أبى وأمى وأقاربى والجميع يبكون فتطوف عينى بباقى المكان لتستقر بعد قليل على قدمى فأجد أيضًا أنى فقدت إحداهما ...

وتتحجر عيني وأشعر بالرغبة فى البكاء فلا أستطيع .. وأسمع كلمات كثيرة فلا أعى منها شيئًا .

وبعد أسبوعين خرجت من المستشفى .. وصحبنى أبى وأمى إلى الخارج لاستكمال العلاج وبعد رحلة طويلة لا داعى لكل تفاصيلها المؤلمة .. انتهى الأمر بى إلى تركيب ساق صناعية أما الذراع الصناعية فلقد وجدتها شيئا ميتا لا حياة فيه ولا فائدة عملية له سوى إظهار الشخص وكأن له ذراعين ، لذلك فقد رفضتها بلا تردد وعدت إلى بلادى وأصبحت قادرا على المشى بصورة شبه طبيعية واشتريت سيارة واستطعت بعد وقت قصير أن أقودها ببساطة أذهلت أهلى وأسعدتهم .

وبعد قليل سافرت مرة أخرى إلى إحدى دول أوربا واستبدلت الساق الأولى بساق صناعية أخرى متقدمة جدا سعدت بها للغاية بسبب امكانياتها الواسعة وعرضوا على هناك تصميم ذراع متطورة لى فرفضت ما دامت لن تفيدنى فى وظائف الذراع . وعدت إلى مصر وروضت نفسى على قبول الأمر الواقع .. ودربت نفسى خلال عامين على الكتابة باليد اليسرى وأصبحت أكتب بها كما كنت أكتب تقريبا باليد اليمنى المفقودة ، وأقبلت على العمل ووسعت نشاطى فيه ، وبدا كأنى قد اجتزت الأزمة نهائيا لكن هذا كان تطورا خادعا فيما يبدو لأن حالتى النفسية ساءت فجأة وبلا مقدمات وألح على أبى بقبول العلاج النفسى وقبلت فشخص الأطباء حالتى أنها اكتئاب مزمن ولم يستطع العلاج ولا الأهل ولا الأصدقاء أن يخرجونى من حالة الاكتئاب هذه فعشت فترة طويلة لا أفعل شيئا سوى أن أجلس على مقعدى المفضل أحملق فى التليفزيون بمجرد استيقاظى من النوم وحتى يجىء النوم مرة أخرى . بلا وعى فلا أتكلم إلا للضرورة القصوى وأرفض استقبال أصدقائى فهل تتخيل

يا سيدى كم استغرقت هذه الحالة ؟ ثلاث سنوات كاملة وأنا على هذه الحال اشتد على فيها الاكتئاب ففقدت ثقتى بالله ـ استغفر الله ـ ولعنت الدنيا ومن عليها .. وأصبحت اسال لماذا فعل الله بى هذا وتطورت الحالة فأصبحت عدوانيا .. وعجز أهلى وأصدقائى عن التصرف معى .. وفجأة سيطرت على فكرة الانتحار فحاولته ٣ مرات بثلاث طرق مختلفة فلم أنجح وأدخلنى الأطباء مصحة نفسية لخطورة حالتى وخرجت منها بعد شهور وقد تحسنت نسبيا لكنى لازمت البيت لا أفعل شيئا سوى الحملقة فى التليفزيون لمدة سنة أخرى كانت تتخللها بعض زيارات الأصدقاء الذين يئسوا تماما من شفائى .

وذات يوم جاءنى بعض الأصدقاء فوجدونى منشرحا لأول مرة منذ سنوات فسعدوا بذلك جدا وسألونى عن سبب إنشراحى .. فترددت قليلا ثم قلت لهم إنى أشعر بتحسن كبير لا أعرف سببه .. لكن هناك شيئا آخر حدث هو أنى رأيت فى الحلم أمس الرسول الكريم سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام فهتف أحد الأصدقاء من رأى سيد الخلق فقد رآه حقيقة لأن الشيطان لا يتمثل به وهناك حديث شريف بهذا المعنى .

واستبشرت خيرا وتحسنت حالتى كثيرا .. وبعد شهرين جاءنى أصدقائى فصارحتهم أنى رأيته صلى الله عليه وسلم مرة أخرى أمس وانهمرت دموعى لمدة ساعة كاملة استغفرت خلالها ربى كثيرا وندمت عما ساورنى من أفكار وظنون ، وشعرت كأن حجرا قد انزاح من فوق صدرى واستعدت صحتى النفسية مرة أخرى وأكد لى الطبيب أن ما حدث هو معجزة لا علاقة للأدوية بها !.

وعدت كما كنت شابا مقبلا على الحياة وأصبحت أمارس أعمالى من جديد باهتمام ونشاط وبعد أن كنت أتذكر الحادث المؤلم بمرارة شديدة أصبحت

أتذكره وأذكره كأى مشهد عادى من مشاهد حياتى بل وأسخر منه أحيانا وأضحك حتى أنه حدث ذات مرة أن سألنى بائع كنت أشترى منه شيئا مشيرا إلى ذراعى المفقودة : حادثة ؟ فرددت عليه مبتسما .. لا .. عملية تجميل !.

وعدت للتردد على النادى والجلوس مع أصدقاء الطفولة .. وهناك التقيت بها فتاة ملائكية جميلة من أسرة طيبة عريقة وثرية .. وكأننى كنت أنتظرها طوال هذه السنوات ومع ذلك فلم يكن حبا من أول نظرة ولا من عاشر نظرة وإنما حب قديم ينضج على نار هادئة من جانبها ومن جانبى حتى إذا وصلنا إلى الدرجة التى لا يمكن بعدها الصبر ، قررنا أن نتوج حبنا بالارتباط وهى تعرف تماما ماذا يعنى هذا القرار بالنسبة لها من متاعب .

وفى بيتها واجهت فتاتى الملائكية العاصفة وحدها من أمها الأجنبية أما أبوها المصرى المثقف العطوف فلقد كان أكثر تفهما للموقف وأكثر تقديرا لمشاعرها العاطفية فراح يحاورها ليتأكد من صدق مشاعرها ومن أنها ليست مشاعر عابرة ولا هى شعور بالعطف وراح يناقشها ليتأكد من فهمها الصحيح لمعنى الحياة الزوجية والمشاركة وتقاسم أفراح الحياة وأحزانها حتى إذا اطمأن إليها دعانى لمقابلته فذهبت إليه وأنا أفكر فيما سيقوله لى وجلست انتظره فى الصالون حتى دخل فوجف قلبى ، لكنه ناقشنى مناقشة قصيرة كان حريصا خلالها على عدم جرح مشاعرى ثم سكت لحظة قبل أن يبتسم ابتسامة تعلقت بها أنفاسى ثم يقول مبارك باذن الله ويمد إلى يده ويقرأ معى الفاتحة !.

وكانت مفاجأة سعيدة للجميع ، وتمت الخطوبة والزواج ، وعرفت السعادة الحقيقية لأول مرة فى حياتى منذ وقع الحادث إياه .. وزفت حبيبتى إلى البشرى بعد شهور بأنها حامل فحلقت فى سماوات السعادة ، واستمرت حياتنا كلها أنشودة من الحب والأمل والسعادة وأصبحت زوجتى فى منتصف

الشهر التاسع وحجزنا فى أكبر مستشفى للولادة وخرجنا ذات يوم لنشترى بعض لوازم البيت أما لوازم المولود ،فقد اشتريناها منذ زمن ولم أجد مكانا خاليا لأنتظار سيارتى أمام المحل الذى أريده فنصحتنى زوجتى بالوقوف « صف ثان » والإسراع بإحضار الأشياء ودخلت المحل .. ونزلت زوجتى تفتح حقيبة السيارة الخلفية استعدادا لوضع المشتريات .. فإذا بسيارة مسرعة يقودها شاب صغير تتخطى السيارة التى أمامها فيفاجأ بسيارتى الواقفة «صف ثان» فيضغط على الفرامل بشدة ليوقفها فلا يستطيع وتسمع حبيبتى صوت الفرامل العنيفة وهى منحنية على حقيبة السيارة فتستدير لترى ما يحدث فتفاجأ بالسيارة المندفعة نحوها أما أنا فقد سمعت أصوات صراخ مجنونة من المارة وصوت الفرامل وأنا داخل المحل فخرجت لأرى ما حدث فوجدت حلقة من الناس حول سيارتى فاخترقتها بلهفة لأطمئن على زوجتى فلم أجدها داخل السيارة فعدت أخترق الزحام مرة أخرى أبحث عنها فإذا بى أجدها يا الهى .. يا الهى مسحوقة بين السيارتين .. وقد تدافع الناس يدفعون سيارتى للأمام ليخلصوها فما أن تحركت السيارة حتى تهاوت على الأرض .. و .. و .. ومدت ذراعيها ناحيتى فاحتضنتها وانتهى كل شىء وطفلها وطفلى أكاد أراه بارزا يشهد على حبنا وعلى مأساتنا .. وعلى عذابى الذى لا نهاية له .

ورفضت أن أشهد الوداع .. أو أتلقى العزاء .. ولم تنزل من عينى دمعة حتى الآن رغم مرور بضعة شهور على هذا اليوم الكئيب لكن لم تعاودنى حالة الاكتئاب ولم أعد إلى الجلوس أمام التليفزيون ٢٠ ساعة كل يوم وإنما أمضى فى الدنيا أحمل عذابى داخلى وأتحرك به فى كل مكان .. أريد أن أسأل « لماذا » فيردنى دينى وإيمانى عن السؤال بعد أن سألت مرة نفس السؤال ففقدت نفسى ٤ سنوات طوال ولم يعدها إلى سوى عودة إيمانى .

أريد أن تنشر رسالتى هذه رغم آلامها لكى يعرف بعض المعذبين الذين يشكون لك همومهم أنهم ليسوا فى الحياة ولكى يعرف بعض من يشكون لك الهموم الصغيرة أن هناك من هم أشد منهم عذابا فيرضون عن حياتهم وحالهم ويعرفون أن بعض ما يشكون منه يعتبر لهوا وعبثا إلى جانب آلام الحياة الحقيقية وأريد أيضا بعد ذلك أن أجد لديك كلمة أو حلا لا تستخدم فيه كلمة الصبر ولا تنصحنى به لأننى صاغر ولست صابرا فهل لديك هذه الكلمة أو هذا الحل ! وهل لدى أحدكم مثل هذه الكلمة ؟.

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : لا تسل يا صديقى عما لا حيلة فيه ولا قدرة لنا على دفعه ولا تسل عما يقف أمامه العالم والجاهل سواء عاجزين عن التفسير إلا بشىء واحد فقط هو التسليم بقضاء الله وقدره وهو من أركان الإيمان . إن العقل القوى هو الذى يعرف حدود قدرته فلا يتجاوزها إلى ما لا طاقة له به فتتكسر أشرعته وتتلاعب به الأمواج فى بحار الظلمات . ولقد خبرت أنت نفسك ذلك حين تساءلت فى محنتك الأولى « لماذا » ورفضت قبول الأمر الواقع والرضا به فدفعت الثمن غاليا من سلامك النفسى ومن صحتك وتجرعت آلاما فاقت فى شدتها آلام الجراحة التى تعرضت لها .

إن علينا دائما يا صديقى أن نعد أنفسنا لتقبل الحقيقة لأن التسليم بما حدث مهما كان صعبا هو الخطوة الأولى للتغلب على المصاعب والآلام ولأن رفضنا الداخلى التسليم ببعض ما تحمله إلينا أمواج الحياة يهدر قدراتنا النفسية والعصبية والصحية بلا طائل ، فهذا الرفض يسجننا داخل دائرة التساؤل الأخرس لماذا حدث فلا نجد جوابا مرضيا .. ولا نكف عن المعاناة ولا نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام أما التساؤل الصحيح فى مثل هذه الظروف فهو ماذا أفعل بعد أن حدث ما حدث لأنه يمكن أن يثمر فعلا حركة على طريق الشفاء

وتحمل الآلام وأنت يا سيدى قد استغرقت ٥ سنوات من قبل لكى تسلم نفسيا بما جرى لك فى محنتك الأولى ، وحين سلمت بها انتهت الآلام وسخرت من المتاعب وتفتحت مسامك للحياة من جديد ووضعت الدنيا فى طريقك هذا الملاك البرىء الذى لم يكمل بكل أسف مشوار الحياة معك ولو شاءت الأقدار غير ذلك لكانت لك نعم الرفيق والشريك فلا تكرر التجربة الأليمة ولا تهدر المزيد من سنوات العمر.. وأنت أحق الناس بالتماس السلوى وطلب العزاء ولابد من أن تتفتح مسامك للحياة من جديد وأن تنظر حولك لترى بعض ما عوضتك الدنيا به عن قسوتها عليك ، ولا تفقد الأمل أبدا فى حقك العادل من السعادة فإن كانت شمسها ولت بهذا الحادث المؤلم فإن غدا لناظره قريب .. ولسوف تشرق شمس سعادتك مرة أخرى بعد حين .

الأظافر الطويلة

أنا سيدة عمرى ٣٤ عاما ، منذ ١٠ سنوات تعرفت على مهندس شاب كان يقطن إلى جوارنا وتقدم لخطبتى ، وخلال شهور قليلة عقدنا القران وتم زفافى إليه فى شقته التى كان يعيش فيها مع أمه ورحبت بذلك لأنى وجدت فيه شابا ممتازا وزوجا حنونا ولم أشعر بأى ضيق لوجود أمه معنا بل سعدت بها ووجدت فيها أمًّا بديلة لى وأنا من حرمت من أمى فى سنوات طفولتى .. ثم من أبى فى صباى .

وكنت فى ذلك الوقت أعمل موظفة إدارية صغيرة فى إحدى الشركات فعرض على زوجى أن استقيل لاتفرغ لبيتى لأن مرتبى من الوظيفة ضئيل وتستهلك المواصلات معظمه ، فلم أعارض فى ذلك ولم التفت إلى نصائح شقيقى الذى حذرنى من ترك العمل كضمان للمستقبل .

وبعد عام واحد من الزواج أنجبت طفلى الأول وشغلت برعايته فلم أشعر بأى فراغ بعد ترك العمل ، وسعد زوجى بذلك واطمأن فتفرغ لعمله وحقق فيه تقدما وتمت ترقيته إلى وظيفة أعلى وجاءنى ليقول لى ، إن قدمى عليه كانت سعيدة فمنذ تزوجنى وهو يتقدم فى عمله وسعدت بسعادته .

ثم بعد عام آخر جاء يعرض على فكرة السفر إلى إحدى الدول العربية التى تلقى منها عرضا للعمل هناك ووجدت نفسى رغم عدم ميلى للسفر أشجعه

وأؤكد له أننى سأصحبه إلى أى مكان لكى يحقق طموحه وأحلامه ، وكانت أحلامه التى كثيرا ما حدثنى عنها هى أن يبدأ عملا حرا بعيدا عن قيود الوظيفة وأن يجمع المال الكافى لذلك ، فسافرنا معا من اليوم الأول .. ورفضت أن يسبقنى ليهيئ لى الإقامة هناك كما يفعل الكثيرون عند السفر للعمل فى الخارج ..

وكان مقر عمله فى منطقة صحراوية نائية لا تتمتع بالخدمات الحديثة الموجودة فى المدن الكبرى ورغم ذلك لم أتراجع وأقمنا أسابيع فى كشك خشبى فى موقع العمل ، كان قيظ الظهيرة فيه رهيبا حتى تم إعداد مسكن آخر فى بيت شعبى من دور واحد ..

وبدأ زوجى عمله وتفانى فيه كعادته فأصبح يخرج فى السادسة صباحا ثم يعود فى الثانية عشرة ظهرا ليتناول الغداء معى ويستريح لمدة ساعة ثم يعود للعمل حتى الخامسة أو السادسة من مساء كل يوم .. وفى هذا البيت الريفى الصغير الذى لم تكن تتوافر فيه إمكانات الحياة ولا الرفاهية التى يتصورها البعض عن العمل فى الخارج عشت أجمل أيام حياتى مع زوجى .. وتعلمت أن أخرج كل صباح وأمشى تحت لهيب الشمس إلى السوق الهندية على بعد كيلو مترا لأشترى الخضار والفاكهة وأعود لأطهو الطعام وأنتظر زوجى أما فى المساء فلم تكن لنا تسلية سوى التليفزيون لأن الرطوبة الخانقة كانت تمنعنا من الخروج أو الزيارات فى كثير من الأحوال .

وعشنا سنوات جميلة أنجبت خلالها ابنتى الثانية ثم ابنى الثالث ولم نغادر بيتنا الصحراوى ولم نعد إلى مصر وحين انتهت سنوات الإجازة بدون مرتب التى حصل عليها زوجى من عمله الحكومى فى مصر وطالبوه بالعودة سألنى عن رأيى فتركت له الخيار فى أن يفعل ما يريد . لكنى قلت له أنه ما دام

سيستقيل من عمله فى النهاية لينشئ لنفسه عمله الخاص فإن الأمر لن يختلف سواء استقال الآن أو بعد قليل فلم يتردد وبعث باستقالته من عمله ..

وعشنا عامين آخرين انتهى بعدهما المشروع الذى يعمل به زوجى ولم يفكر فى البحث عن عمل آخر .. فعدنا إلى مصر ومعنا مدخراتنا ليبدأ عمله الخاص وبعد بحث قصير وفق زوجى فى شراء بيت صغير من دورين فى إحدى مناطق القاهرة الجديدة وقرر أن ينشئ سوبر ماركت فى الدور الأرضى منه وأن نقطن الدور الأول ونترك الدور الثانى للمستقبل ، وألحقت أولادى بالمدرسة وتفرغت لإعداد الدور الأرضى والاشراف على النجارين والنقاشين وتفرغ هو لشراء البضائع حتى تم افتتاح السوبر ماركت خلال وقت قصير واستقرت حياتنا من جديد وبدأت أحس أنى قد ملكت الدنيا بيدى فزوجى فى عمله على بعد أمتار منى وأبنائى ينزلون ويصعدون بينى وبينه والعمل ناجح ويبشر بالخير لأنه فى منطقة شبه خالية من المحلات وكلما وجدت نفسى خالية من أعمال البيت نزلت إلى المحل وحللت محل زوجى على الكيس إذا احتاج زوجى للذهاب إلى أى مكان .

وبعد سنة أخرى توسع العمل ولم يعد العامل الوحيد بالمحل قادرا عليه فقرر زوجى أن يطلب موظفة لمساعدته ونشر إعلانا من ٣ سطور فى الأهرام جاءته بعده عدة فتيات رفضن العمل لبعده عن مساكنهن واستاء زوجى لذلك فهونت عليه الأمر بأن يعتبرنى هذه الموظفة المطلوبة لأنى سأعمل ٦ ساعات كل يوم بالمحل والتزمت بذلك واطمأن هو حتى كان صباح أحد الأيام حين دخلت السوبر ماركت فتاة تحمل فى يدها قصاصة الإعلان وتطلب العمل .. وسألها زوجى عما أخرها عن الحضور بعد النشر فقالت إنها لم تطلع عليه فى حينه لكنها اشترت شيئا ملفوفا فى ورقة الصحيفة فقرأته بالمصادفة

وقررت أن تأتى لتجرب حظها وهى لا تتوقع أن يكون العمل منتظرا إلا بنسبة أمل ضعيفة جدا .

وسألنى زوجى عن رأيى فأسررت إليه بأنى لم أرتح لها لأن ماكياجها زاعق ولأنها شديدة العناية بنفسها وبأظافرها الطويلة الملونة ولأنها لا تبدو على استعداد لتحمل شقاء العمل لكن زوجى رأى أن يجربها ولم اعترض .

وبدأت العمل واكتشفت بعد قليل أنها متزوجة وليست على وفاق مع زوجها وأنها خرجت للعمل بعد انفصالها عنه وعودتها إلى بيت أسرتها فى انتظار الطلاق ، وأحسست بشىء من التعاطف معها وعاملها زوجى بصبر وبدأ يعلمها إمساك الدفاتر والحسابات ويكلفها ببعض المهام التجارية ثم اصطحبها فى سيارته ليعرفها بعملائه لتكون مندوبته عندهم .. وبعد قليل حصلت هى على الطلاق بلا نفقة بعد تنازلها عن كل شىء فقرر زوجى مضاعفة مرتبها لكيلا تترك العمل واستمرت عدة شهور أخرى لاحظت خلالها أن زوجى يتركنى فى المحل كثيرا ويصطحبها معه فى سيارته للذهاب إلى الشركات التى يتعامل معها .. وبدأ الشك يؤرق صدرى وأنا أراها تزداد عناية بملابسها وبنفسها .. وبما لا يتناسب مع مرتبها وهو موردها الوحيد .. واشتدت بى الهواجس وأمضيت ليلة مسهدة لم أستطع النوم فيها دقيقة واحدة وعندما فتح زوجى عينيه فى الصباح بعد نوم هادئ سعيد وقال لى : صباح الخير فاجأته بقولى : أريد أن تترك فلانة العمل عندنا ! وعلى عكس ما توقعت لم يفاجأ زوجى بالطلب .. وإنما طلب منى أن نفكر بهدوء ! وبهدوء غريب راح يقول لى : إنها الآن عمود أساسى للعمل فى الشركة وأنها نشيطة وقد أنهت له أعمالا صعبة وكسب من ورائها كثيرا وأنه سيتوسع فى نشاطه ويفتح فرعا آخر وسيعتمد عليها فى إدارته أما مخاوفى منها فلا مبرر لها ورغم

عدم اقتناعى الكامل بما قال إلا أنى لم أستطع أن أقنعه بما أريد ، ولاحظت أنه قد كف بعدها عن اصطحابها فى سيارته إلى المهام التجارية لكن خروجه وحده ليلا قد ازداد .

وبعد عدة أسابيع عذبنى الشك مرة أخرى فصارحته بشكوكى فألقى على بمفاجأة عمرى إذ قال لى ببساطة أنه تزوجها منذ أيام مبررا ذلك بأن هذا هو أمر الله ! وأن الوضع لن يختلف وأن هذا أفضل من الخطأ .. وأن .... وأن ... فصرخت من أعماق لأول مرة منذ تزوجته وانفجرت فى البكاء والعويل حتى فزع أبنائى وجاءوا باكين صارخين .. فكففت عن الكلام وانتهز هو الفرصة وخرج من البيت وأسرعت أبعد أبنائى إلى غرفتهم وعدت لغرفتى وأنا أتساقط إعياء وأمضيت اليوم فى غرفتى كالمجنونة أتجول فيها ذهابا وإيابا ، وأقف أمام المرآة وأسأل نفسى : ماذا بى يا ربى لكى يتزوج من أخرى أنى جميلة ومحجبة ولا أضع المساحيق ولا أطيل أظافرى ولا ألونها لأنى أعمل بيدى فى البيت ومعه فى كل شىء وقد شاركته كل المسئوليات وتحملت جفاف الحياة معه قبل السفر وتحملت الحياة لمدة ٦ سنوات فى هجير الصحراء ! ! فلماذا يغدر بى هل كان لزاما على لكى أحتفظ بزوجى أن أتفرغ لاطالة أظافرى والعناية بها وأن أضع الماكياج الصارخ وأخلع الحجاب وأتفرغ لتلميع نفسى فقط ثم ماذا أفعل الآن يا ربى وأين أذهب بأولادى وأنا يتيمة ولم يعد لى مأوى بعد أن تزوج شقيقاى الاثنان منذ سنوات فى شقة الأسرة وتقاسما غرفها .. ومر على النهار ثقيلا بطيئا كأنه عام طويل وغاب هو فلم يحضر للغداء وفى المساء كان تفكيرى قد هدانى إلى إنه مادام قد تزوج وأصبح الزواج أمرا واقعا فلا معنى لأن أترك كل شىء لهذه القطة الغادرة وأن على أن أدافع عن حياتى وأحتفظ لأبنائى بحقهم فى أبيهم وجاء هو فى المساء فاعتزلته

ونمت مع أبنائى وعشنا يومين لم نتبادل فيهما كلمة واحدة .. حتى فوجئت بحركة غريبة على سلم البيت فخرجت لأرى ما يجرى فوجدت عمالا يحملون أثاثا إلى الدور الثانى من البيت واكتشفت أنه أثاث العروس الجديدة من زواجها السابق ، وبحثت عن زوجى وأنا كالمجنونة فجاء مسرعا واعتذر بأنه اضطر لإسكانها فى الشقة العليا مؤقتا وأن هذا الوضع لن يستمر طويلا .. و ..... فلم أجد ما أقوله سوى حسبى الله ونعم الوكيل .. فى بيتى يا زوجى العزيز ! وتحت أنظارى ! .. ألا تراعى حتى شعورى لكنه فيما يبدو كان مطمئنا إلى عدم قدرتى على المقاومة والرفض إذ ماذا سأفعل لو رفضت وصرخت وبكيت وإلى أين أذهب بعد ذلك ؟! أما زوجى ـ سامحه الله ـ فقد تمادى بعدها إلى أبعد الحدود فبعد أن انتهى من فرش الشقة جاء إلى وطلب طعاما أحمله إليها فى الشقة العليا وبعد انتهاء الأكل أعاد إلى الأطباق لكى أغسلها !

وكرر ذلك عدة أيام حتى دخل على مرة المطبخ وأنا أغسل الأطباق بدموعى فرق قلبه الحجر لى وربت على كتفى وقال لى أن هذه آخر مرة ولن يكررها .. فقلت له إنى قد سلمت أمرى إلى الله لكنى لا أطلب منه سوى إبعادها عن البيت وعن العمل وأنى سأقوم بعملها فى المحل وسوف أؤدى كل ما يطلبه منى وأن هذا هو كل ما أطلبه منه باسم الحب القديم والعشرة وسنوات الكفاح والأبناء الذين يجمعون بيننا .

فاستجاب بعد الحاح لندائى واستأجر لها شقة فى حى آخر ونقلها إلى المحل الجديد الذى يؤثثه الآن ونزلت أنا إلى العمل بدلا منها واعتقدت أن أكبر مشاكلى قد انتهت لكنه لم يدعنى لحالى فبدأ يتسقط لى الأخطاء فى العمل ويلح على أن أسمح بعودتها للعمل على أن تستمر فى الإقامة فى الشقة البعيدة

وأنا أرفض ومازلت أرفض لكنى ضعيفة وأخشى أن استسلم لرغبته كما تعودت دائما وعندها سيتضاعف عذابى مرة أخرى فماذا أفعل وهل أنا على حق فى إصرارى على إبعادها عن العمل لكيلا أتعذب كل يوم برؤيتها فى المحل وبما أعانيه من آلام كلما رأيتهما معا أمام عينى !.

□ □ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : لا ياسيدتى لم تخطئى بإصرارك على إبعادها عن العمل لكيلا تتعذبى برؤيتها وهى تنشب أظافرها الطويلة كالمخالب فى عش أحلامك وتنتزع أوراقه ورقة بعد أخرى كل يوم ، فهذا هو أبسط حقوقك وعليك ألا تفرطى فيه أو تتنازلى عنه بعد أن تنازلت عن الكثير من قبل لضعفك وقلة حيلتك وعلى زوجك أن يتقبل ذلك وأن يقر لك به ليس فقط لأنه من العدل وإنما أيضا لأنه من الرحمة التى هى فوق كل الاعتبارات .

بل وعليه أيضا إن لم يرض عن عملك أن يجد بديلا لك على أن يكون موظفًا هذه المرة لكيلا تتكرر المأساة فأنت لست ملزمة بأن تحلى مكانها فى العمل لكى يرضى بإبعادها عنك وأنت كزوجة وربة بيت وأم لثلاثة أطفال صغار لديك ما يكفيك من الأعباء وما يغنيك عن تقديم مثل هذه التضحية الجديدة لكنك آثرت أن تواصلى التضحية معه استمرارا لنهر العطاء الذى يتدفق منك إليه منذ سنوات طويلة وتيسيرا للأمر عليه .. فإن لم يقدر لك تضحيتك حق قدرها ويكف عن تسقط الأخطاء لك والإلحاح على تعذيبك بعودتها فليفعل بعمله ما يشاء لكن لا تستسلمى أبدا ولا تقبلى عودتهامهمـافعل فالحق أن هناك حدودا للاستكانة والمسالمة والسلبية ولا معنى لتضحياتنا إذا لم يفهمها الآخرون ويقدروها وأنت فى النهاية قد سلمت بالأمر الواقع حرصا على بيتك وأبنائك .. وأملا فى أن يرجع يوما عن نزوته وهى نزوة مهما اتخذت شكل الزواج المشروع لأن القطط التى لا تفعل شيئا سوى السطو على ممتلكات

الآخرين والتفرغ للعق جسمها والعناية به لا تعمّر بيتا ولا تصمد للشدائد ولا تطول الحياة معهن . وإنما تصمد للحياة مثيلاتك من الزوجات الفضليات اللاتى يفهمن الحياة الزوجية فهمها الصحيح ويعرفن أنها شركة فى الكفاح وأمومة وعطاء وواجبات وحقوق متبادلة . فإن كسبت الأظافر الطويلة جولة فإن الفوز فى النهاية يكون غالبا للأيدى الطاهرة التى لم تغتصب حقوق أحد ولم تمتد لشريك الحياة إلا بالعطاء والتضحية ..

إن آفة بعض الأزواج أنهم يكررون دائما النموذج البغيض للرجل الذى ما أن يرتوى ماليا بعد الجفاف حتى يفقد مناعته ويصبح عرضة لأى نزوة عارضة تستنزف ثمار كفاحه الطويل مع شريكته الأولى التى قاست معه جفاف الحياة ونسجت معه خيوط نجاحه ، فإذا ما عوتب أحدهم عن غدره بشريكة كفاحه لم يجد ما يبرر به الغدر سوى « أمر الله » كما قال لك زوجك وهو ليس كذلك بكل تأكيد وإلا فليقل لى أحد لماذا لا يصادفنا أمر الله هذا إلا بعد تحقيق نجاحنا المادى ونعرف طعم الثراء والوفرة بعد الجفاف ! !

وأليس من أمر الله أيضا الوفاء لمن قاسمتنا حلو الحياة ومرها وانجبت لنا البنين ومازال المشوار طويلا لرعايتهم وتنشئتهم ؟.

إننى أعرف أن رأيى هذا لا يعجب بعض الرجال الذين يعتبرون الزواج الثانى أمرا مشروعا بحجة إباحة تعدد الزوجات لكن هؤلاء يعرفون أكثر منى أن تعدد الزوجات رخصة مشروطة بشرط العدل كما شرع أيضا للضرورة وليس للمتعة فقط أو استجابة للنزوات بلا أى مبرر . لهذا كله كان ما فعلته هو الصواب حين قررت أن تدافعى عن مملكتك ضد من أرادت غزوها فالحق أنى لست من أنصار أن تلقى الزوجة سلاحها عند أول طلقة وأن تسلم زوجها لمن لم تشارك فى بنائه ولم تتحمل معه صعوبات الحياة لكى تجنى هى بلا تعب

ثمرة شقاء السنين. وتعرض الأبناء للعواصف والزوابع.

فاصمدى يا سيدتى ... ولا تقبلى عودتها إلى العمل مهما حاول زوجك، فنى رغبته فى عودتها لكى تكون تحت أنظارك سادية لا مبرر لها. ولا تكفى عن محاولة استعادة زوجك بالصبر والنفس الطويل والمعاشرة الطيبة وحسن رعاية الأبناء وحسن العناية بنفسك بغير انزلاق إلى تقليد غريمتك فى سلوكها ومظهرها. وسوف تنتصرين فى النهاية لأن السحب الكثيفة لا تحجب ضوء الشمس إلى الأبد ولأنه لابد أن يتحقق العدل الالهى يوما ما مهما طال انتظاره!

وليـــد الصّـــبر

دفعنى لأن أكتب إليك هذه الرسالة ... ما قرأته فى الرسالة التى نشرت منذ أسابيع بعنوان «المشروع» عن الشخص الذى بلغ الخمسين ولم يتزوج لأنه مازال «يدقق» فى اختيار شريكة حياته رغم توافر إمكانات الزواج لديه منذ سن الرابعة والعشرين ، فلقد أهاجت هذه الرسالة مشاعرى وذكرياتى ، وأعجبنى ردك عليه لأنه شقى غليلى ممن تعطيه الدنيا فلا يقدر نعمة الله عليه حق قدرها ... وسأروى لك قصتى لتعرف ماذا أقصد بذلك : فمنذ سنوات كنت طالبا جامعيا ، أقيم فى شقة فى حى قريب من الجامعة أعيش فيها مع أبى وحدنا بعد رحيل أمى وانتقال أختى الوحيدة إلى بيت زوجها فى بلدة بعيدة عن القاهرة . وكان أبى من رجال التعليم بالمعاش وقد كرس حياته لرعايتى وكل شاغله العمل على راحتى ومساعدتى على استكمال تعليمى وكان صديقا لى ولأصدقائى يحبهم ويحبونه ويحترمونه وكان يساعدنا فى فهم دروس الأدب الانجليزى وكنت أصارحه بكل شىء فى حياتى وأستشيره وحين عرفت الحب لأول مرة فى السنة الثالثة من دراستى الجامعية وارتبطت بمشاعر عميقة مع زميلة لى طيبة القلب والروح وجميلة اعترفت له بمشاعرى فسمعنى باهتمام وسألنى عن ظروفها ، وطالبنى بأن أكون جادا معها ... وأن أجتهد وأنجح لكى أكون جديرًا بها ، وراح بعد ذلك يسألنى عنها من حين إلى آخر ثم

فوجئت به ذات يوم ينتظرنى على باب الجامعة وأنا خارج معها نتمشى حتى محطة الأتوبيس لتركب إلى بيتها وأعود أنا ماشيا إلى بيتى القريب فأسرعت أرحب به فتقدم وصافحها وتجاذب معها الحديث فى مودة وألفة وانتظر معى حتى ركبت ثم عدنا إلى البيت فوجدته يفاجئنى بأنه قد سأل عن أسرتها وعرف كل ظروفها العائلية وأبدى خوفه من أن أصطدم بمشكلة عندما أتقدم لخطبتها لأنها تعيش فى كنف شقيق يعمل بالقطاع العام ويعيش فى مستوى حياة أعلى من إمكاناتنا .. وقال لى متأسيا : إنها يتيمة ووحيدة مثلك ... فعسى أن يقدر شقيقها هذه الظروف وألا يقف فى طريقكما .

ومضت الأيام بنا وارتباطى بفتاتى يزداد كل يوم وفى السنة النهائية رأت فتاتى أن أتقدم لخطبتها قبل أن يتقدم أحد فتتعقد الأمور ، وفاتحت أبى فأبدى استعداده رغم مخاوفه ، واتصل بشقيقها طالبا زيارته ، وذهبت معه فى الموعد المحدد فاستقبلنا الشقيق بجياد ولم يعدنا بشىء لكنى ذهلت فعلا من مستوى مسكنه والبذخ الظاهر فيه ... رغم أنى أعرف أن حبيبتى لم ترث إلا القليل وانصرفنا من عنده ونحن ضائقان بفتوره وعنجهيته وفى اليوم التالى أبلغتنى فتاتى أن شقيقها لا يرحب بى لأنى لا أملك شيئا رغم إعجابه بشخصية أبى ، وطالبتنى بألا أتخلى عنها مهما حدث ونقلت لأبى حديثها فاغتم لذلك كثيرًا .. لكنه لم يرفض أن يحاول معه مرة أخرى واتصل به وذهب إليه وعاد بلا جديد ومرت الشهور وتخرجنا وتوقفت لقاءاتنا فى الجامعة ... لكن الاتصال التليفونى لم ينقطع ... وكرر أبى المحاولة مرة ثالثة .. وأشفقت عليه من المهانة فطلبت منه ألا يذهب إليه مرة أخرى وطلبت من فتاتى أن تتولى إقناع شقيقها ، فجاءتنى باكية فى اليوم التالى تقول لى : إنه سيخطبها لابن مدير بالشركة التى يعمل بها يعتبر صديقه الوحيد وكانا معا موظفين بالحكومة

قبل أن ينتقلا لهذه الشركة وأكدت لى فتاتى أنها ستقاوم حتى النهاية وأنها حين تيأس من إقناعه سوف تأتى إلى بيت أبى لنعقد القران وتقيم معنا ونحيا حياتنا إلى أن ييسر الله أمورنا وعرضت الأمر على أبى فأبى ضميره الدينى أن يساعدها على عصيان شقيقها الذى رباها بعد موت أبيها ، وطالبنا بالصبر لكنه شغل بالأمر طويلا ... فأصبح لا ينام ولمحته ذات ليلة يبكى فى صلاته صامتا ثم ينظر لى بعدها ويقول كأنه يحدث نفسه لقد عشت حياتى شريفًا لم أقبض مليمًا حرامًا ... ترى هل كان ضروريًا أن أكون مرتشيًا لكى أجنبك هذا العذاب ؟! فأسرعت أقبل يده وأقول له : إنى أتيه به على العالمين ، وإنى راض بما اختاره لى الله .

ومرت الأيام وجاءنى تعيين القوى العاملة فعينت فى وظيفة لائقة فى القاهرة وفوجئت بتعيين فتاتى فى فرع نفس المؤسسة بالاسكندرية وتقصيت الأمر فعرفت أن شقيقها هو الذى سعى لتعيينها هناك لتعيش مع شقيقتها وليبعدها عنى تمهيدًا لتزويجها من ابن صديقه الذى يدير عملا خاصًا هناك وجن جنون أبى فذهب إلى شقيقها بدون علمى ... وفقد أعصابه معه واتهمه بالقتل العمد لاثنين تبادلا المشاعر الشريفة وتحمل الشقيق ثورته فى برود وعاد أبى مهزوما حزينا .

وأشفقت عليه فتظاهرت أمامه بأنى لم أعد متمسكًا بها وبدأت أخفى عنه اتصالاتها بى من الاسكندرية وخطاباتها ، وخطبتها مرغمة لابن المدير إياه وموعد زفافها القريب إلى أن جاءت الليلة الموعودة وكانت ليلة جمعة كالعادة فخرجت فى المساء لأتمشى لأهرب من عين أبى فبدا لى كأن الدنيا كلها تتزوج فى هذه الليلة التعسة . فكلما مررت من شارع وجدت فيه فرحا وأنوارًا يذكرنى بزفاف حبيبتى وكلما دخلت حارة وجدت أمامى زفة عروس فعدت إلى البيت

مختنقًا ولم يغمض لى جفن حتى نهض أبى ليصلى الفجر.

ومرت الأيام ... ولم تنقطع عنى أخبارها فى المؤسسة ... فعن طريق الزملاء الذين يزورون الفرع فى مهام رسمية ، عرفت الكثير عنها ... فعرفت أن زوجها أراد لها أن تستقيل لكنها تتمسك بالعمل ، وعرفت أن زوجها ينفق ببذخ ويركب سيارة فارهة لكنها لا تبدو سعيدة وكانت تحمل كل من يزور الفرع تحياتها لى باعتبارنا زميلين سابقين فى الجامعة ، وبعد عامين أنجبت طفلة لكن حياتها الزوجية شهدت خلافات حادة ، تركت بسببها بيتها عدة مرات وطالت إحداها إلى ٣ شهور وأنه كثير العلاقات النسائية والمشاكل معها .

وكان أبى يعيش حياته الهادئة وقد زادته الشيخوخة جمالاً ووقارًا فيخرج فى الصباح إلى المقهى ويعود فى الظهر فيقرأ ويسمع الموسيقى ويطهو الطعام الذى تعلم طهيه خلال بعثته الدراسية إلى اكستر فى انجلترا فى شبابه حين كانوا يرسلون خريجى كليات المعلمين زمان للدراسة هناك لمدة عام لكنه لم يكف عن سؤالى عنها بين حين وآخر وفى إحدى المرات حدثنى طويلاً لأول مرة عن حب شبابه الذى حالت دونه ظروف الحياة ، وكيف تألم مثلى ثم طابت نفسه بعد حين وتزوج من أمى وأحسن عشرتها ووجد لديها ما عوضه عما حرم منه وكيف عاشا رحلة العمر كلها فى سعادة وهدوء ، وطالبنى بألا «أزعل» من فتاتى لأنها مغلوبة على أمرها مع شقيقها المتكبر ، وأن أفعل كما فعل هو وأبحث عن أخرى أستريح إليها وأخطبها ووعدته بذلك وأحببته ليلتها كما لم أحبه فى حياتى بعد أن عرفت لماذا كان شديد الاشفاق علىّ من ضياع حبى ، وفى اليوم التالى لهذا الحديث الصريح رحل أبى عن دنيانا فجأة وهو يقرأ الصحيفة فى المقهى وخلت الدنيا من صديقى ونصيرى الوحيد فى الحياة وبعد أيام جاءتنى رسالة عزاء مبللة بالدموع من فتاتى السابقة احتفظت بها فى حافظة

نقودى باستمرار لتذكرنى بأحلامى الضائعة ومرت الأيام وبدأت أفكر فيما قاله لى أبى ... وبدأت أستجيب لمحاولات الاقتراب منى واقتربت بالفعل من زميلة وأخرى وثالثة لكنى لم أستطع أبدا أن أستشعر المشاعر القديمة مع أى منهن وخطبن جميعًا لغيرى بلا ندم منى ولا منهن وبدا لى أنى قد حكمت على نفسى بالعزوبة بعد أن بلغ عمرى السابعة والثلاثين.

وذات صباح كنت أتصفح الصحف فى مكتبى بالمؤسسة فإذا بى أجد صورة الشقيق المتكبر مع آخرين فى قضية من قضايا الانحرافات الخطيرة واشتعل اهتمامى فالتهمت السطور وعرفت سر الكبرياء والصلف الزائف واكتشفت أن شقيق فتاتى الذى بدأ حياته موظفًا عاديًا فى الحكومة انتقل مع رئيسه إلى شركة من شركات القطاع العام فى أواخر الستينيات فكون المدير شركة خاصة صغيرة باسم ابنه جعل مقرها الإسكندرية وراح بمعاونة شقيق فتاتى يديران الشركة العامة لحساب هذه الشركة الخاصة فيتنازلان لها عن مزايا وعمليات ، ويعطلان إنتاج شركتهما ليتيحا لها تصريف إنتاجها المماثل ... إلخ وحققا بذلك ثروة محرمة ووجدتنى مشغولاً بأمر فتاتى وأسرعت أتصل بالفرع لأسأل عنها فلم أجدها ووجدت لدى الزملاء كل التفاصيل ... لقد أحس زوجها بالخطر عند بدايته فسافر فى مهمة إلى أوروبا ولم يعد وترك وراءه كل شىء ثم أرسل يستدعى زوجته وطفلتها فاستمهلته الزوجة حتى تؤدى الابنة الامتحان فإذا بالقضية تنفجر ويصدر قرار بالقبض عليه فيمتنع عن العودة.

ووجدت قلبى يخفق بالألم لها وتوالت فصول القضية ... وتحددت أول جلسة للمحاكمة ووجدت نفسى مدفوعًا بقوة لا تقاوم للذهاب إلى الجلسة ، لا لأشمت فى الشقيق الذى هدم أحلامى معاذ الله فليس من طبعى الشماتة بأحد ولو كان منحرفًا وإنما لأرى شقيقته التى لابد ستحضر الجلسة ورأيتها

وسط سيدات الأسرة ترتدى السواد وقد تغضن وجهها وكبرت سنوات وسنوات عن عمرها الحقيق وهى تبكى بجوار القفص وتتحدث مع شقيقها ثم بدأت المحاكمة ومضت الساعات وأنا لا أسمع كلام المتكلمين ولا أرى غير وجهها الحزين بالنظارة السوداء وكنت جالسًا خلفها بصفين إلى اليمين فلم تتحرك عيناى عنها حتى التفتت إلى الوراء لحظة وعادت للنظر أمامها فاهتز رأسها بعنف والتفتت للخلف مرة أخرى وعلت الدهشة وجهها ثم خلعت النظارة وابتسمت لى ابتسامة خجولة وجاءتنى بعد الجلسة وخروج المتهمين ياربى كأن شيئًا لم يكن وكأن ١٥ عاما لم تمر من عمرينا وتحدثنا قليلاً بلهفة ثم انصرفت مع سيدات الأسرة على موعد للقاء غدًا فى المؤسسة وجاءت واستمرت المحاكمة شهورًا وانتهت بأحكام قاسية على المتهمين الثلاثة ووجدتها مهمومة بمصير شقيقها وأبنائه وزوجته فخففت عنها قدر جهدى وكانت قد حصلت على إجازة بدون مرتب لتتفرغ للقضية والمحامين فأصبحت أراها كثيرًا كأننا مازلنا فى الجامعة ... وكان لقاؤنا أمرًا لا يحتاج إلى مناقشة وفى هذه الأثناء اتصل بها زوجها الذى استقر كالمطارد فى إحدى الدول الأوروبية يطالبها بالسفر إليه فرفضت لكيلا تحكم على ابنتها بالغربة إلى الأبد ووجدتها تطلب منه الطلاق وتتفاهم معه على أن يترك لها ابنتها على أن تسمح لها بالسفر كل صيف ليراها إذا أراد ووافق بسهولة على الطلاق وعلى احتفاظها بابنتها لأنه خشى عليها من الحياة وحدها فى أوروبا وتنازلت له مقابل ذلك عن كل حقوقها وعن شقة الإسكندرية . وبعد شهور من وصول وثيقة الطلاق ... ذهبت إليها فى بيت شقيقها الغائب وقلت لها إنه ليس لدى ما أعرضه عليك سوى حبى وإخلاصى ... فهل يكفيان ليعوضاك عن مستوى الحياة الذى تعودت عليه ... فتولت زوجة شقيقها الإجابة عنها أما حبيبتى فلقد رجتنى أن

أنتظر أيامًا حتى تستأذن شقيقها قبل عقد القران وعادت من الزيارة تؤكد لى أنه بكى وهو يوافق على زواجى منها وطلب منها أن تسامحه لأنه أتعسها فسامحته بقلب صاف من الموجدة .

وعقدنا القران فى بيته وكان منظرنا مؤثرًا والعريس فى التاسعة والثلاثين والعروس فى السابعة والثلاثين والمأذون يعقد قراننا وعيون الجميع تدمع لحظة العقد الذى تأخر ١٥ عاما وأردت تأجيل الزفاف بضعة أسابيع لكى أعد الشقة بشكل يليق بها فرفضت فتاتى التأجيل .

وأصرت على أن نتزوج وأن نعد شقتنا خطوة خطوة كما كنا سنفعل لو كانت الأحلام قد تحققت فى شبابنا وتم زفافنا المؤجل ... وراحت زوجتى تفصل الستائر ، وترفو السجاجيد القديمة وتزين الجدران وتدهن المطبخ وتجدد إطار صورة أبى الذى أحبته وبكته حين رحل ، وتنتقل من مكان إلى مكان كالفراشة فى الشقة القديمة وهى سعيدة وكلما أشفقت عليها من المجهود أكدت لى أنها لم تعرف الراحة خلال السنوات الطويلة إلا فى هذه الشقة العتيقة وانتهت إجازتها وجاءت تسألنى رأيى فى العودة للعمل أو البقاء فى البيت فتركت لها الحرية فى اتخاذ القرار ، فقالت لى إنها تمسكت بالعمل فى السنوات الماضية رغم ثراء زوجها السابق لأنها لم تكن تحس بالأمان معه ، لكنها الآن ترغب فى التفرغ لبيتها وزوجها فترة أطول لذلك ستجدد الإجازة ... وبعدها تنظر فى الاستمرار أو الاستقالة وسعدت بقرارها وبعد شهور أنجبنا طفلنا وليد الصبر والإصرار والعناء والآن يبلغ عمر ابنتى ١٣ سنة وعمر ابنى عامين وكل يوم يمر بنا أحس أن زوجتى تعود إلى الوراء عاما من عمرها وقد اختفت الغضون من وجهها واستردت جمالها القديم ... أما أنا فأمسك الخشب فإن زملائى يقولون لى إنى قد استعدت شبابى الذى راح فى سنوات المعاناة ، لهذا

فقد غاظنى هذا القارئ الذى كان يملك الإمكانات الكافية للزواج فى سن الرابعة والعشرين لكنه يستخسر نفسه فى الأخريات حتى بلغ الخمسين ومازال يبحث عن شريكة لحياته فدفعتنى رسالته لأن أروى لك قصتى لأقول له إنه لو كان عندى ما عندك وأنا فى الرابعة والعشرين من عمرى لما عانيت القهر وأنا أرى فتاتى تضيع منى لنقص إمكاناتى ... ولما ضاعت ١٥ عاما من عمرينا ولما أنجبت وليدى الأول فوق الأربعين ، لكن الحمد لله على كل حال ..

والحمد لله على أن جمع شملنا بعد العناء والسلام .

ولكاتب هذه الرسالة أقول : نعم يا صديقى الحمد لله على كل حال .. وينبغى دائمًا أن نقول ذلك مهما حملت إلينا أمواج الحياة من تطورات ، فالحياة بحر متلاطم يحمل الجديد والفريد والغريب فى كل يوم ، وعلينا دائمًا أن نتقبل أقدارنا بشجاعة وبصبر ، فإن لم تجئ إلينا الأمواج بما نريد فلربما حملت إلينا بعد قليل ما يعوضنا عنه .. فلا أحد يعرف ماذا ستفعل بنا الأيام غدا .. والزمن هو أعظم المؤلفين كما قال بحق ذات يوم فرنسيس بيكون ، ولو لم يكن كذلك . لما اجتمع شملكما بعد هذه السنوات الطويلة .. ولما تزلزلت الأرض فهدمت بنيانا .. وشردت أشخاصا وفرقت شمل آخرين لكى يجتمع شملكما .. ويقوم هذا العش الصغير على غير انتظار لقد ذكرتنى قصتك العجيبة هذه ببيتى الشعر اللذين يقول فيهما الشاعر :

نَقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبدا لأول منزل

نعم يصدق ذلك فى بعض الأحوال كما فى قصتك لكنها ليست القاعدة دائمًا ، لأن هدير الحياة يجرف أحيانا المنازل القديمة من القلوب ويقيم بدلا منها منازل جديدة بالحب والعطاء والحنان فلنكتف الآن برموز قصتك الجميلة هذه .. ولنتعلم معا دروسها وأهمها أنه على الإنسان دائمًا ألا يفقد الرجاء فى الله .. ولا الأمل فى السعادة التى يتمناها لنفسه .

فالحق أنى من المؤمنين دائمًا مع الشاعر التركى ناظم حكمت بأن «أجمل الأنهار لم نرها بعد» وأنه لابد أن يأتى اليوم الذى سنراها فيه .. فإن لم يأت فلسوف نكون نحن قد تغيرنا من الداخل ورضينا بحياتنا .. واطمأنت قلوبنا وأصبحنا نرى الجمال فيما حولنا ونتلمس السعادة فيما سمحت لنا به الحياة منها فهنيئًا لكما تحقق الأحلام بعد طول العذاب ، وهنيئًا لكما التقاء القلبين الشتيتين بعد أن ظننتما «كل الظن أن لا تلاقيا» على حد قول الشاعر ، فلا تأس الآن على ما ضاع من سنوات العمر.. فمن يدرى ماذا كان سيحدث لو لم تعترض طريقكما هذه العقبات ، والماء يا صديقى بعد العطش الطويل أحلى مذاقا من الشهد مع الارتواء ، فاسعد بيومك وعش حياتك فقيمة الحياة أن نحياها وأن نحيا كل ساعة منها واهنأ بجنتك التى أذنت لك الأقدار بدخولها بعد العناء ، فجنة الأرض هى راحة النفس واطمئنان القلب ، ومن أوتى راحة النفس والقلب فلقد أوتى خيرًا عظيمًا ، وشكرًا لك لإطلاعنا على هذه التجربة الفريدة .

العش الخالى

أنا شاب فى الثانية والثلاثين من عمرى .. كنت طالبًا بكلية الطب أتمتع بالقوة والشباب والتفوق . ثم بدأت أحس بخور فى قواى يؤثر على حركتى فعرضت نفسى على أساتذتى وعرفت أنى فريسة لمرض يتسلل إلى الجسم رويدا رويدا ويفقده القدرة على الحركة . ورغم صدمتى الهائلة فلقد وهبنى الله قدرة غريبة على الصبر فقاومت اشد ما تكون المقاومة وحاربت وسواس المرض حتى تخرجت فى كلية الطب وعمرى ٢٤ سنة بتقدير مرتفع وبدأت حياتى العملية . وهنا كنت قد استنفدت كل قدرتى على المقاومة فبدأت أعجز عن المشى وعن القيام من المقعد بغير مساعدة . ورغم حزنى الشديد على ما آل إليه حالى فلقد تماسكت بقوة إيمانى وصبرى .. وبدأت أستعد لمواجهة الحياة بكل أثقالها .. وبغير استعداد للاستسلام رغم المواقف المؤلمة التى بدأت أتعرض لها .. كان يدق جرس الباب وأنا وحدى فى الشقة فلا أستطيع أن أنهض لأفتحه وأنا على بعد متر منه . أو كان يمد إلى زائر يده ليصافحنى فلا أستطيع أن أرفع ذراعى لأصافحه وابتسم له محرجا فيدرك ما بى ويسرع بإنزال يده .. أو كنت أنتظر إلى أن يأتى صديق من أصدقائى ليساعدنى فى دخول الحمام ، لأن كل أشقائى قد تزوجوا ولم يبق معى فى شقة الأسرة سوى شقيقتى الصغرى وهى أحبهم إلىّ وأقربهم منى لكنى تعودت على احتمال كل ذلك وعوضنى الله عن

بعض آلامى بأن جعلنى لا أحتاج إلى دخول الحمام إلا مرة كل يومين أو ثلاثة . أرأيت حكمة الله فى ذلك ؟.

منذ يومين بدأت ألاحظ على شقيقتى التى تعيش معى علامات أثارت قلقى وأسلمتنى للرعب والشك ليالى طويلة .. فلقد لاحظت عليها بوادر أولى للوحش الذى تسلل إلى منذ ٦ سنوات وبدأ يزحف على حتى تمكن منى .. وبخبرتى الشخصية عرفت أن هذا الزائر اللعين يدق أبوابها ويتسلل إليها وعمرها ١٦ سنة .. وحين تأكدت من ظنونى لم أستطع أن أغمض عينى ليلتها وبكيت فى سريرى كما لم أبك فى حياتى .. ولعلك تعجب أنى لم أبك حين عرفت حقيقة مرضى وتسلحت فى وجهه بالإيمان والصبر.. أما حين هاجم شقيقتى فلا أعرف أين ذهب صبرى .. فلم أتمالك نفسى من البكاء فى كل ليلة .. وفى الفترات التى أمضيها وحدى فى الشقة وكلما رأيتها تشكو ضعف الحركة تفطر قلبى عليها حتى لقد فكرت جديا وليغفر الله لى أن أقتلها بحقنة سامة إذا أكدت فحوص الأطباء صدق ظنونى لأريحها مما سوف ينتظرها من عذاب .. وأنت تقول دائمًا فى ردودك لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولأنى أكابده فلقد فكرت وتسلطت على هذه الفكرة أياما طويلة قبل أن أستعيد إيمانى وصبرى .

وكنت قد عرضتها على الأطباء منذ أول يوم فلم يلتفتوا إلى ما كنت أحس به .. فبدأت أوجههم بطريقة غير مباشرة إلى شكوكى حتى جاءت الفحوص بعد فترة طويلة صارمة كالسيف لتؤكد لى عذابى منذ أول يوم ، وأصبحت مهمتى فى الحياة أن أقنعها بأن مرضها مختلف عن مرضى .: وأننى أعتبرها عكازى الذى سأظل أستند إليه طوال حياتى .

ومضت بنا الحياة لم يتغير فيها شىء إلا أن دموعى أصبحت أقرب إلى من

أى شيء آخر.. وبعد أن كنت أخفيها عنها أصبحت أعجز عن ذلك كلما رأيتها تتعثر فى مشيتها وتقترب خطوة خطوة من مصيرى. وحين تسلل الوحش إلى كان عمرها وقتها ١٠ سنوات فكنت أنا أضحك مستهينا بالأمر ومتصبرا وكانت هى تمسح الدموع كلما رأتنى، وانعكست الصورة بعد ذلك فأصبحت هى تبتسم وتتصبر.. وأنا أمسح الدموع كالطفل الصغير.

إلى أن جاءتنى ذات يوم شقيقتى هذه وطلبت منى طلبا غريبا جدا هو أن أتزوج! أنا أتزوج؟ ومن هى التى تقبل الزواج منى وماذا عندى قد يغرى فتاة فى مكتمل صحتها بأن تتزوج منى ولست غنيا وأعيش فى شقة بمنزل متآكل.

وسمعت شقيقتى كل تساؤلاتى ثم قالت لى عندى من تقبل الزواج منك وليس المطلوب سوى أن توافق وهى تعرف كل شيء عنك.. وسألتها عنها فقالت لى إنها فتاة جميلة متنقبة خريجة تجارة سنها ٢٧ سنة وأنها سوف تتحدى الدنيا كلها إذا تزوجتنى لأنها تريد أن تعمل عملا تنال به رضا ربها.

وفكرت فى الأمر مذهولا أيمكن أن يكون ما تقول صحيحا. وهل فى الحياة الآن من تقدم على هذه التضحية لتكون ذراعا يستند إليه شاب الآن وشقيقته بعد حين؟.

وتخيلت حال شقيقتى حين تعجز عن الحركة نهائيا.. وحالى معها.. ووجدت نفسى أوافق بل وأحلم بأن يتحقق هذا الحلم، ولن تتخيل ما حدث من ثورة فى بيت أسرتها ضدها ولا ما ووجهت به من معارضة من كل أفراد الأسرة لكنها تمسكت بالموافقة وتم القران وجاءت إلى بيتى ورفعت النقاب لأول مرة وقلبى يخفق لأرى وجها ملائكيا.. لم أتخيل جماله فى يوم من الأيام

فلم أعرف ماذا أقول .. سوى أن أسألها وغلالة من دموع تغطى عينى كيف رضيت بأن تسجنى هذا الجمال مع إنسان مثلى ؟. فوضعت أصبعها فوق فمى لتمنعنى من الكلام ، ثم نهضت لتصلى صلاة شكر لله ، وبدأت أجمل أيام عمرى ، وبعد إجازة الزفاف عادت تخرج إلى عملها فتودعنى فى الصباح طالبة منى الدعاء لها وتعود إلى مسرعة فى الظهر لتروى لى كل ما صادفته فى الطريق وفى العمل وفى الشارع وعلى سلم البيت . ثم تمضى الوقت فى الطهى وإدارة البيت والطوفان حولى لتسألنى كل لحظة هل تريد شيئًا أو لتسقينى ماء أو قهوة أو شايا .. وبالغت فى تدليلى حتى لم أعد آكل وأشرب إلا من يدها .. وعرفها أقاربى وجيرانى وأحبوها وأحاطوها بالاحترام الشديد . وأصبحت سيدات الأسرة والجيران يزرن مسكنى كل يوم لتحيتها والائتناس بها . لأنها حلوة اللسان جميلة المعاشرة .

وغيرت منى زوجتى كثيرًا فجعلتنى أخرج من البيت بعد أن كنت حبيسا فيه معظم الأوقات ، وجعلتنى أزور الناس والأهل والجيران وجعلتنى أتقرب إلى الله بأعمال كثيرة أبسطها زيارة المرضى وعلاجهم حتى ندمت على كل ما ضاع من عمرى قبل أن أعرفها .

واستمرت حياتى معها على هذا الشكل ثلاث سنوات كاملة .. ثم حدث من حوالى شهر أن وقع نقاش بسيط بينى وبينها تطور بسرعة البرق فوجدت نفسى بغير أن أحس أوجه لها اهانة لم تحتملها .. فنهضت صامتة ثم جمعت ملابسها فى حقيبة وأرادت الخروج فاستأذنتنى فى العودة إلى بيت أهلها إلى أن تصفو النفوس . لأنها تؤمن بأنه حرام أن تخرج الزوجة من بيت زوجها إلا بإذنه حتى ولو كان خروجها غضبا منه ! وكان من الممكن يا سيدى أن أتدارك الأمر فأرفض الإذن لها .. بل واستسمحها وأقبل رأسها .. ولو كنت

شجاعا لطلبت منها العفو وقلت لها إنى لا أطيق بعادها عنى ساعة ولو فعلت ذلك لانتهى الأمر ، لكن الشيطان ركبنى فرفضت التراجع وأذنت لها بالخروج فخرجت ، وخرجت سعادتى وأمانى معها وبعد خروجها أحسست بالظلام يخيم على حياتى كلها . ومرت الأيام ثقيلة بطيئة .. وكل يوم أحس أنه دهر بأكمله وأصبحت الأيام أسبوعا ثم أسبوعين ثم شهرا .. وأنا حبيس فى مسكنى أرفض الخروج .. وأرفض الذهاب للعمل .. وأهمل العلاج ولا أفعل شيئا سوى أن أعذب نفسى بالتفكير فيها طوال الليل والنهار .

وكلما طال بى التفكير ندمت على ما أسأت به إليها .. وفكرت فى أن أحررها من قيدى لتنال نصيبها من الحياة مع أنى لا أتخيل نفسى بغيرها .. ولن تعود إلى سكينتى إلا معها خاصة أنها لم تطلب هذا الأمر .

فهل تفكيرى هذا سليم يا سيدى .. إننى أعرف أننى أخطأت لكنى أعرف أيضًا أن خير الخطائين التوابون فماذا تشير علىّ يا سيدى ؟

□ □ لكاتب هذه الرسالة أقول : إن الإنسان الصادق مع نفسه هو الذى إذا أخطأ فى حق آخر اعترف له بخطئه واعتذر عنه وقدم له الترضية التى تتلاءم مع حجم الخطأ .. والإنسان الكريم هو الذى يقبل هذا الاعتذار ويجود بالعفو ويصفو قلبه من المرارة بمجرد قبوله الاعتذار .

وأنت يا صديقى تعترف لى بخطئك فى حقها .. فلا يبقى إذن إلا أن تعتذر عنه ، وأن تقدم إليها الترضية الكافية التى يبرأ بها جرح نفسها وليس ذلك بكثير على هذه الزوجة الملائكية التى تؤكد لى بقصتها معك أن فى الحياة من الخير ما لا نعرفه ، ومن البشر من لا نسمع عنهم الكثير .

لقد تلاحقت أنفاسى وأحببت الحياة وأنت تصف لحظة رفعك النقاب عن وجه زوجتك وتروى لى طريقة معاملتها لك وكيف تحيطك بالحب والرعاية

وكيف دفعتك إلى الخروج من البيت وزيارة المرضى وأداء الأعمال التى تتقرب بها من الله .

أما لحظة خروجها غضبى من بيتك فلقد زادتنى لها احترامًا وإعجابًا ولا عجب فى ذلك لأنها حتى حين غضبت كان غضبها نبيلا إذ لم تبدر منها فيه كلمة هوجاء ولا إشارة جارحة وفضلاً عن كل ذلك فلقد أبت على نفسها أن تخرج من باب بيتك بغير إذنك مؤمنة بأن خروج الزوجة من بيت زوجها حتى وهى غضبى معصية لا ترضاها لنفسها ! فأى تصرف أحق بالإعجاب والتقدير من مثل هذا التصرف !.

إن زوجتك ليست فى حاجة إلى أن تحررها من قيودها كما تتصور شعورًا منك بالذنب تجاهها لأنها تزوجتك بكامل رضاها وهى تعرف كل شىء وهى لم تطلب منك الانفصال وما أظن أنها سوف تطلبه لأنها قد حددت اختيارها من البداية وتحملت تبعاته ومثل زوجتك هذه تحركها العاطفة الدينية بأكثر مما يحركها أى شىء آخر ، لهذا فهى لن تتخلى عنك أبدا إن شاء الله ولن تخذلك .. ولكنها أرادت فقط أن تشعرك بطريقة عملية بما تقدمه إليك وما تمثله فى حياتك لكى تحسن معاشرتها وتحرص على شعورها وترعى الله فى معاملتها كما ترعاه هى فى كل معاملاتها معك .

ويبدو أن الإنسان يا صديقى يحتاج أحيانًا إلى من يذكره بقيمة ما بين يديه من أسباب لكى يفرح بما أتاه الله .. ويحرص عليه من الضياع . لأن الإنسان قد يفقد الإحساس بقيمة الأشياء الثمينة بحكم الاعتياد على رؤيتها لفترة طويلة .. لهذا فنحن فى حاجة أحيانًا إلى أن ننبه ذاكرتنا لكيلا ننسى قيمتها واعتقد أن ذلك قد تحقق عندك بالقدر الكافى فأسفر إليها طالبًا منها السماح ثم زرها ولولا أنى على سفر هذا الأسبوع لأبديت استعدادى لزيارتها لأكون

سفيرك إليها قبل أن تزورها أنت وتطلب منها أن تعود إلى عشها الخالى لتضىء ظلامه وتبدد وحشته .. كما يضىء البدر المكتمل أفق السماء .. وآه لو أسعدتنى فيما بعد بخبر عودة السعادة إلى قلبك المثقل بالأحزان ..

الصفحة القديمة!

أكتب إليك لأستعين برأيك فى اتخاذ قرارى الذى سيحدد مجرى حياتى القادمة وقبل أن أسألك الرأى .. سأروى لك قصتى مع الحياة لتستعين بها على فهم ظروفى فمنذ سنوات كنت طالبافى أحد المعاهد العليا بالقاهرة .. أقيم فى شقة مفروشة متواضعة مع عدد من الطلبة نتقاسم إيجارها .. وأواجه الحياة بما يتبقى لى بعد دفع نصيبى من الإيجار .. ولم يكن يزيد على بضعة جنيهات ترسلها لى أمى من بلدى القريب من القاهرة من معاشها عن أبى ولأن مطالب الحياة كثيرة فلقد بحثت عن عمل إلى جانب الدراسة وعملت بأحد الفنادق وكانت نوبتى المخصصة لى فى كافتيريا تبدأ فى منتصف الليل وتنتهى فى الثامنة صباحًا فأستبدل ملابسى ، وأحمل كتبى وأتوجه إلى المعهد ، وبعد انتهاء الدراسة أعود إلى شقتى لأنام حتى المساء نوما متقطعا .. ثم أنهض لأتناول عشائى وأذاكر لمدة ساعتين وأخرج للعمل من جديد .. أما فى يوم الاجازة فلقد كنت أنام ليل نهار لأعوض ساعات النوم التى يحتاج إليها جسدى .. وذات يوم غلبنى الإرهاق فى قاعة المحاضرات فلم أشعر بنفسى إلى أن صحوت فجأة على يد تهزنى فانتفضت خجلا والأستاذ المحاضر يعنفنى تعنيفا شديدا ويطردنى من المحاضرة .. فقمت أتعثر فى خجلى .. وأسرعت بالخروج .. واتجهت إلى مقصف المعهد وطلبت فنجان قهوة ووقفت أشربه وأنا متألم

وخجلان .. وفى هذه اللحظة وجدت زميلة تقترب منى وتعطينى كراستها لأنقل منها المحاضرة التى فاتتنى فشكرتها ، فقالت لى إنها لاحظت على أكثر من مرة الاجهاد والنوم فى المحاضرة فصارحتها بأنى أعمل طوال الليل وأن نشاطى يخوننى أحيانا رغما عنى ، فنشأت بيننا صداقة قوية تحولت قرب نهاية العام إلى ارتباط عاطفى حميم وبعد قليل قدمتنى لأسرتها وتعرفت بأبيها وكان رجلا فاضلا لكنه مثقل بالأبناء والأعباء ، وتفاهمنا سريعا على أن أتقدم لخطبتها وأن نعقد القران بعد تخرجنا ومضت الأيام .. وبدأت أوفر جزءا من دخلى لمشروع الزواج ، وتم إعلان الخطوبة فى موعدها .. وواصلت الكفاح والعمل حتى تخرجنا وعقدنا القران ، وانتهى الجهاد الأصغر وبدأ الجهاد الأكبر لادخار المبلغ المطلوب للشقة ، وكنت قد تقدمت فى عملى بالفندق وأصبحت أعمل فترة مسائية من الساعة الثانية بعد الظهر حتى منتصف الليل ، وازداد ارتباطى بفتاتى حتى بدأت أضيق بسنوات الانتظار الطويل وبدأت هى كذلك تضيق به ، وفى لحظة مجنونة قررنا ألا نضيع العمر فى الانتظار وأن نتزوج فى الشقة المفروشة .. على أن ندخل مشروعا طويل الأجل للحصول على شقة بادخار كل قرش يزيد على حاجتنا ، ووافق الأب استجابة لرغبة ابنته .. واحتفلنا بالزفاف فى الفندق الذى أعمل به وبلا تكاليف تقريبا مجاملة من رئيسى وزملائى .

وبدأت حياتى الجديدة فى نفس الشقة المفروشة التى أقيم بها بعد أن خرج منها شركائى وكانت شقة من غرفتين فى ميدان الجيزة أدفع لها ثمانين جنيها إيجارا وكنت فى هذه الأيام أكسب حوالى مائتى جنيه وبدأت زوجتى تبحث عن عمل ووجدت عملا فى مكتب للمحاسبة قريب من مكسننا ومضت حياتنا سعيدة وقد اطمأن قلبانا إلى وجودنا معا ولم يكن يزعجنا سوى مراوغة

صاحب الشقة لنا كل ستة شهور عند تجديد عقد الإيجار ، لكى يرفع قيمة العقد وكنا قد اتفقنا على تأجيل الإنجاب حتى نستقر فى شقة خاصة بنا .. فلم نواجه صعوبة كبرى فى زيادة الإيجار اللهم إلا التزامنا ببعض التقتير على أنفسنا لكى نوفر مقدم الشقة وطال بحثنا عن شقة فى حدود امكاناتنا فبدأت أتطلع إلى السفر والعمل لمدة عامين أو ثلاثة فى الخارج وفى هذه الفترة بالذات بدأت أحس بأن حماس زوجتى المحبوبة قد بدأ يفتر وأنها أصبحت متشائمة من إمكان تحقيق أحلامنا .. فكنت أقابل ذلك بالمزيد من التمسك بالأمل والحلم .. إلى أن كنا نتناقش فى الأمر ذات يوم فإذا بها تنفجر فى البكاء وتقول لى أنها تعبت ولم تعد تستطيع مواصلة المشوار ! فبهت وسألتها عما تعنيه .. فقالت لى أنها تسأل نفسها عما حققنا من الزواج بعد ٣ سنوات .. لا شىء .. لا شقة .. لا أبناء .. لا مستقبل لا حياة مريحة .. وصدمت وقلت لها أن تأجيل الإنجاب كان قرارنا معا .. وأنى مستعد للرجوع عنه فى أية لحظة وأن عمرى ٢٧ سنة وعمرها ٢٥ سنة ومازال المستقبل أمامنا .. وقد مضى الكثير ولم يبق إلا القليل فلم تجبنى سوى بالدموع فطيبت خاطرها ومسحت دموعها وقبلتها وعرضت عليها أن تأتى معى إلى الفندق خلال نوبة عملى لتروح عن نفسها فاعتذرت بأنها متعبة وخرجت لألحق بالعمل ، ويعلم الله كيف مرت على الساعات فى العمل .. ولم أطق صبرا .. فاعتذرت عن إكمال النوبة وأسرعت بالعودة للبيت لأصطحبها إلى السينما أو المسرح وفتحت باب الشقة فوجدتها غارقة فى الظلام .. فتصورت أنها قد نزلت لتشترى شيئا فجلست أمام التليفزيون انتظرها فمرت ساعة بغير أن تأتى فدخلت غرفة النوم لآخذ شيئا فلاحظت أن قميص نومها ليس على الشماعة .. ففتحت الدولاب .. فلم أجد فيه سوى ملابسى أما ملابسها فقد اختفت ! ولا أراك الله يا سيدى

ما أحسست به فى هذه اللحظة أنه إحساس غريب أتمنى ألا يعرفه أحد ، مزيج من الصدمة .. والألم .. والمرارة .. والخجل .. والرغبة فى تكتم الأمر لكيلا يعرفه أحد .. وأيضا من الأمل فى أن ينقشع الموقف عن مفاجأة سعيدة وتعود الشريكة إلى عشها كما خرجت منه !.

وجلست على السرير أفكر .. ثم حزمت أمرى على أن ألحق بها لأدافع عن حبنا الذى ذقت الأمرين لأحتفظ به .. وأسرعت إلى بيت أبيها رغم تأخر الوقت وقابلنى الرجل بعطف وطلبت رؤيتها بإصرار فاستدعاها للصالون وتركنا ، ووجدت نفسى أمام إنسانة أخرى غير التى تركتها فى البيت قبل ساعات ، فليس على لسانها سوى كلمة واحدة هى تعبت .. تعبت وأيضا ـ ويا للألم ـ طلقنى ! أطلقك ! ألا تحبيننى ؟ نعم ... هل هناك آخر ؟... لا .. لماذا إذن الطلاق ؟ تعبت ! وهكذا وجدت نفسى أمام الحقيقة القاسية وتركتها لأعطيها فرصة للتفكير وعدت إليها مرة ومرات فلم أسمع منها سوى نفس الكلمة البغيضة . فاستسلمت لرغبتها وطلقتها فى يوم حزين بعد ٦ سنوات من الارتباط والحب والإخلاص والزواج وعدت إلى الشقة الخالية لأواصل حياتى كما شاءت لى الأقدار ومرت شهور وأنا لا أسلوها أبدا يا سيدى .. وفى كل يوم يداعبنى أمل غامض فى أنها سوف ترجع إلى نفسها وتعود إلى عشها وفى هذه الفترة هزل جسمى كما كان أيام العمل والدراسة وفقدت ٨ كيلو جرامات من وزنى رغم نحافتى الطبيعية .. ثم بدأت الآلام تخف تدريجيا ومر عامان انتقلت خلالها مع رئيسى من الفندق الذى أعمل به إلى فندق آخر جديد وكان يعرف قصتى معها ويشجعنى على مقاومة نفسى ونسيانها .

وذات مساء كنت أؤدى عملى ورئيسى يجلس فى مكتبه الصغير فى

الكافتيريا . ودخل اثنان من الرواد إلى الركن المخصص لى وجلسا . فحملت قائمتين من قوائم الطعام .. واتجهت إليهما وقبل أن أصل إليهما .. تسمرت قدماى فجأة فى الأرض وأحسست بالعرق يسيل من وجهى .. وبأنفاسى تتلاحق .. فلقد كانت هى ومعها رجل فوق الأربعين .. وعجزت عن التقدم إليهما فعدت واتجهت إلى مكتب رئيسى لاهثا وطلبت منه أن يكلف زميلا آخر بخدمة تلك المائدة .. فسألنى عن السبب فصارحته .. فسكت دقيقة ثم قال لى بلهجة آمرة .. اذهب إلى هذه المائدة بالذات وأد عملك عليها ، فإن نجحت وتصرفت بطبيعية كنت فعلا قد نسيتها وتحررت منها . وإن عجزت كنت ضعيفا مع نفسك ولن تتخلص منها أبدا اذهب .. يا فلان وربنا معك .

فترددت قليلا وتذكرت الآلام التى عانيتها .. بسببها وبقوة الألم وحده اتجهت إلى المائدة بخطوات هادئة .. وقلت مساء الخير.. يا افندم ثم قدمت لهما القائمتين فالتقت عيوننا فى لحظة .. وظهرت الدهشة على وجهها .. ثم تمالكت نفسها سريعا وأخفت رأسها فى القائمة ووجدت نفسى أتأملها بشغف .. وأنظر إلى يدها فأرى الدبلة الذهبية فى إصبع اليد اليسرى وأرى الدبلة الأخرى فى يد الرجل الجالس أمامها وتوقعت أن تختلق سببا للانصراف .. لكنها لم تفعل .. ومضت الأمور طبيعية فخدمت على مائدتها كما أفعل مع الجميع حتى انصرفا بسلام وودعتها بابتسامة حزينة وهنأنى رئيسى على شفائى منها .. لكنى لا أخفيك أنى حين اختليت بنفسى فى شقتى انسابت دموعى فى الظلام بلا حياء ويا سبحان الله يا سيدى .. فكأن هذه اللحظة المؤلمة كانت خطا فاصلا بين مرحلتين فى حياتى .. فبعد هذه الواقعة بأسبوعين رشحنى رئيسى للسفر معه إلى أحد الفنادق التابعة لنفس الشركة فى إحدى الدول العربية للعمل هناك بمرتب ضخم وسافرت معه وشغلت وظيفة أرق ..

وعرفت الوفرة فى النقود لأول مرة فى حياتى وفى الغربة توثقت صلتى برئيسى أكثر وأكثر.. وفى الصيف جاءت زوجته لزيارته ومعها أبناؤها وابنة شقيقتها المدرسة ، ووجدت نفسى لأول مرة منذ ٣ سنوات انظر إلى امرأة أخرى كما ينظر الرجل إلى المرأة .. وصارحت رئيسى باعجابى بقريبة زوجته فطلب منى ألا أتسرع فى الحكم على مشاعرى وقبل انتهاء الصيف كنت قد فاتحتها فى خطبتها مؤكدا لها أنى فى بداية الطريق ولا أملك شقة فى القاهرة .. فرحبت بى وأبدت إعجابها بى وعادت الأسرة وبدأت المراسلات بيننا ومن أول مبلغ ادخرته اشتريت شقة فى الهرم .. ثم انتهى عقدنا وعدنا لفندقنا القديم ومعى بعض المدخرات الكافية لتأثيث الشقة ، وذات مساء وجدت نفسى مرة أخرى وجها لوجه مع زوجتى السابقة فى نفس القاعة .. وفى هذه المرة انتهزت فرصة ذهاب زوجها إلى « التواليت » وأشارت إلى فذهبت إليها وسألتنى عن أحوالى . فقلت لها أنى اشتريت شقة فى الهرم وخطر لى أن أسألها سؤالا كان يلح على فسألتها هل أنجبت ؟.. ففوجئت بها تدمع عيناها وتجيب بهزة من رأسها لا ! وفهمت منها أنها تزوجت صاحب مكتب المحاسبة الذى كانت تعمل فيه ، وأنه مطلق بغير أولاد وأنه أخفى عنها قبل الزواج أنه لا ينجب .. وأنها استسلمت لمصيرها لكيلا تصبح مطلقة مرتين .. إلخ .

ثم عاد زوجها فانصرفت وأحاسيس تتضارب داخلى لكنى صرفتها من ذهنى على الفور.. وبدأت أستعد لعقد قرانى على خطيبتى التى أحبتنى بإخلاص عامين وأحببتها ، وانتظرتنى بصبر ولم تطالبنى بأى شىء وهى فتاة جميلة هادئة ناعمة تصغرنى بستة أعوام .

وقبل أسابيع من القران دعيت إلى التليفون فإذا بها زوجتى السابقة تسأل عنى .. وتريد تجديد ما بيننا وتبدى استعدادها للحصول على الطلاق لكى

نتزوج ونحقق أحلامنا التى حالت صعوبة الحياة دون تحقيقها واستمعت إليها صامتا وأنا أفكر..

وفى لحظة كدت أصرخ فيها أين كنت حين كنت أحس بلسع النار فى ضلوعى وفى لحظة أخرى كدت أضعف وأقول لها تعالى إلى .. فورا .

لكنى بعد فترة من الصمت وجدت نفسى .. أضع السماعة بهدوء .. ثم أحمل قوائم الطعام واتجه إلى الرواد .

وسؤالى الآن هو : هل أخطأت فى هذا التصرف ؟.

لقد اشتريت مع رئيسى مطعما صغيرا سوف نديره معا بعد أسابيع ونترك الفندق .. وهو رجل ممتاز وعاقل ولا يسمح للمسائل الشخصية بالتأثير على العمل أو علاقتنا .. لهذا فلست قلقا من ناحيته حتى لو أردت فسخ خطوبتى لقريبته لكنى قلق من نفسى أنا .. فخطيبتى عزيزة جدا على وأنا أحبها وأريدها بصدق وهى تحبنى بإخلاص .. وقد امتحنت نفسى أكثر من مرة فوجدتنى لا أريد سواها !.

لكنى أخشى النفس الأمارة بالسوء أن تضعف فهل تعتقد أنى سأضعف فعلا .. وهل يمكن أن يمحو الحب الثانى الحب الأول من جذوره .. أم أنه لايموت كما يقول البعض .. وبماذا تنصحنى أن أفعل ؟.

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : إنك فى واقع الأمر لا تحتاج إلى رأيى .. لأنك حددت طريقك بالفعل وعرفت اختيارك لكنك تحتاج فقط إلى من يؤكد لك سلامته وهو فى رأيى الاختيار السليم والصحيح فى مثل ظروفك ..

ففتاتك الأولى ليست أهلا للثقة فقد تخلت عنك فى بداية المشوار وأهدرت بذلك سنوات الحب والبراءة والأحاسيس الغضة .. وبلا مبررات حقيقية .. فلقد فقدت صبرها سريعا وبعد ثلاثة أعوام فقط وإن كنتما فى

مقتبل العمر ولم يكن الطريق أمامكما مسدودا ، فلماذا لم يصمد لك سوى هذه السنوات القلائل ؟ وكيف لم يدفعها هذا الحب للتمسك بك إلى أن تحققا الأحلام ؟.

إن من يحب يا صديقى لا يتخلى عن حبه الأول بمثل هذه السهولة .. ولا يضحى به ولو قاسى الأمرين إلا تحت وطأة ظروف لا طاقة لأحد بها .. فهل هذا هو ما حدث فى قصتكما ؟ لقد استطعت أنت أن تحقق ماكانت تصبو هى إليه فى ٤ سنوات أخرى .. إذن فالمشكلة لم تكن فى صعوبة الحياة أو الشقة وحدها وإنما كانت فى داخلها هى .. فلقد فترت مشاعرها سريعًا أمام بعض الصعوبات واستسلمت لأحلام الحياة السهلة والحلول الجاهزة مع مَنْ يكبرها بعشرين سنة فانتزعتك من قلبها بلا آلام .. فى حين عانيت أنت الأمرين لكى تنتزعها من قلبك واحتجت إلى سنوات وسنوات لكى تتأكد من شفائك منها ، وحين اكتشفت أنها لم تحقق السعادة فى الحياة المريحة التى كانت تهفو إليها .. ولا الأمومة التى تعجلتها . ووجدتك أنت قد حققت ماكانت تريده من إمكانيات الحياة .. عادت لتثير الاضطراب فى حياتك من جديد .. لكنها لم تعد إليك إلا لأسبابها هى .. وليس لأسباب تتعلق بك ولكل إنسان قدره فى الحياة الذى ينبغى أن يتقبله وأن يتحمّل معه تبعات اختياره .. فلتبحث عن حل لمشكلتها بعيدا عنك .. فلست أنت من صنعها .. لكنها هى .. « ومن أعمالكم سلط عليكم » .. فإن كانت غير موفقة مع زوجها الجديد فلتبحث عن حل لمشكلتها معه عن طريق آخر .. فلقد تطهرت بالعذاب والآلام من بقايا حبها ، وليس من حق من يتخلى عن الشجرة الوليدة ويتركها فى مهب الريح أن يأتى الآن ليقطف ثمارها بعد أن نمت وشبت ورويت بدموع غيره .

ثم ما ذنب خطيبتك التى أخلصت لك الحب منذ اللحظة الأولى وقبلتك بكل ظروفك إلى أن شاء لك الله أن تحقق معها نجاحك وأحلامك، بل وماذنب زوج فتاتك التى تتصل بك وهى ما زالت فى عصمته لتدبر معك أن تجرعه من نفس الكأس التى شربتها أنت من قبل؟. وهل تقبل أنت لغيرك أن يعانى قسوة التجربة التى عانيتها؟.

يا سيدى لا تفتح الصفحة القديمة فلقد انطوت بذكرياتها السعيدة والمريرة معا، والحاضر دائما أقوى من الماضى، والحب الثانى يمكن أن يمحو الحب الأول بالفعل لأنه الواقع الحى، أما الآخر فهو الذكرى والخيال، ولا بأس بأن يعتز كل إنسان بذكرياته .. لكنه لا يستطيع أن يعيشها ويتعامل معها. واعتزاز الإنسان بحبه الأول هو فى حقيقة الأمر اعتزاز بفترة غالية من صباه حين خفق قلبه لأول مرة بالحب .. لكنه إذا انتهى لا يصبح سوى ذكرى ..

وليس الأمر دائمًا كما يقول الشاعر، «وما الحب إلا للحبيب الأول» .. وإنما هو فى الواقع والحقيقة «للحبيب المخلص» الذى لا يتخلى عنا .. ولا يغدر بأحلامنا المشتركة جريًا وراء حساباته وطموحاته فانفض عن نفسك التردد يا صديقى .. وابن عشك الجديد مع خطيبتك فهى تستحقك بإخلاصها لك وأنت تستحقها بما قدمت من كفاح ووفاء واخلاص وأسعد بأيامك وبما بين يديك فما بين يديك واقع وحقيقة .. أما «الآخر» فلقد علمتنا التجربة الأليمة أنه غير مأمون الجانب بدليل تفكيره فى الغدر مرة أخرى بمن غدر بنا من قبل ليشاركه حياته.

طيف .. من الماضي !

أنا يا سيدى رجل فى الأربعين .. واجهت الحياة وحيدا منذ صغرى .. فقد حرمت من أبى وأنا فى سن الخامسة وتولت جدتى تربيتى مع إخوتى من ريع قطعة أرض صغيرة لا تسمن ولا تغنى من جوع .. وهكذا وجدت نفسى غير قادر على مواصلة التعليم بعد المدرسة الابتدائية .. لكنى بإرادة من حديد جمعت بين العمل فى هذه السن الصغيرة وبين الدراسة غير المنتظمة والاستذكار فى البيت .. وتقدمت لامتحان الشهادة الاعدادية وفزت بها ثم حصلت على الثانوية العامة والتحقت بالجامعة وأثناء الدراسة الجامعية اتجهت مشاعرى إلى زميلة لى وجدت نفسى مهتما بأمرها ومشغولا بها لكن تاريخى الطويل مع الشقاء قد أكسبنى حرصا شديدا فى التعامل مع الحياة فكتمت مشاعرى عنها ولم يزد ما بينى وبينها على تبادل الأحاديث والمذكرات ، انتظارا لأن أتخرج وأكاشفها بمشاعرى ورغبتى فى الارتباط بها ، وساورتنى نفسى بعد قليل أن أفاتحها فى أمرى خوفا من أن تضيع منى فى زحام الحياة ، وحين هممت بذلك وجدتها تحادث زميلا عزيزا لى فظننتها مجرد دردشة عادية ، لكن زميلى العزيز فاتحها بعد قليل فى الارتباط بها ، فكبت مشاعرى وقررت عدم إزعاجها وتباعدت عنها لعدة أيام ، فوجدتها تقترب منى وتحادثنى ، وقررت بينى وبين نفسى أن أترك أمرى للقدر إن شاء جمع بيننا وإن شاء فرقنا

وتخرجت .. وتخرجت هى ، وتقدمت لأداء امتحان المسابقة للتعيين فى إحدى الهيئات فالتقيت بها فيها ، وفرحت جدا برؤيتها وأقبلت عليها متهللا فأشاحت بوجهها عنى قائلة لى إن زميلى ينتظرها فى الخارج وأسرعت بالخروج . فقررت عدم قبولى التعيين فى هذه الهيئة رغم نجاحى .. وأعلنتها بذلك فألحت على ألا أضيع على نفسى هذه الفرصة لكنى كنت قد حزمت أمرى . فلم أقبل التعيين والتحقت بهيئة حكومية أخرى .. وغالبت نفسى طويلا لأنساها ، وخلال عملى فى الهيئة الجديدة عرفت أن زميلتى السابقة قد تزوجت لا من زميلى كما توقعت ولكن من آخر لا أعرفه فخفق قلبى ألما .. وقررت اعتبارها أختا عزيزة على وتمنيت لها السعادة من أعماق ، وركزت حياتى فى عملى وفى دراساتى العليا ، وبعد فترة ملت إلى زميلة لى فى العمل وتبادلنا المشاعر وتمت الخطوبة وكانت خطيبتى من أسرة طيبة لكنها مفككة لا يربط أفرادها الحب والتعاون ، وكانت تعانى من ذلك فانعكس عليها فى مزاج عصبى يستجيب للثورة لأتفه الأسباب لكننى كنت أتحملها .. وأتحمل الكثير من تصرفاتها لأنى أحببتها هى الأخرى ولأنى أعرف أنها ضحية للمشاكل العديدة التى تحيط بها .

وسافرت فى بعثة دراسية لمدة عام لم تنقطع خلالها المراسلات بيننا ثم عدت لأجدها فى غاية الضيق من جو الخلافات الذى تعيش فيه فأسرعت بالبحث عن مسكن وعثرت على شقة متواضعة قمنا بتأثيثها على عجل ، وتم الزواج وفى الليلة التى يفترض فيها أنها أسعد ليلة فى حياة الإنسان ، انعكست خلافات الأسرة على الليلة ، وبعد انتهاء الفرح سمعت زوجتى تلعن أبا الدنيا بأسلوب المحشور فى زحام الأتوبيس والذى يضيق بكل شىء ! وتحملت لأنها ضيفتى ، وتحملت بعد ذلك الكثير من جراء مشاكلها العائلية بين الأخوة حتى

خيم على حياتى العائلية جو ثقيل من النكد باستمرار وكلما تأففت أو حاولت لفت نظرها إلى ضرورة الفصل بين حياتنا وبين المشاكل التى لا يد لى فيها ضاقت بحديثى حتى طلبت الانفصال بعد شهر واحد من الزواج فأسرعت أهدئ خاطرها .. وأسلم بينى وبين نفسى بالمقادير وأنجبنا طفلين ثم سافرنا إلى إحدى الدول العربية للعمل وعشنا ٤ سنوات طويلة لم يتوقف خلالها الشجار والنكد بسبب عصبية زوجتى ، ثم عدنا إلى مصر وشغلتنا الحياة عن كثير مما أعانيه .. وقد كبر الولدان والتحقا بالمدرسة وأصبحت لنا فى الحياة أهداف أخرى .. تستحق أن نضحى من أجلها لكن نفسى كانت تهفو دائما إلى الشريكة التى تبادلنى المشاعر وأبادلها الأحاسيس والتى لا تنصرف عنى إلى رعاية الأولاد وحدهم ، وكلما صارحتها بخواطرى هاجت وماجت وقالت لى إنها لا تكف عن العمل طوال النهار كالشغالة مع اختلاف بسيط هو أنها شغالة بلا أجر .

ومرت السنوات وفجأة اكتشفت أن زوجتى منذ أنجبنا لم تشر إلى مرة باعتبارى زوجها أو حبيبها أو شريك حياتها .. وإنما تتحدث إلى أو عنى دائما بأنى « أبو فلان .. وفلان » أى أبو أولادها فقط لا غير .. كأنها تحس فى قرارة نفسها بالنفور منى .

وأحزننى هذا الخاطر طويلا خاصة وأنى أحاول دائما إسعادها وأعاملها دائما بالحسنى ووجدت نفسى أعيش فى شبه عزلة عاطفية عنها فلا حديث لها معى إلا عن مشاكل البيت والأولاد أو مشاكل أسرتها أو مطالب الحياة كأننا شركاء فى المسكن ورعاية الأولاد فقط ..

وبدأت ألاحظ أن اكتئابى يتزايد فسعيت للعودة إلى العمل الذى كنت فيه خارج مصر.. سافرت وحدى هذه المرة لكى ينتظم الأطفال فى

الدراسة .. وأصبحت أسرتى تمضى معى عدة شهور كل سنة لا يختلف الحال فيها عما كان عليه فى مصر فأنا أبو الأولاد فقط أو هكذا أحس من تعاملها معى .

ثم وجدت نفسى أنا أيضا أسلم بينى وبين نفسى أنها قد أصبحت بالنسبة لى « أم الأولاد » كذلك ما دامت هذه هى طريقتها وفهمها للحياة الزوجية ولم أعد أشعر تجاهها بأية عاطفة .. وفى هذه الظروف ومع الساعات الطويلة التى أمضيها وحدى فى شقتى الخالية فى الغربة ، وجدت زائرا غريبا يقتحم حياتى بدون استئذان .. هل تعرف من هو هذا الزائر؟ انه طيف زميلتى السابقة فى الجامعة التى لم أرها منذ ١٥ عاما ! ففجأة أصبح طيفها رفيقى الدائم فى وحدتى كأنى ما أزال طالبا فى الجامعة .. وأتحدث معها .. وأبوح لها بكل ما لم أستطع أن أقوله لها فى هذا الزمن البعيد .. ولم أعد أستطيع النوم إلا قليلا فصورتها تطاردنى ليل نهار .. وهى معى فى العمل وفى الطريق وفى مسكنى وأتخيلها دائما قادمة إلى من طريق طويل .. وأهم بأن أفتح ذراعى لأستقبلها فأتنبه لنفسى وأستغفر الله طويلا !.

والعجيب أنى طوال السنوات السابقة لم أكن أتذكرها .. بل لعلى نسيتها سنين طوالا .. حتى فوجئت بهذا الغزو المفاجئ لحياتى . إننى أعرف أنها متزوجة منذ ١٥ سنة .. ولا أريد بها شرا .. ولا أريد لها إلا كل الخير .. ولست فى سن النزوات والمخاطرات لكنى أعجب من حالى وأرجوك ألا تعتبر ذلك شيئا لا يستحق الاهتمام .. فالحق أنى منزعج للغاية من هذا الأمر وأخشى أن تكون له مضاعفات نفسية لا تحمد عقباها .

وفى بعض الأحيان أفكر فى الانفصال لأتخلص من تعاستى .. لكنى أعود لنفسى سريعا حرصا على مستقبل طفلى .. وكلما قرأت فى بابك رسالة عما

يحدث للأطفال الذين يتمزقون بين أب وأم منفصلين استعذت بالله من أفكارى وطردتها من رأسى شر طردة .. ثم عدت لمعايشة الوهم .. وطيف زميلتى السابقة من جديد .. إننى أسألك هل تنصحنى باستشارة طبيب نفسى .. وكيف أطرد صورة زميلتى السابقة من خيالى .. وكيف أعمل على هداية زوجتى إلى الطريق الصحيح رغم أنى بذلت المستحيل معها خلال السنوات الماضية .

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول إنه من الطبيعى أن يفر الإنسان من تعاسته إلى ذكرياته وخيالاته فالحنين إلى الماضى ورموزه إحساس تهفو إليه نفس الإنسان من قديم الزمان .. وليس منا من لم يحن إلى ماضيه « إذ الناس ناس .. والزمان زمان » كلما ضاق صدره بما يعانيه ، والحق أن ظروفك تؤهلك تماما لهذا النوع من الهروب إلى الماضى ، لأنك تفتقد دفء المشاعر بينك وبين زوجتك ، وأنت وحيد غريب بعيد عن الأهل والأصدقاء وفى مثل هذه الظروف يستعرض الإنسان كثيرا شريط حياته ويتمنى أحيانا لو كانت الدنيا غير الدنيا ، والطريق غير الطريق ، لكن هل كل ما يتمناه المرء يدركه يا صديقى .

إنها مجرد استراحة نفسية من الهموم .. تخفف الآلام .. ثم يواصل الإنسان بعدها الطريق .. ولا بأس بها ولا خطر منها إذا لم تتجاوز حدودها ولم تتعد دائرة الأفكار والخواطر إلى دائرة الفعل والمستحيل وهو استدعاء الماضى ورموزه إلى الحاضر من جديد وأعتقد أن الأمر بالنسبة لك لا يتعدى هذه المرحلة لذلك فهو لا يستدعى إستشارة الطبيب النفسى ، لأنها ليست هلاوس مرضية يختلط فيها الواقع بالخيال ، وإنما مجرد دفاع مشروع عن النفس ضد المرارة والاكتئاب .

وفى الحقيقة فإن ما تعانيه ليس هو المشكلة إنما هو عرض من أعراض المشكلة الأساسية وهى إهمال زوجتك للجانب العاطفى من علاقتها بك ، وهو خطأ قديم تقع فيه زوجات وأزواج كثيرون يترفعون غباء وحمقا بعد سنوات من الزواج عن الاهتمام بالشئون العاطفية فى العلاقة الزوجية .. ويتصورون أنها أمر لا يتناسب مع قدم العهد بالزواج وكثرة الأعباء والمسئوليات ، فيحولون بذلك العلاقة الزوجية إلى علاقة مساكنة ومشاركة فى الأعباء والمتاعب العائلية فقط ، مع أن الإنسان هو الإنسان فى كل مرحلة من العمر .. ويجب دائما أن يحس بأنه مرغوب ومطلوب لذاته وشخصه وليس فقط بسبب عقد « الشركة » الذى وقعه مع زوجته.. بل لعل حاجته لهذا الاحساس تتزايد كلما تقدم به العمر عنه وهو فى سن الشباب .. لهذا جاء فى القرآن الكريم عن الزواج إنه « مودة ورحمة » ..، وتعبير « المودة » هذا هو نفسه الحب بلغة العصر التى نستخدمها الآن .. لكن آفة البعض منا أنهم لا يجيدون التعبير عن مشاعرهم لشركاء حياتهم .. أو يضنون بذلك عليهم بعد سنين من الزواج ، رغم أهميته وحيويته لاستمرار العلاقة الدافئة بين الزوجين دائما .. لأن الحب كالزهور النادرة يحتاج دائما إلى رعاية مستمرة وإلى خدمة طويلة .. وإلا جفت أوراقها وسقطت وتعذر إحياؤها من جديد .

ويبدو أن كل ذلك قد غاب عن زوجتك .. فى غمرة انشغالها بتربية الأبناء وفى استنامتها إلى الاحساس الخادع بأن الزوج فى قبضة اليد دائما ما دام هناك أبناء . وهو إحساس يقود غالبا إلى الإهمال والتقصير.. ويفتح الباب أحيانا للمتاعب والنزوات المفاجئة بعد سنوات الاستقرار فهل لابد من زلازل دائما لكى يتنبه البعض لضرورة أداء واجباته تجاه الآخرين ؟.

إن الإنسان مطالب دائما بأن يستشعر شيئا من الخوف من احتمال فقد

الآخرين إذا تمادى فى تجاهلهم لكى يدفعه هذا الاحساس إلى الحرص عليهم وأداء حقوقهم ويبدو أن زوجتك فى حاجة إلى شىء من هذا الإحساس .. ولا شك أنك تستطيع أن تنقله إليها بحكمة .. بشرط أن تضع أنت نهاية لوحدتك بعيدا عنها .. فإن أطياف الماضى تهاجمك بشدة الآن لأنك بعيد عن أسرتك والأفضل لك أن تتحصن ضدها إما باستدعاء أسرتك للإقامة الدائمة معك ، وإما بعودتك أنت إلى عملك وبلدك ، فاختر من هذين الأمرين ما يناسبك ، لأن المرض لا يتمكن من الإنسان إلا فى حالة ضعفه ، وأنت الآن فى حالة ضعف يسهل معها غزوك بالأطياف والأشباح وقد فات الآن أوان التحسر على الماضى والندم عليه وأنت يا صديقى لم تكافح جديا فى شبابك للارتباط بمن تعايشك الآن فى خيالك بل كنت سلبيا تماما فى علاقتك بها فلا مبرر الآن للعذاب وقد خط كل إنسان طريقه بعيدا عن الآخر وأثمرت رحلتك ثمارها فأنجبت طفلين جميلين وحققت لنفسك الكثير من النجاح والتقدم . فانظر أنت أيضا إلى جوانب الصورة الأخرى المضيئة .. وارض عما أعطته لك الدنيا ، فالصوفية يقولون فى بعض أوراقهم : « إن الشيطان يغرى الإنسان بالمفقود .. لينسيه الشكر على الموجود » والموجود فى حياتك كثير ويستحق منك الشكر عليه والمفقود منها ليس بعيد المنال .. لو بذلت المزيد من الجهد والصبر والمهارة .. لكى تبقى السفينة طافية فوق الماء ..

الطريق الآخر

أنا ياسيدى فتاة فى الخامسة والعشرين ، أبى موظف بسيط ولى خمسة أشقاء ونقيم فى شقة مقبولة فى حى راق . استطاع أبى أن يحصل عليها منذ ثلاثين عاما حين كان الحصول على شقة أمرا سهلا ــ وكان الحى الذى نسكنه وقتها شبه خال ــ ثم بدأت العمارات الجديدة ترتفع فيه كل يوم حتى أصبح حيا راقيا بكل معنى الكلمة .. وحتى وجدنا أنفسنا فجأة أقل سكانه شأنا ، فجيراننا أطباء ومستشارون وتجار كبار .. ولم يعد فى عمارتنا مثلا من أسر الموظفين البسطاء غيرنا .. فوجدنا أنفسنا نعيش فى وسط غريب علينا بلا معارف ولا أصدقاء .. لانزور ولانزار ونرى حولنا الشباب من سننا يركبون السيارات ويذهبون إلى النوادى بل ورأينا أبناء بواب العمارة التى نسكن فيها يعيشون فى مستوى أفضل من مستوى حياتنا .. لأنه يجمع بين مهنته وعمل السمسار والتجارة فى الفواكه والخضر وأبناؤه يشاهدون التليفزيون الملون ويرتدون من الملابس أفضل مما نرتدى نحن .. ولولا ذكاؤه وخشيته من أن يستفز صاحب العمارة فيستغنى عنه لاشترى سيارة لتنقلاته الخاصة وقال ذلك لنا متفاخراً أكثر من مرة .. وهذه ليست مشكلتنا على أية حال .

فلكل إنسان طريقه فى الحياة وقد كان طريقنا نحن أن نتعلم ونتوظف ويتحمل كل إنسان مسئوليته عن نفسه فتخرج أخى الأكبر بالفعل من

الجامعة .. وتزوجت أختى الكبرى بعد كفاح مرير من جانب والدى لكى يجهزها وحصلت أنا على دبلوم التجارة وواصل إخوتى الدراسة فى المدارس المختلفة .. وبدأت أبحث عن عمل لكى أوفر لنفسى نفقات حياتى وادخر شيئا لزواجى حين يريد الله لى الزواج ، واستطعت الحصول على وظيفة سكرتيرة فى شركة صغيرة لتوظيف الأموال بمرتب مائة جنيه فى الشهر وفرحت بهذا العمل كثيرا .. ووجدت فيه حلا لكل مشاكلى .. ورحت أبذل كل جهدى فيه وأعمل ساعات عمل إضافية لأنال رضا رئيسى .. وأؤدى كل مهمة أكلف بها بإخلاص وحماس .. ورضى رئيسى بالفعل عن عملى فرفع مرتبى إلى ١٥٠ جنيها كل شهر ، وسعدت بذلك كثيرا .. وتغيرت نظرتى للحياة وأصبح مظهرى لائقا .. وارتديت الحجاب كاملا . تعبيرا عن شكرى لنعمة الله على .. وبدأت ابتسم للحياة وأتفاءل بالمستقبل .. لكن دوام الحال من المحال كما يقولون فبعد عامين ونصف من عملى بهذه الشركة فوجئنا بالشرطة تلقى القبض على صاحبها لصدور عدة أحكام ضده .. وأغلقت الشركة أبوابها ووجدت نفسى مع زملائى فى الشارع .. وعدت إلى الفراغ والخوف من المستقبل من جديد .. فأمضيت عدة أسابيع فى البيت أصبحت خلالها مدمنة لقراءة أبواب الوظائف فى الصحف .. وحفيت قدماى من الذهاب إلى الشركات والهيئات لتقديم طلب العمل بلا فائدة .

ومرت الشهور ثقيلة بطيئة وما ادخرته من مرتبى يتسرب من بين أصابعى بغير أن تلوح أية بادرة أمل وذات صباح قرأت إعلانا عن كازينو يطلب مضيفات للعمل به . وتوقفت أمامه طويلا .. ودارت برأسى الأفكار فاستعذت بالله منها ، وطويت الصحيفة .. ثم وجدت نفسى بعد فترة أعود إليها مرة أخرى وأفتحها على صفحة الإعلان وأقرؤه من جديد وأفكر .. ثم

وجدت نفسى أنهض وارتدى ملابسى وأخرج إلى العنوان المذكور فى الإعلان وأتقدم إلى المسئول طالبة الوظيفة ! وتفحصنى المدير بنظرة ذات معنى .. وقبل أن يتكلم قلت له حجابى ليس مشكلة لأنى سأخلعه فى العمل وارتديه عند خروجى منه .. والعجيب أنه أشفق على وأدرك مدى احتياجى للعمل فوافق على تعيينى فيه فعدت إلى البيت وأخبرت أبى وأمى أنى وجدت عملا كسكرتيرة فى شركة صغيرة ، وفى اليوم التالى ذهبت إلى العمل حاملة معى فستانا من فساتينى القديمة قبل التحجب ودخلت إلى غرفة اللبس وارتديته ثم خرجت إلى العمل ، أحمل المشروبات للرواد واتنقل بين الموائد وأتلقى النظرات الجائعة وأتلقى مداعبات السكارى ٧ ساعات كاملة .. حتى انتهت نوبتى فعدت إلى غرفة اللبس وخلعت الفستان القصير وارتديت ملابسى المحتشمة وانصرفت مهتزة الأعصاب ، وعدت إلى بيتى وبكيت بكاء مرا واعتزمت ألا أعود إلى هذا المكان مرة أخرى ، ونمت باكية لكنى وجدت نفسى أنهض فى الصباح نشيطة وارتدى ملابسى وأتوجه إلى عملى الجديد وفى اليوم التالى وجدت فى انتظارى يونيفورم العمل الموحد بعد أخذ مقاساتى فى أول يوم .. ووجدته فستانا قصيرا خليعا فترددت قليلا .. ثم ارتديته وخرجت إلى القاعة ومرت الأيام ثقيلة .. وفى كل يوم أقرر أن أترك العمل وأنام باكية ثم أنهض فى الصباح كأنى إنسانة أخرى وأذهب إليه .. وبعد أسابيع بدأت أتغير تدريجيا فبدأت أضيق بالحجاب الكامل .. وبالفستان الذى يجرجر فوق الأرض فقصرته قليلا .. ثم ضقت بطرحتى الكبيرة فاستبدلتها بمنديل صغير يغطى رأسى وجزءا من رقبتى وبعد أن كان وجهى لايعرف الماكياج . بدأ الماكياج يتسلل إليه بل وبدأت حين تضيق نفسى مما أواجه من متاعب العمل أطلب سيجارة من إحدى زميلاتى وأدخنها فى حجرة اللبس . ثم

بدأت أشترى السجائر وأدخن بانتظام .

وتضاعفت الأزمة حين جاء شهر رمضان وهفت نفسى إلى الصوم والصلاة.. فعدت إلى طبيعتى ودعوت الله أن يغفر لى.. ثم انتهى شهر رمضان وجاء موسم الصيف وهو موسم نشاط الكازينو ووجدت نفسى أندمج فى العمل من جديد واستمر فيه حتى الآن..٧ شهور كاملة يا سيدى وأنا أمارس هذا العمل بلا قبول منى ولا رفض له تهدأ نفسى فترة، وتتعذب فترة أخرى.

أريد أن أتوقف عن هذا العمل الذى أخشى أن أفقد نفسى فيه .. وأخاف فى نفس الوقت من أن أفقد دخلى منه وهو موردى الوحيد الآن ولا أستطيع أن أطلب من أبى أية مصروفات لعلمى بما يعانيه ولا أستطيع أن أعود لمسح القاهرة كل يوم بحثا عن عمل .. ولا أطيق الانتظار الطويل لخطاب التعيين . أما أكثر ما يؤرقنى فهو استغلال ثقة أهلى بى الذين يتصورون حتى الآن أنى أعمل فى شركة وأنى مازلت الابنة التى يعرفونها لقد فعلت ما فعلت غصبا عنى وتحت ضغط الظروف التى مررت بها .. فهل تستطيع أن تهدئ خواطرى ؟!.

□□ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : إن الطريق إلى الخطيئة يا آنستى مفروش دائمًا بدعاوى الاضطرار ! مع أنى من المؤمنين بأن الضرورات تبيح أحيانا المحظورات ، فإن هذا القانون لايمس فى النهاية المحظورات الدينية والخلقية فضلا عن أنى لا أجد فى ظروفك مايمكن أن تبررى به تقديم أى تنازل من هذا النوع ، فلا أنت رب أسرة مسئول عن توفير لقمة العيش لهم ، فيقبل أى عمل ولو كان غير لائق مرددا لنفسه كلمة الصحابى الجليل أبى ذر الغفارى « عجبت للرجل لا يجد قوت عياله .. كيف لايخرج على الناس شاهرا سيفه ! ».

ولا أنت رشيدة الأسرة الممزقة بين نداء الواجب الذى يطالبها بتوفير نفقات جراحة عاجلة لأمها المريضة وبين نداء الضمير الذى يطالبها بعدم التفريط والتنازل كما نرى فى الأفلام السخيفة التى تبرر دائما الضياع بمثل هذه الأسباب الدرامية المفتعلة ..

فما المشكلة إذن ؟ إنك لم تتعطلى سوى عدة أسابيع بين عملك الأول وعملك الثانى والألوف من حملة هذا الدبلوم البائس الذى لا أعرف لماذا توسعنا فيه وخريجوه لايجدون العمل ، ينتظرون بالسنوات إلى أن يجدوا الفرصة .

إن المشكلة فى تصورى هى الاستعجال وفقدان الصبر .. وعفوا إذا قلت لك والاستسهال أيضا الذى يفتح الطريق دائما للتنازل والتفريط . فأنت مهمومة أكثر مما ينبغى بالذين يركبون السيارات ويذهبون إلى النوادى .. وبأبناء البواب الذين يعيشون فى مستوى أعلى من مستوى حياتكم .. وترغبين فى أن تنالى حظا مماثلا من الحياة ، ولا بأس بذلك لأن من حق كل إنسان أن يتطلع إلى حياة أفضل .. بل ومن حقه أيضا أن يتحدث بمرارة عن تناقضات الحياة وعن الفوارق الشاسعة بين « من يجدون مالاينفقون ومن لايجدون ماينفقون » على حد التعبير الشائع لعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، لكنه ليس من حقه بالتأكيد أن يلتمس طريقه إلى هذه الحياة الأفضل بأية وسيلة ولو كانت غير لائقة أو غير مشروعة ، وإلا لتحول المجتمع إلى غابة البقاء فيها للأقوى . ومن أخطر مايهدد سلام الإنسان واحترامه لنفسه أن يتناقض سلوكه تناقضا أساسيا مع قيمه ومبادئه المعلنة ودلالات مظهره .

وأنت قد أسأت إلى نفسك كثيرا بهذا التناقض المخجل بين عملك وسلوكياتك فيه وبين مايوحى به مظهرك من التزام وتدين . وليست المشكلة فى

الحجاب فى حد ذاته لأنه ليس فى النهاية كل شىء .. والمظهر وحده لايكفى للحكم على الجوهر. لكن المشكلة هى فى هذا التناقض المعيب وفيما يحمله من خداع للآخرين ، وهو خداع لايخلق الثقة ولايولد الاحترام وإنما يضع صاحبه دائما موضع الريبة والشك. وفى حالتك هذه بالذات فإن أى شاب يلمس هذا التناقض فى حياتك لايمكن أن يمنحك ثقته ولا أن يرى فيك الشريكة الملائمة له .. وإنما سيخشى الارتباط بك بأكثر مما يخشى الارتباط بأية فتاة متحررة أخرى ، لأن الفتاة التى تواجه المجتمع بتحررها حتى ولو اختلفنا معها فيه هى فتاة منطقية مع نفسها لاتخدع أحدا ، أما من يتناقض سلوكها مع دلالات مظهرها فهى فتاة مخادعة لايأمن الإنسان لها ولايمكن أن يثق فيها . فلماذا وضعت نفسك فى هذه الصورة وربما كنت أفضل مما توحى به بكثير؟.

إننى أعتقد أنك لم ترتدى الحجاب أصلا عن اقتناع داخلى كامل به وأغلب ظنى أنك ارتديته مسايرة للجو فى الشركة الأولى التى كنت تعملين بها وربما زلفى لصاحب العمل لكى تنالى رضاءه .. لهذا لم يصعب عليك كثيرا أن تتخلصى منه . ولا أن تمارسى عملا وسلوكا يتناقضان معه تناقضا أساسيا . وهذه هى مشكلتك الأساسية ، أما استغلالك لثقة أسرتك فيك ، فهى مشكلة أخرى تعكس نوعا آخر من الخداع لايليق بك ، وإن كنت لا أعفى أباك وشقيقك من المسئولية فى ذلك ، إذ كيف تعملين كل هذه الشهور فى هذا المكان بغير أن يفكر أبوك أو شقيقك فى استكشاف « الشركة » التى تعملين بها والاطمئنان على وضعك فيها .

إننى آسف لأنى لم أستطع أن أهدئ خواطرك كما تطلبين منى .

لكنى قد أستطيع أن أساعدك على أن تضعى قدميك على الطريق الصعب

الذى يمضى فيه الألوف من الشباب من أمثالك ويتحملون صعوبته ووعورته وشح مائه .. وقلة عطائه لأنه الطريق الطبيعى لهم .

أما الطريق السهل الآخر الذى تنجرفين إليه الآن .. فهو ليس طريقهم مهما كان عطاؤه .. ومهما كانت لديهم من أسباب حقيقية وغير مفتعلة « للاضطرار » فهل أنت على استعداد لتحمل تبعات هذا الطريق الصعب ؟.

الحصاد

سيدى أريد أن أشارك فى بابك بقصتى لإيمانى بأن ذلك هو طريقى الوحيد الآن لطلب الرحمة والغفران .. فأنا سيدة فى منتصف العمر تزوجت منذ سنوات بعيدة من رجل أنانى ربته أمه على أنه الوثن المعبود المميز على أشقائه ، وربت شقيقتيه وشقيقه الأصغر على تجنب ثورته . فعشت معه فى البيت الكبير أدور فى فلكه وأرى أمه تخضع له ، وبعد زواج الأشقاء ورحيل الأب خلا البيت لنا أنا وزوجى وأمه .. فبدأ زوجى يخطط للتخلص من إقامة الأم معه وجاءت الفرصة حين توفى زوج شقيقته فأصبحت وحيدة مع أبنائها ، فافتعل خلافا مع أمه وأجبرها على الإقامة مع شقيقته زاعما للجميع أن ابنتها أولى بها وبرعايتها .

وكان والد زوجى قبل رحيله قد أراد أن يؤمن مستقبل زوجته فباع بعض عقارات قديمة كانت قد ورثتها وأدخل زوجته كشريكة له بالنصف فى عمل يديره ويحقق دخلا معقولا . وعندما رحل عن الدنيا كان من الطبيعى أن يدير زوجى هذا العمل ، وكان عملا ناجحا فتسلم زوجى إدارته وواصل نجاحه لكنه منذ اليوم الأول الذى تسلمه فيه لم يعطها مليما من عائده بحجة أن العمل مضطرب وأنه لم يكتسب بعد الخبرة الكافية لإدارته .

وأحست الأم بحاجتها إلى مال سائل يغنيها عن طلب النقود من أبنائها

فباعت آخر ماتبقى لها من ميراثها وكان قطعة أرض زراعية .. وسلمت ثمنها للابن المعبود رغم كل مابدر منه لكى يشترى لها به شهادات استثمار تدر عليها عائدا شهريا .. فوجد زوجى فى ذلك فرصته لتأمين مستقبل الأبناء وكنا قد أنجبنا ابنا وإبنة ، فاشترى الشهادات باسمه هو وأصبح يقبض كل شهر عائدها فيعطيها جزءا منه ويحتفظ بالباق لنفسه .. وصارحنى بذلك ولا أنكر أنى وافقت عليه بل وفرحت بالمبلغ الشهرى الكبير الذى أصبح يتقاضاه من الشهادات فضلا عن قيمة الشهادات نفسها التى أصبحت ملكا خالصا لأبنائى فى المستقبل ..

ومرت سنوات دون أن تبدر من الأم أية بادرة شك تجاه زوجى ولكن أيضا دون أن نستمتع نحن بهذا المال لأن زوجى أصبح أكثر حرصا على ألا تبدو علينا مظاهر العيش فى بحبوحة حتى لايثير شك أمه وأشقائه فمضت زهرة العمر وسنوات الشباب ونحن محرومان من الاستمتاع بمتع الحياة وبالعيش فى مستوانا الحقيقى .. خاصة أن العمل الذى أداره زوجى لم يعط العائد الكبير الذى توقعناه فأصبحت النقود التى امتلكناها مجرد أوراق مخزونة فى البنك نحتاج إليها ولانستطيع الاقتراب منها لكيلا نثير الشكوك .

واستمر الحال هكذا حتى رحلت الأم عن دنيانا غير راضية عنا بكل تأكيد وعقب رحيلها اجتمع الأشقاء فى البيت الكبير .. فأعلن عليهم زوجى بكل ثبات أن أمهم لم تترك شيئا وراءها .. فالشهادات باسمه فى البنك منذ زمن طويل والعمل الذى يديره قد نقل ملكيته له منذ سنوات فى الأوراق الرسمية ، بغير أن تعرف الأم أو الأشقاء أما البيت فهو يقيم فيه ومن حقه الانتفاع به مدى الحياة ، فخرج الأشقاء من بيتنا محسورين مكلومين داعين علينا وعلى أولادنا فى أعماقهم بالبوار والخسران ، وقابل زوجى الموقف ببرود

شديد ولم يهتم حتى بوداع شقيقته التى جاءت من بلدة بعيدة لتحضر وفاة أمها .

وخلت الدنيا لنا بعد ذلك تماما .. فلا خوف من حساب .. ولاخشية من أن تظهر علينا مظاهر الثراء وأصبحت أنا سيدة البيت الكبير بلا منافس .. فاطمأنت نفسى إلى ذلك .. واستعددت لكى نعوض سنوات الحرمان الطويلة .. وتطلعت إلى الاستمتاع بالدنيا والمال والسعادة .. فبدأنا نعيش فى مستوى يتناسب مع وضعنا الاجتماعى واشترينا سيارة وأمضينا اجازة فى المصيف لأول مرة أنفقنا فيها مايزيد على ألف وخمسمائة جنيه بعملة تلك الأيام منذ سنوات ، واشترينا التليفزيون الملون الكبير بعد أن كنا نشتاق إليه ونخاف من شرائه حتى لاتحاصرنا الشبهات ، ثم اشترينا أحدث جهاز للفيديو ظهر فى الأسواق وقتها وغيرنا الثلاجة المصرية القديمة بثلاجة مستوردة « ١٦ قدم » ببابين لتتسع لأطايب الطعام والفواكه التى كنا نتحفظ فى شرائها إمعانا فى التخفى ، واشترينا الملابس الفاخرة لنا ولأبنائنا وساعدنا على ذلك أن العمل قد ازدهر فعلا بعد أن استفاد زوجى بثمن الشهادات فى توسيعه . وعرفنا الثراء ولم يقلل من استمتاعنا به تأنيب الضمير .. أو إحساسنا بأننا اغتصبنا حق الأشقاء الذين يعيشون حياة بسيطة ويعانون من صعوبات الحياة فزوجى قد تربى على أنه المميز على أشقائه ومن الطبيعى أن يعيش فى بحبوحة .. وأن يعيشوا هم حياتهم البسيطة لأنه الكبير .. العظيم .. الممتاز واشتدت صعوبة الحياة على شقيقه الوحيد فاضطر إلى الهجرة إلى السعودية لكى يستطيع أن يتزوج فانقطعت صلته بنا . كما انقطعت تقريبا صلة شقيقتيه بنا فأصبحت الشهور الطويلة تمر بغير أن تزورنا إحداهما .. وبغير أن يدق جرس التليفون من جانبها أو جانب الشقيق ولم يهتم زوجى بالأمر أما أنا فقد

شغلت بحياتى الجديدة .. وشغلت أكثر بالعبء الثقيل الذى وقع على بعد رحيل أم زوجي وهو عبء إرضاء الصنم المعبود الذى اعتاد أن يكون محور الأشياء ومركز الكون ..، فبعد رحيل أمه وتباعد الأشقاء أصبحت مسئولية ارضائه تقع على وحدى فناء كاهلى وشهدت حياتنا الخلافات المستمرة وأصبحت بها حياتى معه خناقة مفتوحة إلى مالا نهاية ، وفى هذا الجو تخطى ابنى وابنتى سن الطفولة ودخلا مرحلة المراهقة .. فنشآ فى جو مفعم بالخلاف والكراهية .. فكثرت مصادمتهما معا .. وكثرت مشاكلهما .. حتى ترسخ فى قلبى إنهما يتبادلان الكره الشديد وساعد على ذلك أن ابنى الوحيد قد ورث عن أبيه الاعتقاد الخاطئ بأن الرجل ماهو إلا حنجرة عالية وأن هذا مايميزه عن المرأة ، ففرض سطوته على شقيقته واضطهدها بسبب وبلا سبب حتى انهارت ذات يوم وانتابتها نوبة عصبية شديدة فأسرعنا باحضار الطبيب الذى أعطاها بعض المهدئات ونصح شقيقها بعدم إثارتها .. فاستهجن النصيحة واعتبر ماحدث لها مجرد دلع لكيلا يحاسبها أحد على شيء .. وواصل طريقته فى استفزازها حتى انهارت مرة أخرى بعد أيام .. وجاء الطبيب وأعاد فحصها ثم نصح باستشارة طبيب للأمراض العصبية ذهبنا إليه ففحصها بعناية ثم نزل على رءوسنا بالحقيقة القاسية وهى أنها مريضة بالصرع ولا شفاء لها منه سوى توفير الجو الهادئ لها وعدم استثارتها ، والاستمرار فى العلاج النفسى والعصبى إلى الأبد فبدأنا متاهة العلاج لدى الأطباء النفسيين والعصبيين .. وأصبحت حياتها وحياتنا معا جحيما لايطاق إذ كيف يثمر معها العلاج فى مثل هذا الجو المتوتر .. ثم ماذا عن مستقبلها وقد قاربت سن الزواج وتعثرت فى دراستها .. وأصبح من الصعب أن تجد من يرضى بزواجها وهى مريضة نفسيا وعصبيا وتهاجمها نوبات الهياج من حين لآخر.

هذا هو حال ابنتى الوحيدة أعانها الله عليه .. أما ابنى الصنم الصغير فقد تعثر فى دراسته أيضا وفشل فى الحصول على الثانوية العامة مرتين ثم توقف عن استكمالها وانضم إلى أبيه فى العمل الحر .. وبلغ سن الشباب .. فأحب فتاة من جيراننا وطلب الزواج منها فعارضت لأنه لم يتجاوز الواحدة والعشرين .. لكنه أصر .. وكيف لا وهو الرجل الذى لاترد له كلمة فخضع أبوه لرغبته وتم الزواج وانتقلت الزوجة الشابة إلى البيت الكبير لتعيش معنا .. فلم تحتمل الحياة معه بطباعه الأنانية التى ورثها عن أبيه أكثر من شهور وطلبت الطلاق وأصرت عليه وعادت إلى بيتها ، وبعد عام آخر أحب ابنى فتاة أخرى وتزوجها بلا معارضة منى ولا من أبيه هذه المرة بل لعلنا شجعناه على ذلك لكى يعوض فشله فى الزواج الأول ، لكنها لم تعش معه سوى عشرة شهور طلبت بعدها الطلاق وأصرت عليه حتى نالته ، فيئس ابنى من أن يجد من تتحمله بطباعه وصفاته هذه .

أما زوجى رب هذه الأسرة المفككة المنهارة فقد هاجمه الشلل النصفى عقب طلاق ابنه الثانى ومرض ابنته بالصرع .. فأقعده المرض فى البيت وأصبح .. غفر الله لى .. عبئا ثقيلا نفسيا وماديا على البيت لأنه أصبح يحتاج إلى أضعاف أضعاف الخدمة والرعاية التى كان يحتاجها من قبل وإلى أضعاف أضعاف الاحساس بأنه مازال الإله المعبود وأننا مازلنا العبيد الصاغرين .

وفى هذه الأيام العصيبة ظهر فى جدران البيت الكبير وهو منزل قديم واسع من دورين فى إحدى مدن الأقاليم شرخ كبير ، فاستدعينا المهندس لمعاينته .. فجاء وفاجأنا بقوله إن المنزل آيل للسقوط خلال شهور وأنه لافائدة من ترميمه ولابد من مغادرته خلال فترة قصيرة قبل أن ينهار .. فنزل علينا الخبر كالصاعقة فلقد تغيرت الدنيا فى السنوات القليلة الماضية وأصبح الحصول

على منزل آخر أو شقة واسعة يتطلب عشرات الألوف التى لم نضعها فى الحسبان كما أن إعادة بنائه ، عبء ثقيل لانستطيع احتماله الآن .

ولم يصدق زوجى كلام المهندس فأحضر مهندس الحكومة فى المدينة لمعاينة البيت فعاينه .. وكرر نفس الكلام وزاد عليه أنه أرسل إلينا إنذارا رسميا بمغادرته قبل انهياره ، فاستسلمنا لنصيبنا واستأجرنا شقة صغيرة بإيجار باهظ إنحشرنا فيها جميعا بعد أن اعتدنا على المسكن الواسع .. ونقلنا بعض أثاثنا إليها .. ولم يمهلنا القدر لنقل البعض الآخر لأن البيت قد انهار فوقه .. وحمدنا الله أن نجونا منه وان كنت قد أسفت على كثير مما راح تحته .

وفى هذا الجو الكئيب زاد النفور بين زوجى وابنى حتى وصل إلى حد كراهية الابن لأبيه بعد أن أصبح هو المسئول الوحيد عن العمل بعد مرض زوجى وأصبح يتصرف فى بعض الأمور دون استشارته فيثور عليه أبوه ، فلا يتورع ابنى عن أن يرد على ثورته بثورة أشد حتى كادت الأمور تصل بينهما إلى ماهو أسوأ من ذلك لولا تدخل الجيران فى الوقت المناسب وبعد أن أصبحت سيرتنا على كل لسان .. ووجدت نفسى الضحية فى كل ذلك فضاقت نفسى بكل شىء .. وكرهت بيتى وحياتى وأيامى وطلبت من زوجى أن أحج إلى بيت الله الحرام لأطلب من الله أن يرحمنا برحمته وأن ينقذ بيتنا التعيس من الانهيار ووافق زوجى وسافرت إلى الأراضى المقدسة وأديت المناسك وبكيت طويلا أمام قبر الرسول وحول أستار الكعبة وبعد انتهاء مناسك الحج صفت روحى فخطر لى أن أزور شقيق زوجى الأصغر الذى يقيم هناك وأن استعيد علاقتنا معه ، فذهبت إليه على عنوانه فاستقبلنى الرجل وزوجته وأولاده أحسن استقبال ورحبوا بى غاية الترحيب وتجنبوا الحديث عن الماضى وحاولوا بإصرار استضافتى لعدة أيام وسألنى الرجل عن أحوال زوجى وكان يعرف كل

شيء من خطابات شقيقته .. وتألم لحاله ودعا له بالشفاء وأمضيت معهم وقتا لم أشعر بمثل هنائه وصفائه منذ سنوات طويلة ورأيت أسرة سعيدة هادئة تعيش فى جو من الحب والألفة والسلام وقد نجح الأبناء فى دراستهم والجميع يظللهم الحب والتدين والوفاء وقد تجنب شقيق زوجى السفر إلى مصر لكيلا يلتقى بشقيقه بعد ماحدث منه فكان يمضى اجازاته الصيفية كل سنة فى بلد من بلاد العالم الجميلة وأرونى ألبوما به صورهم وهم فى مختلف البلدان سعداء ضاحكين فرحين بما أتاهم الله ويتبادلون الحب والإعزاز ولم أستطع تحمل المقارنة أكثر من ذلك وخرجت من تلك المقابلة بشىء واحد هو أننى قد صمت فى الماضى على طمع زوجى بحجة تأمين مستقبل الأولاد فوجدت نفسى أمام مستقبل أسود كئيب فقد فيه أولادى الحب والدفء والسلام ، وعرفت أننى لن أستطيع حتى طلب الرحمة بعد أن فات أوان التوبة إذ كيف أرد الحق المسلوب وقد مضى كل شيء منذ سنوات ولم أعد أستطيع رد المال لأصحابه .. فوجدت نفسى فجأة تمتلئ حقدا على زوجى بل وعلى شقيقه وأولاده أيضا وعدت إلى مصر ولم أستطع أن أواجه زوجى بما رأيت فى بيت أخيه ولما حاولت أن أفتح معه الموضوع لم أجد عنده أية رغبة فى تصحيح الأوضاع بل وجدته مصرا على أن المال وماتبقى منه هو حقه لأنه ضحى كثيرا واحتمل أمه كثيرا كما ضحى بوقته ورعى العمل الذى تركه أبوه فتأكدت من أنه قد لف الحبل حول عنقه إلى الأبد وأحزننى أن هذا الحبل قد اعتصر شباب أولادى بلا ذنب جنوه فلم أجد أمامى سوى أن أكتب إليك لأحذر الآخرين من أن يقعوا فى نفس الوهم الذى وقعت فيه عسى أن يغفر الله لى ولأبنائى !.

□ □ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : لم تضع الفرصة بعد يا سيدتى حتى ولو بدا

لك أن زوجك مصر فى جهالته على أن يبوء بالخسران المبين فالحق أن مسئوليتك عما حدث أكبر مما تتصورين ومسئوليتك عن إعادة الحق لأصحابه أكبر من مجرد مفاتحة الزوج فى الأمر ثم النكوص سريعا أمام إصراره . لأنك ساهمت بقدر عظيم فى الجريمة بسكوتك عن الحق فى حينه « والساكت عن الحق شيطان أخرس » وبتشجيعك له على العدوان على حقوق أمه وأشقائه والمشجع على الإثم شريك فيه حتى ولو لم تقترفه يداه .

بل إن مسئوليتك تتجاوز كل ذلك وتفوقه لأنك لو كنت تصديت لزوجك منذ البداية وأبيت عليه أن يغتصب مال أمه وأن يربى أبناءه بمال حرام لما تمادى فى غيه ولما وجد من يعينه على ظلمه لأن وسواس الشر لو اصطدم بإرادة قوية خيرة يمكن أن ينهزم ويتراجع والزوجة مسئولة عن أن تعصم زوجها وترده عن السطو على مال الغير ، لأن آثاره سوف تنسحب على حياتها وحياة أبنائها .. وكثير من الزوجات الصالحات كن صمام الأمان بالنسبة لأزواجهن بتعففهن عن الحرام وتصديهن لضعف بعض الأزواج واستجابتهم لوساوس الشر ، لكنك تخليت عن دورك الأساسى هذا وباركت وشجعت .. فلقنتك الحياة درس التجربة القديمة قدم التاريخ .. وهو أن المال الحرام لايغنى ولايسمن من جوع ولايجلب سوى الخراب النفسى والجسمى لأصحابه ، ولا يؤمن مستقبل الأبناء ، كما يوهم البعض أنفسهم مبررين لها هذه الجريمة وإنما يؤمنه لهم فقط خير الزاد الذى يستطيع كل إنسان أن يورثه أبناءه لو التزم بقول الحق سبحانه وتعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا » .

فليتقوا الله يا سيدتى وليكسبوا المال الحلال ولو كان شحيحا وليس « فليسرقوا » مال الأمهات والأشقاء أو « فليرتشوا » ويختلسوا .. وينهبوا المال العام

ويسرقوا أموال البنوك وراغبي السفر للخارج وراغبي السكن .. وغيرهم من ضحايا السعار العام الذى ينتاب البعض أملا فى الثروة .. وطلبا للأمان الزائف لهم ولأبنائهم .

هذا هو الطريق ياسيدتى وليس غيره .. وقصتك أبلغ دليل وأقوى حجة على من تضعف إرادتهم أما المغريات إذ ماذا حقق لكم المال المغتصب .. وقد لمست بنفسك حياة شقيق زوجك الذى فاز بالكرامة والسلام والحب وصلاح الأبناء ورضوان من الله أكبر وذلك هو الفوز العظيم .

إن من حقك أن تأسى بنصيبك من الشقاء .. وأن تقارنيه بنصيب شقيق زوجك وشقيقتيه أيضا لكنه ليس من حقك أبدا أن تحقدى على شقيق زوجك لأنه ليس مسئولا عما أصابكم من كوارث وإنما المسئول عنها هو أنت وزوجك الذى عق أمه وخان الأمانة فعجل الله له العقاب فى الدنيا واعتصر الحبل الذى يلفه حول عنقه كما قلت أنت صادقة ابنيك فشلا فى دراستهما وفى حياتيهما .. وعانت ابنتك من الأمراض العصبية والنفسية . وفسدت علاقة ابنك بأبيه حتى ليكاد يعتدى عليه لولا تدخل الجيران ولا عجب فى ذلك لأن من عق أبويه عقه ولده كما يقول الحديث الشريف ولأن من كان فى جحر الأفاعى ناشئا غلبت عليه طبائع الثعبان ، والقصة قديمة ولا جديد تحت الشمس فحصاد الظلم شقاء وتعاسة وفشل فى الدنيا والآخرة .. ومع ذلك فقليلون هم من يعون درس التجربة .. وكثيرون هم من يصرون على تكرار الخطيئة فيشربون من الماء المالح فلا يرتوون .. ولايبرد لهم ظمأ .. ولايكفون عن الشكوى والأنين . لقد خسرت كل شىء ياسيدتى ومن واجبك أن تدافعى عن فرصتك الأخيرة لاستعادة سلام النفس وراحة القلب والضمير قربى لله وأملا فى رحمته لأبنائك قبل رحمته لك ، وليس أمامك سوى أن

تقاتلى لاقناع زوجك بأن يطهر نفسه وأسرته من أدران هذا المال الملعون ... فإذا عجزت بعد الجهد الجهيد كان لك أن تقولى صادقة أنك قد أبرأت ضميرك وذمتك ونفضت يدك من جريرته .. وإن كانت كثيرات غيرك يرفضن التسليم بالعجز فى مثل هذه الحالة ولو أنصف زوجك لما تمسك بالمال الحرام وهو يرى نفسه فريسة للعجز والمرض ، وابنته فريسة للمرض العصبى وابنه شاردا نافرا فاشلا قد ملأ الكره قلبه تجاهه .. فيحاول أن يطهر نفسه وينقذ روحه وأسرته لطريقين لاثالث لهما هما أن يعيد لأشقائه مالهم المغتصب ويسألهم العفو والغفران أو أن يستوهبهم هذا المال إذا كان عاجزا حقيقة عن رده ، فيقبل الأشقاء رجاءه ويتنازلون له عنه بنفس راضية وقلب صفوح ..

أما بغير ذلك .. فلا أمل .. ولانجاة .. ولا رجاء فى مغفرة أو سعادة أو أمان .

إن المال الحرام لايغنى ولايسمن من جوع ولايجلب سوى الخراب النفسى والجسمى لأصحابه ولايؤمن مستقبل الأبناء . كما يوهم البعض أنفسهم مبررين لها الجريمة . وإنما يؤمنه لهم فقط خير الزاد الذى يستطيع كل إنسان أن يورثه أبناءه .

القسط الأخير

أنا شاب فى السادسة والثلاثين من عمرى ماتت أمى وأنا طفل فى الخامسة من عمرى وتركتنا ثلاثة أطفال أكبرنا فى السابعة وأصغرنا طفلة فى الثالثة فى رعاية أبى الموظف بإدارة إحدى الجامعات بالقاهرة وبعد رحيل أمى رفض أبى الزواج واستعان بسيدة كانت تعمل لدينا على رعايتنا فى فترة الصباح إلى أن يعود هو من عمله ليتفرغ لنا حتى نأوى إلى فراشنا مكدودين آخر الليل ومضت السنوات وأبى يحنو علينا ... ويتولى شئوننا ويذهب معنا إلى المدرسة ليتابع تعليمنا .. ويسأل جاراتنا العون إذا عجز عن التصرف فى بعض شئوننا خاصة شئون شقيقتى حين احتاجتا إلى مشورة السيدات فى بعض أمورهما وكان أبى راضيا بقدره وقدرنا رغم ما كان ينتابه أحيانا من مسحة ألم فى وقت الأصيل وهو يجلس فى الشرفة يسمع بعض الأغانى الحزينة من الراديو وفى جلساته هذه كان يقول لى دائما أنت رجل الأسرة من بعدى الذى سيحمى شقيقتيه من غدر الدنيا .. فكن رجلا وتحمل مسئوليتك ..

ورغم سنى الصغيرة فى هذا الوقت فلقد كنت أحس لكلماته معنى غامضا يدفعنى لأن أترفع فى أحيان كثيرة عن ألعاب الصغار واستشعر المسئولية دائما عن شقيقتى حتى عن الكبرى منهما ورغم تحسرى الآن على سنوات طفولتى التى لم أستمتع بها إلا أنى أدركت بعد نظر أبى . حين رحل عنا هو الآخر فجأة وأنا فى

سن الخامسة عشرة ووجدت نفسى كما كان يقول لى دائما « رجل الأسرة » .

وبعد رحيل أبى وانصراف المعزين قرر عمى أن يضمنا إلى بيته لنعيش مع أبنائه وأبلغنى بأنه سينقل أوراقنا إلى مدارس قريبة من بيته .. فوجدت نفسى وبغير استشارة أحد أشكره وأرفض دعوته بحزم لأسباب محددة شرحتها له بثبات هى أن شقته ضيقة ولا تتسع لغير أهلها ولأن أبناءه أولاد فى سن الشباب .. وليس فى الشقة غرفة يمكن تخصيصها للبنات ومن غير المعقول أن ننام جميعا فى غرفة واحدة فى حين أن فى شقتنا غرفة لها وقلت له أننا اعتدنا على الحياة وحدنا منذ الصغر ولن يصعب علينا استكمال المشوار بنفس الطريقة ، واستمع عمى إلى كلامى وطفرت الدموع من عينيه وقال لى إنه مقتنع بما قلت لكنه يريد أن يسمع رأى شقيقتى فأيدتانى فيما قلت .. فتركنا لما أردنا وهو مشفق علينا .. وتفرغ لانهاء أوراق المعاش حتى تم صرفه وأصبح يجيئنا كل شهر حاملا لنا المعاش ويتردد علينا من حين إلى آخر ليطمئن علينا .

وعلمتنا الحياة دروسها الجديدة فى كل يوم مر بنا .. فتعلمت شقيقتى الكبرى التفصيل عند إحدى جاراتنا لتفصل لنا ملابسنا المنزلية .. ثم فرضت علينا ظروف الحياة بعد قليل أن تفصل لنا ملابس الخروج ، حتى أصبحت تفصل لى قمصانى وبنطلوناتى وأصبحت واجبات البيت مقسمة بيننا نحن الثلاثة بالعدل .. وأصبحت ميزانية البيت من نصيبى فتحملتها ورغم تجلدنا وصبرنا فلقد كان يحدث أن يختل الميزان ، فنعجز عن سداد فاتورة الكهرباء وكانت أيامها بالقروش وليس بالجنيهات كما هى الآن . فيأتى المحصل فلا يجد نقودا فيترك الفاتورة للسداد خلال ١٥ يوما فلا تتوافر لنا النقود ، فيأتى العامل لقطع التيار وإعطائنا مهلة لمدة أسبوعين للسداد أو رفع العداد ولأن الحاجة هى أم الاختراع .. فلقد تعلمت أن أواجه كل هذه المواقف بثبات بل وتعلمت أن أقوم

بعد قطع التيار وانصراف العامل ، بإعادة التيار بالصعود على سلم إلى مكان « الكوفريه » ووضع قطعة سلك جديدة فيه لكيلا نحرم من الاضاءة خلال فترة المهلة .. وتكررت الحكاية مرتين .... وفى الثانية نظر العامل وكان رجلا فى الخمسين من عمره إلى وإلى شقيقتى وأدرك الموقف بلمحة فقال لى بأريحية : هذه أيام امتحانات لهذا لن أقطع الكهرباء عنكم .. وسأؤخر رفع العداد قدر استطاعتى لكن حاولوا أن تدفعوا قبل المهلة حتى لا تتحملوا غرامة رفع العداد .. وودعنا مبتسما وشكرناه ولم يقطع التيار عنا بعد ذلك مهما تأخرنا بل كان يأتى لينبهنا إلى قرب انتهاء المهلة لكى ندفع المتأخر علينا .

أما الإيجار فلقد كنت أحرص على دفعه كل شهر عندما أتسلم المعاش من عمى .. لكن ذلك لم يمنع من أن أعجز عن دفعه فى الموعد المحدد فى بعض الحالات الطارئة خاصة حين دخلت شقيقتى معهد التربية البدنية واحتاجت إلى شراء بعض الملابس الرياضية وبعض النفقات ، أو حين دخلت أنا الجامعة وزادت نفقات الكتب والدراسة أو حين احتاجت أختى الصغيرة إلى بعض الدروس وهى فى الثانوية العامة . والحق أن صاحب البيت الذى يسكن معنا فيه كان كريما ، إلى أقصى الحدود معنا رغم أنه كان حريصا على إرسال الايصالات لباقى الشقق أول كل شهر مع البواب .. أما نحن فكان لا يرسل لنا الإيصال حتى أطرق باب شقته وأدفع إليه قيمة الإيجار مهما تأخرت فى ذلك وتقدمنا فى دراستنا الجامعية .. وقبيل تخرجى جاءنى شاب مدرس بالمعهد الذى تدرس به شقيقتى يطلب يدها منى ، فاستمهلته حتى أستطلع رأيها ووجدتها ميالة إليه ، فأبلغته بموافقتى وطلبت منه احتراما لعمى أن يخطبها منه ، وصارحته بحالتنا المادية فوجدته يعرف عنا كل شىء واسترحت إليه واتخذته صديقا وتمت الخطبة وتخرجت شقيقتى وعينت مدرسة .. وتخرجت أنا وحصلت على عمل فى

إحدى المؤسسات بما يشبه المعجزة ووضعنا خطة ثلاثية لتجهيز شقيقتى فخصصت لها ثلث مرتبى وخصصت هى نصف مرتبها للجهاز وبدأنا نشترى ما تحتاج إليه بالتقسيط ، وخلال ٣ سنوات تم إعداد كل شىء فى حدود طاقتنا . وكان ستر الله علينا عميما ، كما كان طوال سنوات وحدتنا .. فحافظنا على مظهرنا بغير أن نطلب من أحد شيئا وفرشنا شقة العروس الصغيرة بالأثاث البسيط الجميل الذى اشتريناه .. وعلقنا فيها نسخة من الصورة العائلية الوحيدة التى تجمع بين أبى وأمى وأطفالها الثلاثة .. والتى نعلقها فى صالة مسكننا ويوم الزفاف حملنا صاحب البيت فى سيارته إلى بيت العريس ، فدخلنا إلى صالة الفرح ، وذراعى فى ذراع شقيقتى وهى فى فستان الزفاف وشقيقتنا من خلفها ترفع ذيل فستانها حتى اقتربنا من الكوشة فأمسكت بيد أختى ووضعتها على يد عريسها وقلت له : هذه أمانة تسلمتها من أبى وعمرى ١٥ سنة وحافظت عليها ... وأسلمها إليك الآن فاحفظها كما حفظتها وحاول أن تسعدها فهى يتيمة وعانت الكثير فى حياتها فدمعت عيناه وقبل يدها وعانقنى وقبلنى وعاهدنى على أن يرعاها ، وانتهت الليلة وعدت مع شقيقتى إلى بيتنا ونحن سعيدان رغم حزننا لفراق أختنا .

وصدق زوج شقيقتى فى عهده فعاش معها حياة سعيدة هادئة يسودها الحب والتعاطف المتبادل وتقشفنا عامين آخرين حتى انتهى سداد آخر الأقساط ، وتخرجت شقيقتى وعملت أيضا مدرسة وقبل أن التقط أنفاسى جاءنى زميل لها يطلب يدها فتكررت نفس القصة بنفس مشاهدها وبدأنا خطة ثلاثية جديدة لتجهيزها وشاركت شقيقتى الكبرى معنا بتشجيع من زوجها فى نفقات الجهاز .

وحين أغلق الباب عليها وعلى زوجها تنفست الصعداء صعدت لشقتى

ونظرت إلى الصورة العائلية المعلقة فى الصالة براحة شديدة كأنى أقول لأبوى فيها لقد أديت الأمانة وآن لى أن أستريح ودخلت فراشى سعيدا رغم أنى قد أصبحت بعد زفافها وحيدا تماما . واستعدت وأنا فى « وسن » النوم كلمات أختى الكبيرة لى ونحن فى الفرح : لقد زوجتنا وأنهيت مسئوليتك ففكر فى الزواج ، وإذا لم تكن قد فكرت فى بعض زميلاتك فعندى من زميلاتى أكثر من واحدة تتمناك زوجا لها . وفى اليوم التالى تذكرت كلمات شقيقتى وأنا فى مكتبى بالمؤسسة ألمح زميلاتى فى المكتب وأتذكر هذه حاولت أن تقترب منى منذ ٨ أعوام ولم تجد منى تشجيعا فتزوجت وأنجبت وهذه أعادت نفس المحاولة منذ ٤ سنوات وانتهت نفس النهاية .. وهذه عينت منذ عام فقط ولكنها لم تحاول الاقتراب منى أبدا ولعلها مرتبطة بآخر وهذه .. وتلك وساءلت نفسى أين هى من تقبل الانتظار عامين حتى أنتهى من سداد الأقساط ثم ثلاثة أعوام أخرى حتى استعد ماديا .. فنتزوج كهلا يودع سن الشباب وقررت أن أدع الأمر للخالق وألا أشغل بالى بالزواج وتناوبت شقيقتاى زيارتى وتنظيف شقتى وإعداد طعام الأسبوع لى وكلما لمست سعادتهما اطمأن قلبى وأحسست بالراحة تغمر قلبى ..

ومضت الشهور وكلما اقتربت الأقساط من نهايتها وجدت لدى بعض الجرأة للتفكير فى الزواج وفى هذه الأيام وجدت نفسى مهتما بمراقبة تلك الزميلة العازفة عن الاقتراب منى ، فلاحظت عليها البساطة والهدوء والاحترام .. ثم دعانى رئيسى إلى مكتبه ذات يوم وهو رجل فاضل فى الخمسين من عمره متدين ومثقف أستريح له وأروى له بعض ظروف حياتى وكثيرا ما عرض على المساعدة باقراضى بعض النقود فى زواج شقيقتى فرفضت شاكرا ، وبعد حديث قصير نصحنى بضرورة الزواج قبل أن يفوتنى القطار وقال : بعضهن يريدنك ويرضينك فأين لماحيتك يا صديق .. إن زميلتك الجديدة مهتمة بأمرك لكنك

غارق فى ذاتك ولا ترى من حولك فدهشت وصارحته بأنها لم تعرنى اهتماما منذ عينت بالعمل ، فصارحنى بأنها فتاة جادة وقد تم تحذيرها منى بحجة أنك غارق فى مشاكلك ولا تفكر فى الزواج فاحترمت نفسها وانتظرت أن تأتى الخطوة الأولى منك وغادرته سعيدا ومذهولا فى نفس الوقت وعدت إلى مكتبى ووجدت نفسى أنظر إليها بعين جديدة .. ووجدت نفسى بعد أيام شغوفا بها كأنى اكتشف وجودها لأول مرة .. ونشأت بينى وبينها صداقة حميمة وصارحتها بكل ظروف حياتى وصارحتنى أيضا بكل ظروفها وكنت قد أوشكت على سداد القسط الأخير فطلبت منها أن تحدد لى موعدا مع أسرتها لزيارتها فرحبت بذلك سعيدة وذهبت إلى أختى الكبرى وأختى الصغرى وأسررت إليهما بالنبأ وحددت لهما موعد الزيارة لتصحبانى مع زوجيهما وهم كل أسرتى بعد وفاة عمى وهجرة أبنائه وراء العمل والرزق .

ونهضت صباح يوم الزيارة مرهقا قليلا ربما من قلة النوم وذهبنا إلى بيت زميلتى وتعرفنا على الأسرة وحددنا موعدا آخر لقراءة الفاتحة .

وفى اليوم التالى أحسست بأن جسمى ثقيل وبأنى أشعر بالتعب فذهبت إلى طبيب المؤسسة الذى أعطانى بعض الأدوية .. وشاع مشروع الخطبة بين الزملاء فهنأونا وساد جو من المرح والدعابة مكتبنا . وعدت إلى بيتى سعيدا وأثناء صعودى السلم عاودنى الاحساس بالارهاق والدوخة فتحاملت على نفسى إلى أن دخلت مسكنى وقبل أن أصل إلى السرير فوجئت بإغماء ينتابنى لأول مرة فى حياتى وأفقت بعد قليل فخرجت لأذهب إلى طبيب خاص فى نفس الحى ففحصنى ثم طلب بعض التحاليل فأجريتها فى معمل خاص بعيدا عن المؤسسة وعدت إليه ليصدمنى بأنى مريض بالسكر وعلى أن أتبع نظاما علاجيا وغذائيا خاصا ، وعدت بالأدوية حزينا إلى مسكنى .. وجلست فى الصالة أمام نفس

الصورة ونظرت إليها طويلا واستسلمت لشريط الذكريات وأسترجع ما مر بنا ونحن صبية صغار حائرون فى مواجهة الدنيا ونحن شباب لا معين لنا فى الدنيا وشقيقتاى تزفان إلى زوجيهما وسنوات الجفاف الطويلة التى عشتها أداء لمسئولياتى .. ثم أخيرا وبعد أن بدأت نسائم الراحة تهب على حياتى فإذا بى أفاجأ بهذه المفاجأة القاسية ترى هل أثر المشوار الطويل على صحتى .. أم أنه كان قدرا مقدورا من البداية لكى أمضى العمر كله فى عناء متواصل .. وهل محكوم على البعض أن يعيشوا حياتهم كلها فى شقاء لقد قرأت فى ردك على رسالة منذ فترة تعبيرا يتردد فى ذهنى كثيرا الآن هو « ما أحلى الراحة بعد العناء » .

وكلما تذكرته سألت نفسى وأين هى الراحة يا سيدى لمن كانت حياته عناء فى الماضى وستكون كذلك فى المستقبل .

لقد أخفيت نبأ مرضى عن شقيقتى وعن فتاتى .. وموعد قراءة الفاتحة يقترب بعد أيام .. وأجد نفسى فى موقف عصيب لا أعرف كيف أتصرف فيه .. أفكر فى النكوص وأشفق مما سيصيب فتاتى منه فى سمعتها وموقفها وحرجها أمام أسرتها وزملائها لقد عجزت عن التفكير الصائب فماذا تشير على ؟.

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : لن تفعل ذلك بإذن الله لأنك إنسان جاد أمين تحملت المسئولية عن شقيقتيك وأنت فى سن الصبا وأديت الأمانة خير الأداء .. ولقد جاء الوقت الآن لكى تؤدى نفس الأمانة عن نفسك .. وعليك أن تؤديها خير الأداء أيضا .. وألا تقصر فى حق نفسك باستسلامك لهذه الهواجس المريرة ..

لقد اعتدت أن تكون دائمًا المضحى من أجل الآخرين .. وبوحى من هذا الإحساس النبيل المرهف تفكر فى النكوص عن مشروع الزواج متصورا بذلك أنك تجنب فتاتك الشقاء وتضحى بسعادتك من أجلها .. لكنك هذه المرة

بالذات لا تملك حق التضحية .. لأن الأمر لا يتعلق بك وحدك وإنما بإنسانة أخرى رأت فيك عن حق فتى أحلامها وشريك مستقبلها ولا يجوز أن تنفرد فى قرارك بشأنها وإنما ينبغى عليك أن تبلغها بأى شىء عادى من شئون الحياة ، فالأمر أهون كثيرا مما تتصور ولا أشك فى أنك سوف تجدها أكثر رعاية لك مما تعتقد وتتصور ، فالطيور على أشكالها تقع يا صديقى ونحن كثيرا ما نلتقى فى طريق الحياة بأنفسنا فإن قدمنا للحياة الشر والأنانية قابلناهما عند الآخرين فى كثير من الأحيان وأنت إنسان أمين ومن العدل أن تكون فتاتك جادة وأمينة مثلك وأكثر فهمًا للحياة مما تتصور والعارض الصحى الذى تشكو منه ليس فى النهاية سوى عارض بسيط يمكن أن يلم بأى إنسان فى أى مرحلة من العمر ، وهو عارض رفيق لا يحرم الإنسان من حقه فى السعادة والزواج ولا يقف حائلا دون ممارسته لحياته العادية طوال العمر ومن السهل السيطرة عليه ، وترويضه ومصادقته والحياة الزوجية عمومًا ليست دائمًا نزهة بحرية فى بحيرة البجع .. وإنما هى رفقة عمر فى السراء والضراء وفى الصحة وفى المرض وفى الرخاء وفى الشدة ولا يكاد إنسان يخلو من مرض على الأقل فى عالمنا الثالث البائس والصحة والمرض من أمر الله وعلينا أن نتقبل دائما ما تأتينا به المقادير.. والرسول الكريم كان يسأل ربه قلبًا خاشعًا وعلمًا نافعًا ولسانًا ذاكرًا ثم «بدنا على البلاء صابرًا ، إذن فلتصبر ولتتقبل ما جاءتك به الحياة .. وهو أهون كثيرًا من أى بلاء آخر ولست وحدك فى ذلك ، فكلنا يؤدى أقساطنا فى مواعيدها للحياة ومهما اختلفت نوعية الأقساط أو حجمها فهى فى النهاية أقساط واجبة السداد وسوف نؤديها سواء تقبلنا ذلك وصبرنا عليه أو رفضناه وأنكرناه .

فثق بالله وبنفسك وانظر لما حققته فى حياتك من أداء للواجب الإنسانى

لترضى عن نفسك وتعرف أن من حقك فعلا أن تسعد وأن تستريح بعد العناء وأن ما حدث لن يغير من قدرتك على الاستمتاع بالراحة بعد المشوار الطويل ولا يجوز أن يحرم فتاتك منك ، فأنت هدية الحياة لها وهى هدية قيمة حقا فلماذا تريد أن تبخل بها عليها وأنت القادر على العطاء دائما ؟.. !

السهـــام الناريـــة!

أنا شاب عمرى ٣٦ سنة أعمل محاسبا كافحت حتى تخرجت فى الجامعة ثم سافرت إلى إحدى الدول العربية للبحث عن حياتى ومستقبلى فعملت فى البداية فى شركة صغيرة خاصة بمرتب بسيط وسكنت مع بعض الزملاء ، حتى وجدت عملا أفضل وأكثر استقرارا فانتقلت إليه وحصلت على سكن مستقل وبدأت أؤثثه بالأثاث المناسب والأجهزة المنزلية التى تيسر حياتى ، وبدأت استقر وأرسل إلى أسرتى بعض ما يعينها على مواجهة الحياة ومرت ٥ سنوات نجحت خلالها فى تدعيم حياتى وتوفير بعض المدخرات وذات يوم خرجت مع بعض الزملاء فى ليلة من ليالى الصيف إلى حديقة يتجمع فيها الغرباء فى الليالى الحارة ليستروحوا نسمات الليل الضنينة ، فلمحت أسرة مصرية من أب وأم وفتاتين فى سن الشباب بالقرب منا ولأن الغرباء سريعو التعارف فلم نلبث أن تعارفنا واجتذبتنى شخصية الأب ووجدته إنسانا فاضلا يقيم فى هذا البلد منذ ١٠ سنوات فقدمت له بطاقتى واستأذنته فى أن أزوره فى مقر عمله ورحب بى .

وبعد أيام وجدت نفسى قريبا من مكان عمله فتوجهت لزيارته فاستقبلنى بحفاوة وأمضيت معه وقتا ممتعا ، ثم كررت الزيارة عدة مرات دعوته بعدها مع أسرته للغداء فى أحد المحلات العامة فقبل الدعوة وجاءت الأسرة وأمضينا وقتا سعيدا ، شغلت خلاله بمراقبة الابنة الكبرى التى استهوتنى من أول لحظة رأيتها

فيها بالحديقة ، والتي سعيت لتوثيق علاقتي بالأب من أجلها وكنت متأكدا من أنني قد لقيت القبول عندها من أول لحظة أيضا .. فتبادلنا النظرات الطويلة وتفاهمنا بغير كلام خلال اللقاءات العائلية التي جمعت بيننا بعد ذلك على أن الطريق مفتوح وأن على أن أتقدم .. ففاتحت أباها في خطبتها ورحب بي واستمهلني حتى يستشيرها .. ثم عاد إلي بالبشرى بعد يومين ودعيت إلى البيت فأمضيت فيه مع الأسرة سهرة جميلة تعالت فيها ضحكاتنا .. وكانت هي أكثرنا سعادة وفرحا وتفاهمنا على أن نعلن الخطبة في مهجرنا بعد أيام ثم نعقد القران ونتم الزفاف خلال الإجازة في مصر. وفي حفل بسيط في بيت الأسرة تجمع الأصدقاء والزملاء يحتفلون بالحب الذي ربط بين قلبين جمعت بينهما الغربة والحنين الدافق إلى السعادة الشخصية لكي تعادل جفاء الحياة في مجتمع لا يحب الغرباء ولا يرحب بهم ولا يستغني عنهم في نفس الوقت .

وتركزت حياتي بعد ذلك في عملي وفي خطيبتي فما أكاد أغادر العمل حتى أتوجه إلى خطيبتي فأمضي معها ساعات اليوم أو اصطحبها إلى السوق لشراء مستلزمات البيت الجديد ، أو أعود إلى شقتي فأكون معها على التليفون طوال المساء كأنها معي في مسكني لا تفرق بيننا مسافات .

وبعد عدة شهور لم أستطع أن أحتمل البعد عنها .. ولا هي أيضا ففاتحت أباها في أن نتزوج على الفور وكلانا مستعد لأعباء الزواج وهي طالبة في كلية نظرية ولن يعوقها الزواج عن مواصلة الدراسة ووافق الأب ، فتم الزفاف ، وعندما انصرف المدعوون قلت لزوجتي : لقد عانيت في حياتي طويلا وعوضني الله عن معاناتي بك فلتكن حياتنا معا سعادة خالصة .. لأنه لم تعد لي قدرة على تحمل أية معاناة جديدة ، وسأبذل كل حياتي لإسعادك واسعاد نفسي فدمعت عيناها وعاهدتني على أن تكون حياتنا معا نهرا متدفقا من السعادة وأقبلت على

حياتى الزوجية بكل هذه الرغبة العارمة فى السعادة ووفت حبيبتى بعهودها فجعلت من حياتنا أغنية جميلة وأصبحنا مثارا للتندّر بين أسرتها والأصدقاء من شدة حب كل منا للآخر وخوفه وغيرته عليه وحملت زوجتى وأنجبت طفلنا الأول فطرنا به من الفرحة ، وأصررت أنا على أن نؤدى معًا نحن الثلاثة العمرة لنشكر الله على ما أعطانا ثم بعد عامين أنجبنا طفلتنا الجميلة فأشاعت البهجة فى حياتنا وبعد عام واحد أنجبنا طفلنا الثالث وقررنا الاكتفاء لنوفر لأبنائنا الحياة الكريمة مع أنى لو تركت لنفسى لرغبت فى دستة من الأطفال يوثقون العلاقة الحميمة بينى وبين حبيبتى .

وتخرجت فى كليتها ورغبت فى العمل فلم أعترض رغم متاعب تربية ٣ أطفال صغار ، واستطاع أبوها بعلاقاته الوثيقة أن يجد لها عملا مناسبا واستقرت حياتنا بعد إرسال الأطفال إلى الحضانة .

ورغم أنها تقاضت مرتبا معقولا فلم أسمح لها بإنفاق أى جزء منه فى البيت وطالبتها بالاحتفاظ به لنفسها ، وكانت كريمة بطبعها فكانت تهدينى فى المناسبات العائلية هدايا قيمة أردها بهدايا لا تقل عنها قيمة وبعد سنوات من الزواج عدنا فى إجازة إلى مصر وقدمتها لأسرتى فسعدت بها وأحبها كل أفرادها وعدنا إلى مقر عملنا سعداء .

وبعد فترة أخرى ثقلت علينا مهمة رعاية الأطفال الثلاثة فاقترحت عليها الاستقالة من عملها بعد أن توافرت لها بعض المدخرات ولم تعد لها حاجة إلى العمل فوعدت بالتفكير فى ذلك لكنها استمرت فى العمل . وبعد قليل عدت لمناقشتها فى الاستقالة ففوجئت بها تطلب منى الطلاق ! نعم الطلاق .. هكذا وبلا مقدمات ولا أسباب لماذا ؟ لأنى لا أحبك ولم أحبك يوما واحدا !.

يا إلهى لم تحبنى يوما واحدا .. ففيم إذن كانت هذه السنوات الست .. ولماذا

قبلت الزواج منى .. ولماذا أنجبت ؟ ولماذا لم تتطلب الطلاق قبل الإنجاب أو بعد الطفل الأول ولماذا انتظرت حتى جئنا إلى الحياة بثلاثة أطفال أبرياء .. وفيم كانت ابتسامة السعادة التى تبدو دائما على وجهها ولماذا لم نتشاجر مرة واحدة وهى لا تحمل لى أية مشاعر.. لم أسمع منها جوابا مقنعا .. ولم أسمع سوى أنها وافقت على زواجى لأنى شاب مقبول ولأنها أحست بحبى لها ورغبتى فيها وأنها أملت فى أن تحبنى لكنها اكتشفت بعد فوات الأوان أننى لست طرازها وأنها لن تحبنى .

وتخيل حالى يا سيدى وأنا أسمع هذه الكلمات التى انغرست فى لحمى وقلبى كأنها سهام نارية .

لم تحبنى يا إلهى وأنا أحببتها من أول نظرة ؟ حاولت وفشلت إذن لماذا لم تصارحنى ولماذا لم تتركنى لحالى لأجد من تحبنى .. أو من لا يؤثر فيها كلام الافلام هذا ..

وأسرعت إلى أبيها فوجدته يعرف كل شىء ووجدت الأسرة كلها تعرف كل شىء وأن القصة مشاعة ومعروفة وأنى الوحيد الذى لا يعرف أن زوجته لا تحبه ولا تطيق رؤيته وأنهم حاولوا معها كثيرا بلا جدوى وأنها هددت بالهرب والنزول إلى مصر بأولادها ان لم يساعدوها على التخلص منى ، منى أنا يا سيدى الذى كان يبدأ يومه بأن يتملى من وجهها وهى نائمة ثم يخرج إلى عمله مبكرا مزودا بهذه النظرة حتى يعود إلى بيته عند الظهر.

ماذا أفعل يا ربى .. لوكان الأمر يخصنى وحدى لما انتظرت ، لكن ما مصير هؤلاء الأطفال الثلاثة الذين لم يبلغ أكبرهم الخامسة .. فقدت القدرة على التصرف فعرضت عليها أن تعود إلى بيت أسرتها وتفكر فى الأمر بهدوء وتراجع نفسها فإذا أصرت بعد ذلك أجبت رغبتها ، فعادت إلى بيت أسرتها وعشت

وحدى فى شقتى محروما من أبنائى الصغار ثلاثة شهور تطاردنى صورهم وألعابهم التى تركوها وراءهم وأسمع أصواتهم فى الليل وأنا نائم فيخيل إلى أنهم عادوا وأنهض فرحا أفتش عنهم فى الشقة فلا أجدهم وكلما اشتد بى العذاب ذهبت إليهم وزرتهم فتتعمد زوجتى عدم الوجود فى البيت عند حضورى وأخيرا جاءنى أبوها متألما وقال لى إنه عاجز عن إرغامها على العودة وأن من الأفضل لنا أن ننفصل بلا متاعب عسى أن تصفو النفوس بعد حين . ووجدت نفسى أقره على وجهة نظره مستسلما لإرادة الله وأملا فى أن أستعيد أبنائى ذات يوم ، وتم الطلاق يا سيدى وعدت لحياة الوحدة والعذاب والمعاناة ورتبت حياتى على أن أرى أبنائى كل أسبوع مرة ورضيت بقدرى وبدأت جراحى تهدأ فإذا بى ذات صباح أقرأ فى الصحيفة المحلية فى باب الاجتماعيات تهنئة من موظفى الإدارة التى تعمل بها زوجتى السابقة للسيد فلان الفلانى والسيدة فلانة التى هى زوجتى وأم أبنائى بالزواج السعيد !.

بعد ٥ شهور فقط من الطلاق ! وأين أولادى .. وكيف لا يبحث معى أحد مصيرهم ، وأسرعت إلى بيت أبيها كالمجنون فإذا بى أجد الجفاء والعبوس والصد .. وإذا بالكلمات تنزل على كالمطارق .. اذهب إلى المحكمة لا كلام بيننا .. وإذا بى اكتشف أن العروس الجديدة قد غادرت البلاد قبل نشر التهنئة إلى مصر مع أولادى بعد أن قدمت استقالتها من العمل خوفا من أن أطالب بهم ، وأنها نجحت فى الحصول على وثائق سفر لأولادى من القنصلية رغم مخالفة ذلك للقانون .

فأسرعت إلى مقابلة غريمى الذى ساعدها فى ذلك بكل تأكيد وهو زميلها فى العمل الذى بلغ سن الأربعين ولم يتزوج وعمل ١٥ عاما فى هذه البلاد وجمع ثروة لا بأس بها فلم أجد عنده ما يفيدنى سوى أن على أن ألجأ إلى المحكمة

وكان هو الآخر ينهى أوراقه بعد أن قدم استقالته ويستعد للعودة للحاق بعروسه أم الأطفال الثلاثة وللاستقرار فى مصر وبدء مشروع تجارى فيها !.

ولم أجد ما أفعله سوى اللجوء إلى المحكمة فحكمت لى برؤية الأطفال لكن أين هم لكى أنفذ حكم الرؤية وأراهم لقد استقروا فى مصر فى عنوان لا أعرفه وفشلت كل محاولاتى مع أسرة مطلقتى لكى أعرفه .. ثم لم تلبث الأسرة أن عادت إلى مصر.

وأدخلت زوجتى أطفالى الثلاثة مدارس لا أعرفها .. وأفهمتهم أن زوجها الحالى هو أبوهم .. وحاولت محاولة فاشلة لتغيير اسم الأب فى شهادات الميلاد لتنسبهم إليه ولولا يقظة ضمير أحد الموظفين لنجحت فى ذلك ووجدت نفسى كالضائع .. معى النقود وليس معى أطفالى ، محترم أمام الناس ومهان ومجروح أمام نفسى فاستقلت من عملى وعدت إلى مصر لأبحث عنهم .. وبدأت من الصفر من معارف المعارف الذين يمكن أن أجد لديهم عنوان أسرة مطلقتى حتى توصلت إليه وكانوا قد انتقلوا إلى شقة جديدة فى مدينة نصر وظنوا أنهم فى مأمن بعيد ، فوجدنى الأب ذات صباح أطرق الباب عليه وأقول له أنت رجل محترم وأنا كذلك ولست أطلب سوى العدل والقانون فأعطنى عنوان أبنائى ودبر لى أمر رؤيتهم بغير اللجوء إلى الشرطة والمحاكم ولن تجد ابنتك منى ما تخشاه فلست بالطائش ولا بالراغب فى الانتقام فاستجاب لطلبى ثم أرسل زوجته لإحضار الأبناء الثلاثة وليته ما أحضرهم فقد جفلوا منى وبكوا لانتزاعهم من أحضان ماما وبابا !.

ووجدت نفسى أشد تألما من حالى وأنا أبحث عنهم ، خاصة حين رأيت الصغير الذى حرمتنى منه أمه وعمره أقل من عامين وهو يفزع منى كلما حاولت تقبيله ، وبكيت وأنا أجد نفسى غريبا على أطفالى وخرجت منهارا لا أعرف ماذا

أفعل .. ولا لماذا أعيش وقد خسرت كل شيء بلا ذنب .. سوى أن السيدة زوجتى لم تحبنى ! فحكمت على بالموت فى نظر أبنائى ..

لقد قرأت لك تعليقا مرة فى باب الردود الخاصة فهمت منه أنك تنصح رجلا بعدم الإقدام على طلاق زوجته التى يجمعه بها أبناء لمجرد أنه لا يحبها تطالبه فيه بالتروى ومراعاة صالح أبنائه وتستشهد بواقعة الشخص الذى قال لعمر بن الخطاب أنه يريد طلاق زوجته لأنه لا يحبها فقال له لائما ومعاتبا : وهل كل البيوت بنيت على الحب فأين الرعاية وأين الوفاء وأين حسن المعاشرة !.

فلماذا لا تقول يا سيدى نفس الشيء لمن يهدمن أسرهن ويشردن أبناءهن استجابة لنبضات القلب وكلام الأفلام .. لماذا لا تقول لهن وأين الرعاية وأين الوفاء وأين حسن المعاشرة وأين مصلحة الأبناء !.

ثم ماذا أفعل الآن وقد عدت إلى بلادى وزهدت العمل فى الخارج وقررت أن أفتح مكتبًا للمحاسبة واستأجرت شقة للإقامة وأيامى تمر علىَّ طويلة إلى أن يأتى يوم الرؤية فأذهب إلى بيت صهرى السابق أملاً فى تعويض عذابى فأزداد عذابًا حين أرى أبنائى مازالوا يجفلون منى ولا يستجيبون لعواطفى .

وماذا أفعل يا سيدى ؟ وزوجتى السابقة تقتل فيهم حب من أنجبهم من صلبه وتغرس فيهم حب من اختاره قلبها .

بماذا تشير على ؟.

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : لا خيار أمامك يا صديقى سوى أن تمسح ظلال هذه التجربة الكئيبة عن كاهلك ، وأن تستمر فيما بدأته من خطط لمستقبلك فتفتح مكتبك وتستقبل عملاءك وتشغل ساعات يومك بالعمل وبالعلاقات الإنسانية والنشاطات الاجتماعية المختلفة فهذا هو السبيل لنسيان التجارب الأليمة فى حياتنا .. وهذا هو الطريق للخروج من كل محنة تختبرنا بها

الحياة وتمتحن بها صلابتنا وقدرتنا على تحمل شدائدها وفى كل ذلك عليك دائما أن تثق فى الله الذى لا تضيع عنده الودائع وفى عدالة السماء التى لا يفلت منها مجرم بجريمته ، وأن تستعيد ثقتك فى نفسك وفى جدارتك بأن تكون أملا لمن هى أفضل منها بإذن الله ، فليس يعيبك أن من اختارها قلبك لم تكن أهلا لحبك ووفائك ، فلكل إنسان فشله ونجاحه ولكل إنسان غالبا عذابه الخاص الذى لا يعلمه إلا الله المطلع على خبايا القلوب وليس معنى ذلك بالتأكيد أن يهدر الإنسان عمره فى البكاء على الأطلال أو فى محاولة استعادة من لم يبادلوه وداً بود ، وإنمامعناه ألا يكف الإنسان عن التطلع دائما إلى الأمام بقلب راغب فى الحياة وأن يحفر دائما الآبار فى صحراء الحياة فى انتظار أن يتفجر ذات يوم ينبوعه الخاص من السعادة ولا شك أن زوجتك قد أجرمت حين لم تتوقف لحظة لتفكر فى صالح أطفالها الثلاثة وتراجع نفسها قبل أن تهدم المعبد من أساسه بلا أسباب جادة استجابة لأهواء عارضة . والحق أنى لا أصدق أنها لم تحبك يوما واحدا خلال قصتك معها وإلا كان عذرها أقبح من ذنبها .. إذ ماذا أرغمها على الزواج منك وهى لا تميل إليك ولا تتقبلك نفسيا وعاطفيا زوجا لها ، وماذا أرغمها على الاستمرار حتى أنجبت من البنين ثلاثة وكيف عاشت معك كل هذه السنوات وهى لا تضمر لك سوى الكراهية وقد مضت حياتكما هادئة وبلا منازعات ، والعيون وجوه القلوب ، و « البغض تبديه لك العينان » كما يقول الشاعر ، فكيف أخفت كل هذه المشاعر وبدت أمامك دائما الإنسانة السعيدة المبتسمة إلا إذا كانت فى الحقيقة إنسانة متقلبة المشاعر ضعيفة المناعة لا تستقر مشاعرها على حال لهذا فقد استجابت لنزوة طارئة فلم تتوقف عند أية اعتبارات .. وأسرعت بهدم العش ، وحاولت برعونتها وقسوتها ومجافاتها لروح العدل أن تطمس شخصية الأب من حياة أطفالها .

إن مثل هذه الزوجة التى لا يردها قيد سوف تتقاذفها دائماً أمواج أهوائها ومشاعرها وتقضى عليها بالتخبط بين أكثر من مرفأ لأنها سفينة بلا شراع يعصمها من الخطأ ويهديها إلى الصواب فلا تحزن عليها فهى ليست جديرة بك .. ولا تقلق بشأن أبنائك ولا تجزع لجفولهم منك الآن فهم أطفال صغار لا يسألون عما يفعلون وقريبا سوف تنضجهم الأيام على نارها الهادئة فينجذبون تلقائيا إليك كما يعود مؤشر البوصلة إلى مستقره الطبيعى بعد حين لأنك أبوهم وفى الأب قبس من روح الله لأنه سر الحياة بالنسبة لأبنائه ولديهم دائماً ميل غريزى للتواصل معه والحاجة إليه والبحث عنه وما أيسر استمالة قلوب الأطفال بالحنان والرعاية والهدايا والحب الأبوى الذى يسرى إليهم كتيار الكهرباء بغير أن يشعروا فلا تقلق مرة أخرى فسيعودون إليك قريبًا وستشفى جراحك سريعًا ، وسوف تجمع الأيام بينك وبين من تبادلك حبا بحب ووفاء بوفاء ورعاية برعاية وسوف تكتشف عندها معنى السعادة الحقيقية التى حرمت منها ظلما وعدوانا فى هذه التجربة الكئيبة .

زهــــرة العـمـــر!

أكتب إليك .. لأنى فى حاجة لمن يشير على بالرأى السليم رغم كثرة من حولى من الأهل والأصدقاء ، ولن أقص عليك قصة حياتى كلها لكنى سأبدأ من اللحظة التى عدت فيها من الخارج حيث كنت أستكمل دراستى ومعى الشهادة التى اغتربت من أجلها .. ومعى أيضًا زوجة أجنبية جميلة تعرفت بها هناك وجمع الحب بين قلبينا وتزوجنا .

كان زواجى من أجنبية مفاجأة لأهلى لأننى لم أبلغهم به فلم يتقبلوا الأمر بسهولة فى البداية ثم بدأوا يتقبلون الوضع تدريجيًا ويتعاملون معها بشكل طبيعى كواحدة من أفراد الأسرة وساعدت شخصيتها المريحة على ذلك .. فهى ودود وتثق فى الناس وتحب اسرتى ... وبعد أسابيع من عودتى استأجرنا شقة فى أحد أحياء القاهرة البعيدة عن الزحام وظهرت مواهب زوجتى فى تنسيقها وتجميلها بأبسط الأشياء حتى تحولت إلى واحة يشعر من يدخلها بالراحة والهدوء ، ومضت حياتنا جميلة يظللها التفاهم ولمسات الحب الرومانسية الرقيقة حتى حملت زوجتى وأنجبت طفلتين توءما فى غاية الجمال أخذتا عن أمها الشعر الأصفر والعيون الملونة وبمجيئهما اكتملت سعادتى وأصبحت رعايتهما هدف حياتنا وحكاياتهما مصدر تسليتنا ومتعتنا .. خاصة بعد أن درجتا على الأرض وتكلمتا .. وكانت زوجتى تحرص على أن تختار لهما ملابس

متماثلة تبدوان فيها آيتين فى الجمال .. ومضت حياتى هادئة سعيدة وكنت أعطى زوجتى معظم دخلى لتنفق على الأسرة وكانت هى حسنة التدبير تجيد التصرف ولا تنفق قرشًا فى غير موضعه ، لكننى مع اقتراب الطفلتين من سن الالتحاق بمدرسة الحضانة .. بدأت زوجتى تناقشنى فى أمر لم يكن ضمن اتفاقنا وهو أن نعود معًا إلى بلدها بحجة أن تربية الطفلتين هناك ستكون أفضل ولم أرحب بالفكرة لأننى كنت حريصًا على أن تنشأ الطفلتان فى مصر ، وتتلقيا تربية شرقية سليمة وسط أهلها حتى لا تضيع شخصيتهما فى مجتمع أجنبى غريب ولم أكن فى ذلك متجنيا على زوجتى لأننا اتفقنا على ذلك عند الزواج ولأن هناك حلاً ملائمًا هو أن نعيش معًا فى بلدى وتسافر زوجتى ومعها طفلتاى كل سنة فى اجازة لكيلا تنقطع صلتها بأهلها . وعرضت عليها ذلك فاقتنعت بعد تردد ثم توقفت عن الحديث فى الموضوع تمامًا واسترحت إلى أنها قد نسيته تمامًا وعدت للاستمتاع بالجو الأسرى الجميل الذى نعيشه واعتزمت أن أرتب لها أول إجازة فى الصيف القادم بعد شهرين وذات يوم عدت من عملى فلم أجد زوجتى فى البيت .. ودخلت غرفة الأطفال فوجدت إحدى طفلتى تجلس على الأرض وسط لعبها تلهو بها ويبدو من منظرها أنها تلعب وحدها منذ فترة فتوجهت إلى المطبخ لأحضر لها شيئًا تأكله فلمحت على سرير الطفلة الأخرى ورقة صغيرة مكتوبًا عليها هذه العبارة بخط زوجتى «آسفة لم اقتنع بكلامك لذلك فقد قررت الرحيل إلى الأبد ومعى إحدى طفلتى وتركت لك الأخرى لكى تربيها التربية الشرقية التى تريدها ثم التوقيع !» وجن جنونى .. هل معقول أن تحرم أم ابنة من أبيها وشقيقتها لأى سبب وهل الأطفال تركة يمكن تقسيمها وأسرعت أجرى كالمجنون إلى المطار لعلى ألحق بها واقنعها بالعودة أو بترك ابنتى إن كانت لا تريد الحياة معى .. فلم ألحق بها .. ورحت أفتش بين

قوائم الركاب المغادرين .. فوجدتها قد سافرت منذ ساعات إلى بلدها ومعها طفلة فى الثالثة من العمر هى ابنتى ! وعدت حزينًا منهارًا إلى البيت فوجدت طفلتى تبكى من الجوع فاحتضنتها وأعددت لها طعامها وأنا لا أستطيع أن أقاوم دموعى .. ورحت أرقبها وهى تتناول طعامها وأسأل نفسى بمرارة كيف هان على أمها أن ترحل بعيدًا عنها وأن تحرمها من توءمها وهما لا تنفصلان عن بعضهما لحظة واحدة .. وماذا جنيت لكى أتعرض لهذه المحنة .. وأنا لم أخالف عهدًا ولا ميثاقًا ولم أطلب من الدنيا سوى حقى المشروع فى الحياة السعيدة وبت ليلة لم تغمض لى فيها عين وقررت أن أسافر على الفور إلى البلد الذى تعلمت فيه .. لأسترد زوجتى وأذكرها بما جمع بيننا من حب وعشرة جميلة أو لأسترد ابنتى إذا رفضت زوجتى العودة لكى تنشأ مع شقيقتها وركبت الطائرة إلى بلدها وأسرعت إلى بيت أسرتها ففوجئت بهم لا يعرفون شيئًا عن ابنتهم ولا يحركون ساكنا للبحث عنها كأن الأمر لا يعنيهم فى شىء وعدت محطمًا يائسًا وعشت أيامى مكتئبًا حزينًا وكلما رأيت ابنتى تذكرت اختها التى لا أعرف أين هى .. ونسيت رجولتى وانسابت دموعى وتشاور الأهل فى مأساتى ثم طالبونى بالزواج من أخرى لكى ترعى ابنتى وأكدوا لى أنهم سيختارون لى زوجة مصرية تعرف طباعنا وتربى ابنتى التربية السليمة .. لكنى رفضت الفكرة ورفضت مبدأ الزواج مرة أخرى نهائيًا .. وقررت أن أتفرغ لابنتى وعملى وأن أحاول أن أعوض بهما ما خسرته فى هذه التجربة الأليمة .. وأحضرت لابنتى مربية طيبة كبيرة السن لكى تتكفل برعايتها .. وأصبحت أنا عمليًا الأم والأب لابنتى بعد أن لم يعد لها فى الدنيا غيرى .

ومرت السنوات .. وأنا لا أنسى ابنتى الغائبة وكيف أنساها وشقيقتها صورة أخرى منها تتحرك أمامى وكنت أستخبر السنين فأخمن أنها لابد الآن فى

السنة الأولى من مدرستها الإعدادية لأن ابنتى قد بلغت هذه المرحلة فى مصر.. أو فى السنة الأولى الثانوية حين تصل ابنتى المقيمة معى إليها .. ولا يخفى عليك أننى كثيرًا ما واجهت لحظات حرجة مع ابنتى التى تحتاج إلى أم تستشيرها فى بعض الأمور التى لا يفيد فيها الأب .. فكنت أضيق بما صنعته بى زوجتى .. ثم أعود إلى طبيعتى وأواصل حياتى وأتعجب لماذا لا تفكر فى إرسال بطاقة بريد كما يفعل الغرباء حين يتعارفون لكى أعرف منها أخبار ابنتى .. ولماذا لا تتصل تليفونيًا لتطمئن على ابنتها وقد حرصت على عدم تغيير رقم التليفون طوال هذه السنوات لعلها تتصل يومًا بابنتها .. أو تسمع صوتها فترق لها وترسل لها صورة لأختها ؟.. لكن السنوات مرت .. والبريد لا يحمل أية رسالة .. والتليفون لا ينقل خبرًا منها وتفرغت لابنتى فأصبحنا أصدقاء وتفرغت لعملى فحققت فيه تقدمًا كبيرًا ثم رن أخيرًا جرس التليفون منذ أسابيع قليلة وفوجئت بزوجتى تقول لى بصوت مختنق إذا كنت تريد أن ترى ابنتك فانتظرها بالمطار بعد غد لقد أرسلتها إليك وحددت لى الموعد ورقم الرحلة وطلبت منى أن أرفع لافتة من الكرتون تحمل اسمى لكى تتعرف على ابنتى وقبل أن أعرف منها أية تفاصيل كانت المكالمة قد انتهت وانقطع الاتصال وأنا لا أصدق نفسى من الفرحة ومضت الساعات بطيئة فى انتظار الموعد وفكرت فى أن أصطحب ابنتى معى إلى المطار لكى تستقبل شقيقتها العائدة بعد ١٦ عامًا لكن شيئًا ما داخلى وسوس لى أن أذهب وحدى وأن أترك ابنتى فى البيت لكى تكون المفاجأة بالنسبة لها أخف وأرحم وذهبت إلى المطار ووقفت بين المستقبلين ممسكًا بورقة عليها اسمى بالإنجليزية ورحت أفحص الوجوه وانتظر اللحظة الحاسمة التى ستتقدم منى فيها فتاة جميلة باسمة مترددة لتسألنى فى خجل هل أنت أبى ؟ فأفتح ذراعى لها وتكون هى إجابتى

على سؤالها ومر أمامى عشرات من الركاب والسياح .. ولم يتقدم منى أحد سوى راكب مصرى اقترب منى وسألنى بلكنة أجنبية هل أنت السيد فلان ثم طلب منى الدخول معه إلى الدائرة الجمركية لانهاء بعض الاجراءات فدخلت معه ووجدت فى يده أوراقًا اطلع عليها ضابط الأمن فسمح لى بالدخول وهو ينظر إلىّ صامتًا وبغير أن يطلب بطاقتى فهل تعرف ماذا كانت هذه الأوراق لقد كانت أوراق تسلم الصندوق التى جاءت داخله ابنتى التى عشت السنوات الطويلة انتظر رؤيتها .. وانتهت الاجراءات ولا أعرف كيف انتهت ولم أعد إلى الشقة التى تنتظرنى فيها ابنتى وإنما إلى بيت أهلى لنرتب المراسم الحزينة وحين عدت فى آخر الليل إلى مسكنى وجدت ابنتى ساهرة تنتظر فقلت لها إن شقيقتها لم تعد على الطائرة الموعودة وفى اليوم التالى انتهى كل شىء وبعد أيام جاءنى الراكب المصرى الذى طلب عنوانى ونحن فى المطار ليحدثنى فى أمر هام وعرفت منه أنه يعيش مع زوجته فى نفس المدينة التى تقيم فيها زوجتى وأنهما صديقان حميمان لها ولابنتى الراحلة وأن ابنتى كانت بلغت السنة الأولى من دراسة الطب وأنها مرضت منذ سنوات بمرض لعين وأن زوجتى قد حافظت لابنتى على دينها وعاشت لها ترعاها وتهتم بها وبعد أن أصيبت بهذا المرض اللعين بدأت تفكر فى العودة إلى .. وتحدثهما بأنها ظلمتنى وأنها عزمت على العودة لكنها انتظرت علاج ابنتها وحين حم القضاء أحست بالحزن والضياع وقررت أن يكون مثواها الأخير فى بلدها .. فأرسلتها لى وكلفت هذا الصديق الذى يزور مصر بعد فترة غياب بأن يرافقها ليتعرف علىّ ويبلغنى بالنبأ الحزين .. وأنها بعد كل ما جرى تطلب منى أن أسامحها وأن أسمح لها بالعودة لكى ترى ابنتها الأخرى التى أصبحت الآن طالبة جامعية وتسألنى هل أصفح وأنسى ؟ فوجدت مأساتى تصحو داخلى من جديد .. ووجدت نفسى حائرًا

هل أقبل عودتها وأنسى كل ما فعلته بى وأنا أشعر بأنها سبب موت ابنتى التى حرمتنى منها ١٦ عامًا أم أرفض وأواصل حياتى كما عشت بعد أن انقضت زهرة العمر فى المعاناة والآلام ؟ لقد وعدته بالتفكير والرد ولم أتوصل إلى قرار بعد فماذا تنصحنى ؟

□□ ولكاتب هذه الرسالة أقول : لا أنصحك يا سيدى بقبول عودتها إليك ولا برفضها نهائيًا وإنما أنصحك أولاً بأن تسمح لها بزيارتك ورؤية ابنتها الوحيدة ، فتصبح فترة وجودها عن قرب أفضل اختبار لمدى استعدادك للصفح والنسيان وأفضل اختبار لمشاعرك القديمة تجاهها ، فأنت لا تستطيع أن تحكم على غائب ولا تستطيع أن تستشف صدق ندمها أو صدق رغبتها فى التكفير عن جرائمها بمجرد رسالة أرسلتها إليك بعد غياب ١٦ عامًا تطلب فيها الصفح ، لهذا فأنت فى حاجة إلى هذه الفترة الضرورية لتعرف ما إذا كنت على استعداد لأن تنسى جرائمها الإنسانية فى حقك وحق ابنتيها أم لا . فسجل جرائمها فى حقكم جميعًا لا تغسله سوى مياه البحر ، والغدر بك رغم بشاعته ليس أكبر جرائمها وقد كانت تستطيع أن تطلب الانفصال والعودة لبلادها على أن تستمر الصلات الإنسانية بينكما فتزور ابنتيها وتزورانها ، لكن أكبر جرائمها فى رأيى هو ما ارتكبته فى حق ابنتيها على السواء إذ حرمت ابنتها التى إستلبتها معها من حقها المشروع فى أن تعرف أباها وشقيقتها وأن تتمتع بمشاعرهما الحميمة تجاهها ولم تسمح لك برؤيتها إلا وهى فى رحلتها الأخيرة إلى موطن أبيها .. أما ابنتها التى خلفتها وراءها فقد حرمتها هى الأخرى من حقها الإنسانى فى أن تعرف أمها ، وشقيقتها الوحيدة وأن تستمتع بحنانهما ودفء مشاعرهما ، فاقتسمت ابنتيها بينكما كأنهما متاع يمكن اقتسامه ، ولم ترق مشاعرها لابنتها التى تركتها وراءها كل هذه السنوات ولم تحن إلى سماع

صوتها فى التليفون مرة .. ولم تبعث إليها ببطاقة بريد واحدة وحين بدا أنها قد تنبهت أخيرًا لواجبها تجاه ابنتها المغتربة معها كان الوقت قد فات ، وكان اللقاء الحزين بينكما فى المطار فأى أمومة وأية إنسانية هذه ؟ إننى لن ألوم ابنتك إذا تلمست مشاعر البنوة فى قلبها تجاه هذه الأم فلم تجدها ، لأن الأمومة والأبوة لا تخلقها شهادة الميلاد وإنما تغرسها الرعاية والحنان والمسئولية والعطاء فأين نصيب ابنتك من كل ذلك ..، ولماذا لم تتفجر مشاعرها تجاهها إلا بعد أن هوت فوق رأسها مطارق الحياة تذكرها بمن ظلمتهم وباعدتهم بلا سبب ، إننى لا أريد أن أغلق فى وجهها أبواب الرحمة فمن يدرى لعل المحنة القاسية التى عاشتها قد فجرت ينابيع الخير داخلها فندمت وصدق ندمها ، وأبواب السماء مفتوحة دائمًا لقبول توبة التائب بشرط أن تكون صادقة . .

لهذا فأنت وحدك الذى تستطيع أن تحكم على صدق ندمها وصدق رغبتها فى التكفير عن جرائمها .. وأنت وحدك من يستطيع أن يعفو أو يتمسك بحقه فى القصاص العادل ويرفض العفو وليس من حق من أدمى بوحشية قلوبنا بلا مبرر أن يتساءل وأين الصفح والنسيان ، وإلا كان من حقنا أن نسأله نحن أيضًا وأين كانت الرحمة .. وأين كان العدل !

فإذا كنت إنسانًا كبير القلب وقادرًا على العفو ، فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأبقى .. وليس هناك أجمل من العفو عند المقدرة ، وإذا كنت غير قادر عليه فلا جناح عليك ولا لوم فليس نسيان وقع الخناجر المسمومة فى مقدور كل إنسان .

وفى كلا الحالين لا تقطع شعرة الاتصال والرحمة بينها وبين ابنتها فهذا حق ابنتك عليك قبل أن يكون حق زوجتك . ومن عانى يا صديقى مرارة

الحرمان من فلذة كبده أجدر بألا يرضاه لغيره حتى ولو كان ظالمًا أهدر زهرة العمر فى المعاناة والآلام . مع الاحتراس كل الاحتراس من أن تحاول تكرار لعبتها القديمة مع ابنتك الوحيدة .

السائرون نياماً!

أنا سيدة فى السادسة والعشرين تخرجت فى إحدى الكليات النظرية ـ وكنت دائما مجتهدة فى دراستى وأتمتع بذكاء حاد كما يقولون لكنى كنت مترددة وضعيفة الشخصية ـ أصمم على رأى معين ثم بعد نصف ساعة أغيره وأصمم على عكسه وأتمسك به ، وحين كنت طالبة بالكلية خطبت لشاب ثم فسخت خطبتى لأسباب عائلية وتخرجت من الكلية ومضى عامان لم يتقدم لى فيهما أحد يرضينى وبدأت نظرات من حولى تلسعنى لأنى وصلت إلى سن الخامسة والعشرين تقريبا ولم أتزوج فقررت أن أقبل أول عريس يتقدم لى مهما كانت مواصفاته ومهما كانت ظروفه وكان دافعى لذلك هو أنى رأيت عددا من الفتيات فى أسرتى قد رفضن من يتقدم لهن طلبا للأفضل فأصبحن فى حكم العانسات .. وأنت لاتعرف ياسيدى ماذا تعنى كلمة عانس فى مجتمعنا وأوساطنا .. وهكذا كنت لا أريد أن أتأخر فى الزواج فقبلت أول طارق على الباب إرضاء للناس من حولى وإرضاء لغرورى أيضا لكيلا يفوتنى القطار رغم التفاوت البسيط فى المستوى الاجتماعى والعائلى بينى وبينه ورغم أن تفكيره وطموحاته يختلفان عن طموحى وتفكيرى وكان شابا يكبرنى بخمس سنوات وكنت أظن أن فترة الخطوبة سوف تقربنى منه فلم يحدث هذا التقارب من جانبى بل حدث العكس فكل يوم اكتشف صفة أكرهها فهو بخيل إلى حد

ما ويكذب فى أتفه الأشياء ـ وفكرت فى فسخ الخطبة أكثر من مرة لكن إرادتى كانت تخوننى لسببين الأول أنى كبرت فى السن وقد خطبت مرة سابقة إذن فاحتمال أن يتقدم لى خاطب جديد ضعيف والثانى : هو أنى أشفقت عليه مما سوف أسببه له من آلام لو فسخت الخطبة وهو لا ذنب له فيما حدث وكل يوم يزداد تعلقه بى وحبه لى وتزداد محاولاته لارضائى واستمرت الخطبة حوالى عام ونصف العام ولم تتغير مشاعرى بالنسبة له بل لعلها تعمقت ، وتحدد يوم الزفاف ، وأنا مازلت غير مقتنعة به لكن ضعف شخصيتى وخوفى من مواجهة الناس يمنعاننى من اتخاذ أى إجراء ، وهكذا وجدتنى أستمر فى المشوار فاشترى فستان الزفاف وأجهز بيتى بآلية غريبة كما لو كنت مخدرة ، ولم أفق إلا بعد أن وجدتنى متزوجة منه ومر على زواجنا شهران وأنا مازلت عند الخطوة الأولى من موقفى منه .. أقول لنفسى أحيانا إننى قد أحبه وقد نتقارب مع مرور الأيام خاصة وأنه يبذل كل جهده لارضائى وإسعادى .

وأقول لنفسى أحيانا إن هذا لن يحدث لسبب بسيط ـ وأرجو ألا تسىء الحكم على ـ هو أننى أتمنى له الموت ! نعم الموت ولا تندهش ولا تسىء الظن بأخلاق ودينى فأنا أخاف الله وأصلى الفروض ولست شريرة فأنا لا أطيق أن أرى كائنا صغيرا يقتل أو يتعذب ولو كان حشرة ، لكن الشيطان هو الذى يوسوس لى بذلك فى أحيان كثيرة ويصور لى أنه الحل السعيد لكى أتخلص من هذا القيد دون أن يلومنى أحد .. لهذا أتمنى له الموت أحيانا فى أقرب وقت .. فإذا تأخر عن العودة للبيت تمنيت فى داخلى أن يكون قد أصيب فى حادثة بالطريق أو صدمته عربة مسرعة وانتقل إلى رحمة الله ، وإذا مرض مرضا خفيفا تمنيت أن يشتد المرض ويطول ويقضى عليه ، لكن هذه الأفكار لاتخرج من دائرة الأعماق ولا أظهر منها شيئا وهو يعتقد أننى ملاك طاهر

وفيض من الحنان كما يقول لى وهذا يجعلنى أتعذب أكثر وأتمنى الموت لنفسى أنا أيضًا حتى لا تطول حياتى مع هذا الرجل الغريب عنى الذى ظلمت نفسى بقبولى الزواج منه ، ثم بعد ذلك استغفر الله وأتمنى أن يهدينى وأن يجعلنى أحب زوجى خاصة أننى لا أكرهه بشدة .. ولا أنفر منه لكن الاختلاف فى المستوى الاجتماعى والهوايات والطموحات هو ما يجعلنى أكرهه حتى أننى اخجل أن أعرفه هو أو أحد أقاربه بأقاربى ومعارفى .. وأنا أكتب لك الآن لأسألك هل يمكن أن أحبه فى يوم من الأيام ـ وأيضًا لأرجوك أن تنصح كل فتاة بألا تستعجل الزواج من أى شخص بحجة كبر سنها لأن قرار الزواج هو أخطر قرار فى حياتها وعليها أن تفكر فيه جيدًا .. فحتى لو ظلت عانسًا فى أسوأ الظروف فهذا أرحم ألف مرة من أن تعيش مع إنسان لا تربطها به ميول عاطفية .. فتظل تتمنى له ولها الموت طيلة حياتها .

□ □ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : إن رسالتك يا سيدتى تعكس بشكل محزن الكثير من أخطاء التفكير الشائعة بيننا الآن . فنحن كثيرا ما نرى مقدمات الفشل وأسبابه واضحة للعيان قبل الاقدام على مشروع هام كمشروع الزواج فى حياتنا .. ومع ذلك نمضى إليه مخدرين لانتوقف لحظة لكى نراجع أنفسنا أو نتخذ الخطوة الصحيحة ونتحمل نتائجها كأننا نسير نياما إلى أقدار محكوم علينا بمواجهتها كما فى الأساطير الاغريقية القديمة ، بل نفعل ذلك ونحن لانرى أية بادرة تقدم فى الأحوال ، ثم يمضى العمر بعد ذلك نشكو مما صنعناه بأيدينا لأنفسنا .

ونحن أيضا ياسيدتى نتخذ أحيانا أخطر القرارات لأسباب لا علاقة لها بموضوع هذه القرارات نفسها وإنما لأسباب تتعلق بظروف تخصنا نحن ولا تصلح أن تكون معايير سليمة للحكم على الأشياء ، كقبولك لهذا الشاب

لأنك خطبت قبله وفشلت ولأن نظرات الآخرين تلسعك مع أنك صغيرة السن ، أو لأن بعض الفتيات من حولك قد فاتهن قطار الزواج ، وهذه كلها اعتبارات لها أهميتها ، لكنها لا شأن لها بالمعايير السليمة لاختيار شخص معين لشركة الحياة الطويلة ، كمميزات هذا الشخص نفسه وخلقه والقبول العاطفى والنفسى له والتكافؤ الاجتماعى والثقافى معه .... إلخ .. ومابنى على خطأ لابد أن يكون خطأ .

ونحن كذلك مدفوعين برغبة داخلية فى تفخيم الذات . نستشعر دائما الفروق الاجتماعية الطفيفة بيننا وبين الآخرين ، مع أن هذه الفروق لاترى بالعين المجردة ، ولو رجعنا إلى الوراء خطوة واحدة لأمكننا أن نرى الصورة أوضح وأشمل .. وعرفنا أننا ومن نستشعر التميز عنهم فى درجة واحدة من السلم الاجتماعى .. وأن هذه الدرجة نفسها من الدرجات الدنيا فيه ، فلا نحن من سلالات الدم الأزرق .. ولا نحن من عيون المجتمع أو نجومه ، فلماذا هذا الإحساس الطبقى الزائف لدى الكثيرين منا ؟ ورغم ذلك فحتى هذه الفوارق الوهمية لاتمنع زوجة من أن تحب زوجها الذى يحبها ويبالغ فى إرضائها ولاحالت يوما مابين قلبين جمعهما الحب والإخلاص ، لكنها « عين السخط التى تبدى المساويا » ياسيدتى لا « عين الحب التى هى عن كل عيب كليلة » ! ويوم يتفجر الحب فى قلبك تجاه زوجك سوف تكتشفين فيه من السجايا مايجعلك تفخرين .. وتزهين به .

تسألينى بعد ذلك هل يمكن أن تحبينه يوما ما .. وأجيبك نعم من الممكن جدا أن يحدث ذلك لو حدث التغير داخلك أنت أولا وتخلصت من أوهامك وحاولت أن ترى فيه مايحببه إليك وليس ما ينفرك منه ، والحب قد يولد فى لحظة سحرية تجب ماقبلها وتكون فاصلا بين المعاناة وبين السعادة .. فلا

تفقدى الأمل .. وتذكرى أنك مازلت فى بداية التجربة .. وأن الشهور الأولى للزواج غير القائم على الارتباط العاطفى لا تصلح أبدا للحكم على مستقبله .. لأنها فترة محاولة التكيف والتوافق ولو استجابت الأقدار لتمنيات الكثيرين من الأزواج والزوجات فى الشهور الأولى من هذا النوع من الزواج لتضاعفت أرقام حوادث التصادم ولانتشرت الأوبئة تحصد الأزواج حصدا لكن لطف الله أكبر! فأعيدى التفكير فى موقفك ياسيدتى ـ ولاتكونى أنانية تزنين كل الأشياء بمقاييسك أنت ، ناسية أن لك شريكا لا ذنب له فى سوء تقديرك للأمور ولا فى هواجسك عن المستقبل التى دفعتك لزواج لارغبة لك فيه خوفا من أن تصبحى عانسا . وإذا كان لى أن أنصحك بشىء فهو بأن تؤجلى مشروع الإنجاب قليلا حتى تتبدل مشاعرك وتتخلصى تماما من تمنياتك هذه ، إذ لا داعى لأن نسير نياما مرة أخرى إلى مايوثق علاقتنا بالآخرين ونحن نتمنى لهم الهلاك والفناء !.

لغــــز السعَـــادة

أنا سيدة فى الخامسة والعشرين من عمرى منذ عدة سنوات خفق قلبى لأول مرة لجار يسكن فى الدور الأسفل من نفس العمارة التى أسكن فيها وكان يقيم مع أمه ووالده وكان عزبا لم يتزوج وتبادلنا الحب ، وأحببته بقلبى وعقلى معا وشجعته على التقدم لخطبتى لأنه تردد قليلا فى ذلك .. وسوف تعرف السبب عندما أقول لك إنه كان يكبرنى بثلاثين عاما بالضبط .. لذلك فقد أشفق على وعلى نفسه من أن يصطدم برفض أسرتى أو أن يجرح أحد مشاعره ، لكنى تمسكت به وعرضت الأمر على أسرتى فقاوم أبى مقاومة شديدة ارتباطى به بحجة أنه زواج غير متكافئ لكنى صممت ونجحت فى إقناع أبى بألا يقف فى طريق سعادتى فوافق بعد جهد كبير.. وزففت إلى زوجى الحبيب وأنجبت منه طفلة جميلة عمرها عامان وعشت معه أحلى أيام عمرى .. منذ الليلة الأولى لزواجنا . ورغم أنه لم يطلب منى التفرغ للبيت فلقد فضلت أن أتفرغ لبيتى وألا أعمل ..

ومرت ٣ سنوات الآن على زواجنا وقد تتصور أنى أكتب إليك الآن بعد أن انتهت أيام العسل لأقول لك إننى ندمت على زواجى منه .. أو أن فارق السن قد كشف عن مشاكل لم أكن أعرفها ولكنى لم أكتب لك من أجل ذلك .. لأنه لم يحدث أى شىء من ذلك .. ولأنك لاتتصور كيف يعاملنى

زوجي العظيم هذا .. فأنا لم أعان لحظة واحدة من فارق السن وهو يفعل كل شيء وأى شيء لإسعادى وهو يعطف على « ويحن » على أنا وابنتى الصغيرة . ولم تتغير معاملته لى ولم أضق بحياتى معه بعد فترة عندما « أفيق » كما حذرنى أبى وأمى بل ولم تقع بيننا أية خلافات ذات شأن منذ زواجنا وحتى الآن .. وإذا وقع بيننا خلاف كما يحدث بين كل الأزواج متقاربى السن . فإنه لايستمر سوى دقائق لأن كلا منا لايطيق أن يرى الآخر حزينا أو متضايقا ، فيسعى كل واحد منا لإنهاء الخلاف وسرعان مايقول للآخر بنظراته أنا آسف أو أنا آسفة ثم يجرى إلى الآخر يعانقه ونضحك معا على السبب الذى أثار هذا الزعل البسيط ..

وأنا فى كل لحظة أشكر الله أن منحنى زوجا فاضلا عظيما كهذا الرجل وأرجو أن تدوم سعادتى إلى الأبد إن شاء الله .

إذن ماهى المشكلة ياسيدى .. المشكلة أن زوجى وهو موظف بإحدى الشركات الحكومية يضيق بالحياة فى بلدنا .. ويتأفف كثيرا من الشوارع غير النظيفة ومن سوء معاملة الباعة وجشعهم .. ومن انقطاع حرارة التليفون .. إلخ ويقول دائما إن هذه الصعوبات ليست موجودة فى الخارج ويتمنى أن يعيش خارج مصر وقد بدأ يجرى اتصالاته لكى يسافر ويعيش فى بلد أجنبى وأنا ياسيدى لا أستطيع أن أسافر وأعيش فى بلد غريب لا أعرف فيه أحدا ولا أرى فيه أهلى ولقد ناقشته طويلا فى ذلك وحاولت إقناعه بأن بلده أولى به وبأن يطرح هذه الفكرة من رأسه ففشلت ، وهو يقرأ لك بانتظام كل يوم جمعة وقد اقترحت عليه أن أكتب لك لكى تحاول إقناعه بما فشلت فيه .. ولنعرف رأيك فأرجوك أن تقنعه بذلك .. وشكرا لك مقدما من زوجة حائرة .

□ □ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : إن من حقنا جميعًا أن نشكو من بعض سلبيات الحياة فى بلادنا .. وأن نتأفف من قذارة الشوارع وجشع الباعة وانقطاع الحرارة عن التليفون أحيانا لكنه ليس من حقنا أبدا أن نسعى جميعا إلى هجرة بلادنا لأن بعض مظاهر الحياة فيها لايرضينا ، وأنا دائما من أنصار الهجرة والكفاح فى أرض الله الواسعة إذا كانت له دوافعه الجادة كأن تضيق بالإنسان سبل الرزق فى بلده أو يعجز عن بناء حياته ومستقبله فيها أما أن يهاجر البعض وكل سبل الحياة متاحة له لمجرد «القرف» من بعض سلبيات المجتمع فهذا مالا أوافق عليه ولا أشجعه أبدا لأن لكل مجتمع إيجابياته وسلبياته مهما كان مستوى المعيشة فيه مرتفعا ولكل إنسان دائما وفى أى مجتمع ما يرضيه وما يثير شكواه ولقد طفت بعدد كبير من دول العالم على مدى عشرين عاما وحاورت الآلاف فى هذه الدول فلم أصادف إنسانا فى دول الشرق أو الغرب يعتبر بلاده جنة الله فى أرضه .. أو أفضل مكان فى العالم فهناك دائما مايثير سخط الإنسان فى كل زمان ومكان وليست هناك فوق الكرة الأرضية مدينة فاضلة كمدينة أفلاطون التى تخيلها أو التى يتخيلها بعض الفلاسفة فى « اليوتوبيا » ولن تكون فى ظنى وإلا لكانت الجنة التى وعد بها المتقون .

وإنما هناك دائما سخط ورضا .. وقبول ورفض .. وسعادة وتعاسة وحياة سهلة وحياة صعبة فى كل مجتمع وفى كل مكان ، فإذا كان لحياتنا سلبياتها الكثيرة فإن لكل حياة فى أى مجتمع سلبياتها وايجابياتها أيضا ، ومن سلبيات الحياة بالنسبة لكما فى أى مجتمع آخر أن سعادتكما التى تعيشانها الآن لن تتحقق كاملة هناك وأنت تفتقدين الأهل والصحاب والأمان النفسى ، وكل إنسان يهفو قلبه إلى بلاده مهما لقى فيها من متاعب وآلام والرسول الكريم حين

خرج بأمر ربه من مكة التى حورب وطورد ولقى فيها من العنت الكثير خرج موجع القلب باكيا يقول : « رب أخرجتنى من أحب البلاد إلى » فكيف بنا نحن الضعفاء ؟.

لاياسيدتى لا أوافقه على الهجرة إذا كانت هذه فقط هى دوافعه لها أما إذا كانت لديه دوافع أخرى غير معلنة كرغبته اللاشعورية مثلا أن يعيش فى مجتمع لايلتفت فيه أحد لفارق السن بين الزوج والزوجة لأن كل إنسان مشغول فيه بنفسه ولا يهمه من أمر الآخرين شيئا .. فهذا أمر آخر لكنه لايستحق على أى حال تعكير صفو حياتكما مادمتما قد اخترتما حياتكما معا وما دمتما سعيدين بها والسعادة لغز فى النهاية قد تتحقق للإنسان حين يتوقع له الآخرون التعاسة .. وقد لاتتحقق له حين يكون الظن أن كل أسبابها قد توافرت له . فليس من حق أحد إذن أن يسأل لم أو لماذا لأنها هبة من ملك الملوك الذى إذا وهب لا نسألن نحن عن السبب ، والسعادة فى النهاية إحساس داخلى لا علاقة له بحرارة التليفونات ولا بالشوارع النظيفة فعسى أن يعرف زوجك قدر هذه الهبة التى وهبها الله له وألا يسعى لإزعاج حياتكما بمشروع الهجرة الذى ترفضينه .. والذى لاتدعو إليه أية ضرورة أما أنت ياسيدتى فهنيئا لك سعادتك وأرجو أن تدوم بفضل من الله إلى الأبد لكن لاتنتظرى من غيرك أن يكرر تجربتك لأن لكل قاعدة استثناء .. ولأن قوانين الحياة العادية أولى دائما بالاتباع .. وشكرا ..

النافذة المضيئة!

أكتب إليك بعد تفكير طويل لأستعين برأيك فى حالى فمنذ ٤ سنوات كنت طالبة بإحدى الكليات الجامعية .. وكنت أحاول بكل طاقتى أن أتفوق وأن أحصل على تقدير ممتاز لكى أجد فرصة التعيين كمعيدة فى نفس كليتى لأن أسرتى بسيطة ولا أمل لى فى وظيفة عن طريق أحد الأقارب كما يفعل المحظوظون .. لذلك وضعت همى فى مذاكرة دروسى وكنت أسهر الليل أراجع دروسى وأعيد مراجعتها وحين يصيبنى الملل اقف فى النافذة بعد منتصف الليل قليلا أشم الهواء واستريح قليلا ثم أعود للمذاكرة .. وذات مساء لاحظت أن هناك نافذة على بعد قريب منى تظل مضاءة معظم ساعات الليل مثلى .. فقدرت أنه طالب أو طالبة تذاكر دروسها مثل ..

ووجدت نفسى بعد فترة مشدودة إلى منافسة صاحب هذه النافذة المضيئة فى الاستذكار .. وكلما أرهقنى التعب ونظرت إليها فوجدتها مضاءة زال عنى التعب وقررت مواصلة المذاكرة ساعة أخرى حتى تنطفئ النافذة الأخرى .. هكذا مضت الليالى بى .. وبعد فترة عرفت أن من يذاكر بها طالب .. وبعد أسابيع أخرى بدأت أحس كأنه يعرفنى وأعرفه .. وبعد فترة أخرى كانت قد نشأت بيننا علاقة « ضوئية » إذا جاز هذا التعبير فأصبحنا نتبادل التحية عن طريق إطفاء نور الحجرة وإضاءته عدة مرات كل ليلة .. ثم بدأ يمر تحت

نافذتى فى النهار ونتبادل الابتسامات ، ثم عرفته وعرفنى وعرفت أنه طالب فى نهائى الهندسة وأنه يسبقنى بعام ولم تمض شهور إلا وتقدم لخطبتى بمجرد تخرجه .. واتفقنا على أن ننتظر لمدة عام إلى أن اتخرج ثم نتزوج ، وقد قربتنى منه فترة الخطوبة كثيرا فأحببته حبا عظيما وأحبنى هو كذلك ، ورضينا نحن الاثنين بظروفنا فهو مكافح مثلى لا أحد له سوى أمه .. وأنا ابنة لموظف مكافح ، وجمع بيننا الحب والاحساس بأنه لا نصير لنا فى الحياة ، لذلك فلقد قلت له إننا إذا انتظرنا حتى يدخر ثمن الجهاز فسوف تنقضى زهرة العمر ونحن فى الانتظار لذلك فإن علينا أن نتزوج الآن ونعد جهازنا فيما بعد حين تسمح ظروفه ولو بعد عشر سنوات .. وكنت قد جهزت الأشياء الخاصة بى فى حدود إمكاناتى ففكر هو قليلا فى الأمر ثم وافق على أن نتزوج خاصة أنى وافقت على الاقامة مع أمه فى مسكنهما .. وأنه قد عين مهندسا بسبب تفوقه بإحدى الهيئات الحكومية بعد نجاحه فى مسابقة التعيين ..

وهكذا احتفلنا فى بيتنا احتفالا بسيطا بالزفاف .. لم يحضره سوى بعض أقاربى وبعض أقاربه .. ولم نقدم فيه للضيوف سوى الشربات وقطع الكيك التى صنعتها أمى . ثم انتقلت معه إلى مسكنه ، وبدأت حياتى الزوجية سعيدة به وبنفسى . واتفقنا على أن نؤجل الإنجاب حتى تتحسن ظروفنا وحتى ندخر مبلغ الجهاز ، ومضت أيامنا سعيدة سعادة البسطاء من أمثالنا .. أساعد حماتى فى أعمال البيت .. نعيش معا فى حياة مشتركة بلا أى متاعب لأنى أحببتها - واعتبرتها كأمى واحبتنى هى أيضا وعطفت على ، ومضى عامان على زواجنا وزوجى يعمل ليل نهار يخرج من عمله الحكومى إلى عمل آخر ويعود إلى البيت فيستدعونه فى العمل الحكومى فى منتصف الليل لأنه يعمل فى أحد مرافق الخدمات التى تتطلب العمل فى أوقات مفاجئة فيخرج نشيطا ويعود

قرب الفجر ، وهو ينفق على البيت جزءا من مرتبه-مع معاش أمه ويدخر الباقى لكى نشترى الجهاز ... وبعد كفاح عامين لم ندخر سوى « باكو » بلغة هذه الأيام .. ولم أقلق لأن الأيام أمامنا ولأنى سوف أعمل ذات يوم وسوف أساعده فى الادخار .. لكن المشكلة هى أن زوجى ياسيدى قد بدأ ينفد صبره وبدأ يقول لى أنه لا أمل لنا فى أى شىء وأن الطريق طويل أمامنا .. ثم بدأ يمضى فترات طويلة صامتا أو سارحا وكلما اقتربت منه وحاولت مشاركته أفكاره يبعد عنى ... ثم فاجأنى منذ ٣ أسابيع بمفاجأة هزتنى من أعماق حين قال لى أنه يشعر أنه ظلمنى معه .. لأننا ننام على سرير سفرى ونعيش فى شقة صغيرة قديمة شبه خالية من الأثاث ، وليس بها ثلاجة ولا تليفزيون .. وأنه يفكر فى أن يتركنى لآخذ حظى مع غيره ممن يستطيعون تقديم شبكة ومهر وتأثيث شقة إلى آخر هذا الكلام .. وبكيت وقلت له إن كلا منا يحب الآخر ويرى فيه حياته ومستقبله ، واننى لست متعجلة لأى شىء ولا يهمنى جهاز أو غيره وإنما يهمنى أن أضع رأسى كل ليلة على وسادة ينام عليها من يحبنى وأحبه ..، وهددته بأنه إذا عاد إلى هذا الحديث مرة أخرى فسوف أشكوه لأمه . فانتهى الحديث ، لكنه بعد أيام أخرى قال لى يا فلانه أنت صعبانة على لأنك أحببت شابا فقيرا .. وأنت جميلة وتستطيعين الزواج من شاب ميسور ، فوضعت يدى على فمه ثم قلت له لا تحاججنى بذلك لأنك شاب وفى مقتبل العمر والحياة أمامك وإذا كنت تعتبر نفسك فقيرا فلا تنس أيضا أننى فقيرة دقة ، ومع ذلك فأنا أعتبر نفسى غنية بك .. واعتبرك أغنى رجل فى العالم فلا تعذبنى بهذا الكلام .. فسكت لكنه يزداد حزنا يوما بعد يوم . إنه شاب ممتاز ويعاملنى بكل حب وهو مهندس شريف ولو أراد أن يكسب الكثير من عمله لفعل .. لكنه يرفض أن ينحرف ولن ينحرف أبدا لأنه يعرف

ربه ويخشى الحرام وأنا أخشاه أكثر منه ، وأريد منك أن تقول له أننى لا أرضى به بديلا وأننى سعيدة معه فى الشقة القديمة مع الأثاث القديم وأنى مستعدة أن أنام بجواره على حصيرة .. لكن عليه فقط أن يطرد هذه الفكرة من ذهنه لكيلا تعكر عليه حياته .. ولكى نعيش حياتنا كما يعيش كل الناس .. ولابد لكل ليل من آخر .. إننى أرجوك أن تقول له ذلك على لسانى لكى يهدأ ويستريح ويعود إلى نشاطه وابتسامته فهل تفعل ذلك من أجلى ؟.

□ □ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : نعم أفعل يا سيدتى بكل سرور .. لكنى مهما أجهدت نفسى فى تنميق الكلمات فلن أعثر على كلمات تعبر عن حبك له وتمسكك به أجمل ولا أصدق من كلمات رسالتك هذه .. لذلك فلن أضيف إليها الشىء الكثير .. ولن أعيد تكرار كلمات الحب والوفاء والاخلاص على زوجك الشاب لكنى سأطلب منه فقط أن يعيد قراءة رسالتك هذه عدة مرات وأن يعى معناها الكبير .. وان يعتبرها تميمة حب يقبض عليها بيده ويدفع بها عن نفسه الضيق والملل كلما ضاق صدره بظروف الحياة لأنها زاد عظيم لمن يشق طريقه فى الحياة معتصما بالقيم ورافضا للانحراف كما يفعل زوجك .. وقوة دفع كبيرة سوف تدفعه بإذن الله إلى مواصلة طريقه المستقيم متمسكا بك ومحتميا بحبك ضد صعوبات الحياة حتى تتحقق الأمال بإذن الله ..، وعفوا ياسيدى إذا قلت لك أن رسالة زوجتك هذه يشقى كثيرون لكى ينالوا بعضا من كلماتها الصادقة من شريكات حياتهم الشقية رغم معاناتهم لاسعاد زوجاتهم وتوفير كل متطلبات الحياة لهن فلا تفرط فى قلبها الذهبى الذى يغمرك بكل هذا الحب ولا تفقد صبرك وجلدك على متاعب الطريق الطويل أعانك الله عليه وأعان كل الشباب من أمثالك على آلامه وتبعاته الجسام .

حكاية قديمة

أنا يا سيدى أب قاربت سن المعاش لا دخل لى سوى مرتبى الحكومى ومورد آخر من عمل إضافى جاهدت فى الحياة لتعليم ابنتى وقاسيت الكثير لتوفير الظروف الملائمة لتعليمها تعليمًا عاليًا فأدخلتها المدارس الخاصة رغم ارتفاع رسومها .. وحرمت نفسى من ضروريات الحياة لأوفر لها الدروس الخصوصية حين بلغت مرحلة الجامعة لأنها اختارت فرعًا صعبًا وحديثًا من فروع الدراسة ، هو شعبة الهندسة الطبية بكلية الهندسة .. وكانت الدراسة شديدة الصعوبة حتى ليستحيل بالفعل على كثيرين أن ينجحوا فيها بغير معونة الدروس الخصوصية .. ويعلم الله كم تحملت لأفى بتكاليف هذه الدروس لكن الهدف كان يستحق المعاناة من أجله .. وكافأنا الله على صبرنا .. فكانت ابنتى عند حسن الظن بها ، وعلى قدر المسئولية فتخرجت من كلية الهندسة منذ عامين ، وحمدت الله كثيرًا على ذلك وأحسست أنى أديت واجبى تجاه أسرتى فلقد تخرجت أيضًا ابنتى الصغرى متفوقة أيضًا وعينت معيدة بإحدى الكليات ، وبدأت اطمئن للمستقبل فابنتى الكبرى لن تلبث أن تعمل بعد قليل لأن تخصصها حديث ومطلوب .. وخلال سنوات العمل الأولى تستطيع ابنتاى وهما تعيشان فى كفالتى أن توفرا للغد ما تستطيعان به تجهيز نفسيهما حين يتقدم لهما صاحب النصيب ، وأستطيع أنا أن أؤدى واجبى معها فى حدود قدراتى واطمئن إلى أن كلا منهما قد

استقرت فى بيت زوجها وأن رحلتى قد أثمرت ثمارها الطيبة .

وبينما أنا فى أحلامى السعيدة هذه فوجئت بما لم أكن أتوقعه من ابنتى المهندسة فلقد رفضت العمل بصفة نهائية وتحجبت ولزمت البيت تمضى ساعات الليل والنهار جالسة إلى جانب أمها .. ورفضت كل عرض قدم لها للعمل سواء فى الحكومة أو القطاع العام .. هل تعرف لماذا ياسيدى ؟.. لأن عمل المرأة حرام .. أيًا كان نوعه ! ! وكلما سألتها عن حجتها فى ذلك قالت لى «وقرن فى بيوتكن !» .. فأقول لها استكملى نص الآية لتعرفى أن المقصود بها أى عمل خارج عن الدين وأن النساء فى الإسلام كن يساعدن الرجال فى غزوات النبى والخلفاء الراشدين وكن يقفن وراءهم فى المعارك ويحملن الماء إليهم وفتيات العالم الإسلامى يعملن ولم يقل أحد أن عمل المرأة حرام بصفة عامة .. فتقول لى «لكم دينكم ولى دين» .. ثم تمضى اليوم كله جالسة فى البيت أو تلتقى بفتيات محجبات يقرأن القرآن معًا فى المساجد ، أو تقرؤه وحدها معتزلة فى حجرتها ، وليس هذا مصدر الخوف .. لكن الخوف كله من أن تتحول الحياة إلى جلوس .. وكلام فقط ، والحياة عمل وعبادة ، والعمل عبادة أيضًا ، وما يثير حنقى هو أنى لو كنت أعرف اتجاهها إلى ذلك من البداية لوفرت على نفسى العناء الذى تحملته لكى أعلمها فى الجامعة وفى هذا الفرع الصعب من الدراسة ولاقتصرت على تعليمها تعليمًا متوسطًا ووفرت صحتى ومالى اللذين بددتهما خلال السنوات الماضية ..

وأنا الآن أريد منك جوابًا لهذا السؤال : هل عمل المرأة حرام ؟؟.. وإذا لم يكن كذلك ماذا أفعل معها ث أكون قد أرضيت ربى وضميرى معها خاصة وأنى أخشى عليها من الفراغ ومن الحياة التى تسلكها فى صحبة هؤلاء الفتيات ؟..

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : لا أعرف سر هذا البلاء الذى يفرض علينا من حين إلى آخر لإضاعة الوقت والجهد والطاقة فى قضايا لم تعد قابلة للجدل لأنها محسومة بالنصوص والأحكام الشرعية منذ قديم الزمان اللهم إلا إذا كان البعض منا يعتقد أننا قد حققنا لمجتمعنا ولأنفسنا فوق ما نريد له من العدل والوفرة والرخاء .. وآن الأوان لأن نجلس على الأرائك لنعيد فتح باب المناقشة فى القضايا القديمة .. ونمتحن أدلتها الفقهية .. ونجتهد فى استخراج أحكام جديدة حولها . عمل المرأة أيًا كان نوعه حرام ؟ يا إلهى ! ! ! إن الإسلام لم يمنع المرأة من الجهاد .. فكيف يمنعها من العمل الشريف الذى تكسب منه رزقها وتخدم به مجتمعها وغاية كل الأديان هى خير البشر وسعادتهم وليس التعسير عليهم وإرهاقهم ! !

والإسلام لم يمنع المرأة من الاشتغال بالسياسة .. فناصرت نساء كثيرات عليا ابن أبى طالب فى صراعه مع معاوية .. ودعت السيدة عائشة ضد على وشهدت موقعة الجمل وهذا هو قمة العمل السياسى .. فكيف يحرم الإسلام المرأة من حق العمل الشريف ؟؟

لقد خرجت النساء مع الرسول فى غزواته وكانت إحدى أمهات المؤمنين تناوله السهام ليرشق بها الأعداء فى بعض الغزوات ، وكانت النساء يسقين المجاهدين ويعالجن الجرحى ويقمن بما يقوم به الآن الجنود فى الخطوط الخلفية أثناء المعارك ، بل وشاركت بعضهن فى القتال وامتطين الخيول وامتشقن السيوف حتى تساءل خالد بن الوليد فى إحدى معاركه ضد الروم عمن يكون هذا الفارس المقدام الذى يقاتل بشجاعة فى صفوفه فإذا به السيدة خولة بنت الأزور الكندى ! ! وفى كتب التاريخ إشارات عديدة لنساء عملن بالتجارة وبالطب .. وأورد كتاب «طبقات الأطباء» إسم إحداهن اشتهرت بممارسة

الطب وتفوقت فيه وهى السيدة زينب طبيبة بنى أود ، بل وروت كتب أخرى أن سيدة قد تولت القضاء فى عهد الخليفة المقتدر فى العصر العباسى فشهد لها الرجال بالعدالة واطمأنوا إلى قضائها ، وغير هذه وتلك كثيرات وكثيرات فى كل العصور .. فلماذا نفتح هذا الباب من جديد الآن ، والعقل يقول لنا إن الإسلام قد كرم المرأة ومنحها من الحقوق والواجبات ما منح الرجل بل وما لم تمنحه لها قوانين بعض الدول الأوروبية حتى الآن مثل حق التصرف فى مالها بغير إذن الزوج .. فكيف يعقل أن تعطى الشريعة للمرأة المتزوجة حق أن تبيع ما تشاء وتشترى ما تشاء وتودع أموالها فى المصارف باسمها وأن تحتفظ بمالها ودخلها لنفسها وهو ما لم تصل إليه المرأة فى بعض المجتمعات المتحضرة حتى الآن ، ثم يحرمها بعد ذلك من حق العمل الشريف الذى تساعد به نفسها وزوجها وأبناءها ومجتمعها ؟!!

إنها مسألة منطق أكثر منها مسألة جدال حول الأحكام والنصوص والبراهين ، فإن شاءت ابنتك أن تعرف النصوص والأحاديث أيضًا .. فلتحسن أولاً قراءة كتاب الله ، لتتفهم معانيه السامية .. ولتقرأ كتابًا ككتاب تفسير المنار للإمام محمد عبده .. أو كتابًا ككتاب «مكانة المرأة فى الإسلام» للأستاذ الابراشى أو أى كتاب يضم الفتاوى ولو شاءت أن أهديها بعضها فإنى على استعداد لذلك فى أى وقت .. لكن المشكلة ليست فى ذلك ، وإنما فى هذا الظلام الذى يخيم على عقولنا ويقيد حركتنا للكفاح من أجل مستوى معيشة أفضل .. إن قومًا فى مثل ظروفنا الصعبة ينبغى عليهم أن يسابقوا الزمن ليحاربوا التخلف والفقر وصعوبات الحياة .. لا أن يحاول البعض أن يحرم مجتمعنا من جهده ومشاركته وعلمه بحجة أن عمل المرأة حرام .. ونحن فى حاجة إلى كل قطرة عرق .. وإلى ثمرة كل عقل لنغالب ظروفنا .. ثم كيف تكون العبادة حجة

مقبولة لقعود الهمة والتوقف عن العطاء والعمل والكفاح .. وكتاب الله الذى بين يديها يحث على العمل والسعى فى الأرض .. ورسوله الكريم يأتى إليه قوم يقولون له إن فلانًا يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر فيسألهم أيكم يكفيه طعامه ؟ فيقولون : كلنا ، فيقول لهم : كلكم خير منه ! !

ورسوله أيضًا يصافح ذات يوم معاذ بن جبل فيستخشن يده ويعرف أنها قد اخشوشنت من العمل فى الزراعة ليكسب رزق عياله .. فيقبله أو يقبل يده فى رواية ويقول له : تلك يد يحبها الله ورسوله ! !

وما ينطبق على الرجل ينطبق على المرأة فى الإسلام لأنه ساوى بينهما فى الحقوق والواجبات .. وأباح للجميع حق العمل الشريف وطالبهم بالإسهام الجاد فى ترقية الحياة ..

فقل لها ذلك يا سيدى .. واستعن عليها بالعقلاء من اهلك .. وانصحها بأن تخدم نفسها ومجتمعها بعلمها الذى اجهدت نفسها وأجهدتك لتكتسبه وهو من فروعه المطلوبة بالحاح فى بلادنا ، فإن لم تنتصح فلا تحمل نفسك ما لا طاقة لك به فلقد أرضيت ربك وضميرك وأديت واجبك كاملاً تجاهها .. ويكفى أنها سوف تتحمل تبعات اختيارها .. وسوف تلمس الفرق واضحًا بين إمكاناتها وإمكانات شقيقتها حين تتزوج فتندم على أنها لم تسع فى الأرض لتكسب رزقها وتعين نفسها على نفقات الزواج .. أما أنت فلا جناح عليك أن قصرت إمكانياتك عن الوفاء بما يتطلبه زواجها من نفقات لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها ولأنها كانت تستطيع أن تعينك على أمرها لكنها اختارت أن تكون « معالة » إلى الأبد رغم احتياجها .. فأبت لنفسها الكرامة التى كرمها بها دينها حين ساوى بينها وبين الرجل فى الواجبات والحقوق ، واختارت لنفسها « مهانة » المرأة فى القانون الرومانى القديم الذى كان يرى «أن المرأة كالطفل

ليست أهلاً للتصرف طيلة حياتها ويجب أن يوكل كل أمرها إلى رب الأسرة » ..

ومن لا يساعد نفسه يا سيدى لا يستطيع أحد أن يساعده مهما فعل ومن يأب الكرامة لنفسه فلا يستطيع أحد أن يرغمه على تكريم نفسه بالكفاح الشريف فى الحياة .. والسلام ..

أيّام الطفولة

«أرجو أن تصدق كل كلمة أكتبها لك لكى تشير على بالرأى السليم فى مشكلتى التى تؤرق حياتى فأنا سيدة فى الثامنة والعشرين من عمرى .. نشأت فى أسرة متوسطة الحال فى حى شعبى ، وكعادة أهل الحى كنا نلعب فى الشارع : الأولاد مع البنات معظم ساعات النهار ، وفى سن مبكرة أرجو أن تصدقنى إذا قلت لك أنها كانت سن السادسة من العمر وجدت نفسى أستكين تحت حماية «ولد» من أطفال الجيران فى التاسعة من عمره بدأ يمارس معى دور الأخ الأكبر فيمنعنى من اللعب مع هذا .. ويضرب من أجلى ذاك .. ولا أستطيع أن أتصرف أى تصرف بغير مشورته أو أن أذهب إلى مكان إلا بإذنه وكأنه الآمر الناهى فى حياتى .

وربما شجعنى على ذلك أنى كنت وحيدة بلا أشقاء ذكور ، وإنى تربيت فى أسرة تعمل فيها أمى وأبى معًا فى محل تجارى صغير ولا نشعر كثيرًا باهتمام أبى أو بسيطرته فالأم هى التى تعمل معظم ساعات النهار وهى التى تدبر حياتنا ،.. وتقضى لنا مطالبنا وتشترى لنا ملابسنا أما الأب فغير مبال فى معظم الأحوال ، وهكذا وجدت فى هذا الصبى ما افتقدته فى أبى من قوة وحزم ورعاية ، ولن أطيل عليك فى سرد ذكريات طفولتى لكنى سأقول لك أننا واصلنا التعليم الإبتدائى ونحن مرتبطان بهذا الشكل حتى إذا وصلنا إلى المرحلة الإعدادية كنا قد

أصبحنا مشكلة حقيقية بالنسبة لأمى التى كثيرًا ما هددتنى للابتعاد عنه وأيضًا لأبيه الذى كثيرًا ما هدده وضربه ليتوقف عن اعتبار نفسه مسئولاً عنى !

وحين وصلنا إلى أوائل المرحلة الثانوية لم يجد أبوه مفرًا من أن يصطحب ابنه معه إلى بيتنا ويقابل أبى ويعرض عليه الأمر ضاحكًا .. ثم يطلب منه قراءة الفاتحة على خطبتى لابنه لكى يستريح من هذا الصداع ! ورحب أبى وتمت قراءة الفاتحة ، واعترف بنا الأهل كخطيبين واطمأن خاطرى وحين وصلت إلى الثانوية العامة عقدنا القران ، وبلغت سعادتى القمة ودخلت الامتحان ونجحت ونجح هو أيضًا والتحق بكلية الزراعة والتحقت أنا بمعهد الخدمة الاجتماعية .

وبعد عامين بدأ خطيبى يستعد لإعداد الجهاز فترك الدراسة مؤقتًا وعمل بائعًا فى محل تجارى لكى يوفر متطلبات الزواج ، وفى هذه الفترة بدأت معاناتى معه .. فكثرت مشاجراتنا .. وكلما تشاجرنا ترك العمل ويظل هكذا حتى أصالحه ، وعرف هو نقطة ضعفى فاستغلها تمامًا ، ونصحنى البعض بأن تكون لى شخصية معه لكنى لم أستطع أبدًا يا سيدى ، وكلما أفلتت أعصابه منه تحملت وقلت لنفسى أنه يكافح لإعداد الجهاز ولا أحد يساعده وينبغى على أن أصبر . ثم تزوجنا بعد ٣ سنوات .. وطالبته بالعودة للدراسة دخل امتحان السنة الثالثة من الخارج ونجح ثم حصل على البكالوريوس وحصلت أنا أيضًا على شهادتى .

وكان المفروض أن تكتمل سعادتى .. لولا أنى لم أحمل خلال السنوات الخمس التى مضت من الزواج .. ولولا أن طبعه لم يتغير معى ، فحياتنا معًا مزيج من السعادة والمشاكل فى نفس الوقت ..

فأيامنا إما سعيدة جدًا جدًا .. وإما تعيسة جدًا .. مشحونة بالمشاجرات والغيرة والمشاحنات حول الحمل والإنجاب وكلما تشاجر معى امتدت يده علىّ

بالضرب كما سبق أن ضربنى مرة ونحن مخطوبان فى الشارع ورغم ذلك فأنا أرفض تدخل أحد من أهلى أو أهله بيننا ، وواجهت معه مشاكل الحياة فبعد التخرج لم يعمل وإنما افتتح بمساعدة أبيه محلاً صغيرًا فى مكان بعيد لم ينجح فعرفنا ضيق العيش بنفس راضية حتى اضطر أن يغلقه ويعود إلى الحى الشعبى الذى نشأنا فيه ويتخذ من «فترينه» على الرصيف مكانًا لبيع بضاعته ، وتحسنت الأحوال قليلاً ، لكنى كنت أضيق أحيانًا بمشاجراته وضيق العيش فاترك له الشقة وأعود إلى بيت أبى ، ورغم ذلك كنت أتعجب لأنى لا أجد راحتى فى بيت أبى الذى طالما وجدت الراحة فيه أما أمى فهى تجدها فرصة لتكرار نصائحها لى بأن أنفصل عن زوجى .. وأبحث عن الأمان مع غيره مادمت لم أنجب منه ولست مستقرة معه فيدخل كلامها يا سيدى من هذه الأذن ليخرج من الأذن الأخرى بلا أى تأثير ثم بعد عدة أيام أجدنى كأنى منومة أذهب إليه فى الشارع الذى يقف فيه .. وأشير إليه مبتسمة فما أن يرينى ابتسامته حتى أنسى كل ما حدث وأسير معه إلى البيت .

وذات يوم كانت أخت زوجى فى زيارتنا فخرجت فى الصباح الباكر لأمر ما ثم عادت بعد دقائق حاملة معها طفلاً حديث الولادة «بالدم والسرة» عثرت حماتى علينا أن نحتفظ بهذا الطفل ونربيه لعله يهدئ نفوسنا سيكون فاتحة خير علينا .. .. ولم أتكلم لكنى تمنيت من أعماق أن يوافق زوجى .. فوافق وأخذنا الطفل فعلاً وذهب هو إلى مكتب الصحة واستخرج له شهادة ميلاد باسمه واسمى .

وفرحت بهذا الطفل فرحة كبرى وبدأت أهتم به وأجد ما ينقصنى وانشغل به ساعات نهارى التى يغيب فيها زوجى أما هو فلم يتغير فيه شىء .. فيضربنى لأتفه الأسباب ولا ينقذنى منه حتى صراخ الطفل .. ورغم حبه له فلقد قال لى

أكثر من مرة أنه يريد طفلاً من دمه .

ومع ذلك مضت الحياة بنا .. حتى عرفت أنه اقترب من جارة له فى الركن التجارى الذى يقف فيه .. وأنه يريد أن يتزوجها لكى ينجب منها .. وعند هذا الحد لم احتمل أكثر من ذلك فحملت ابنى وعدت إلى بيت اسرتى !. وطلبت من أبى أن يقابله ويطلب منه الطلاق وذهب إليه أبى واتفق معه على كل شىء .. وحدد معه موعدًا لكى نذهب إلى الشقة «ونفك» الأثاث وننقله إلى بيتنا ثم نذهب معه إلى مكتب المأذون لكى نجرى إجراءات الطلاق .

وفى صباح اليوم المحدد أحضر أبى عربة نصف نقل واثنين من الأقارب وذهبنا إلى شقتى لنتسلم العفش .. ووجدته ينتظرنا وأقسمت لنفسى ألا أضعف معه مرة أخرى مهما حدث فحييته تحية عادية وانشغلت مع الموجودين فى فك الأثاث وتحميله إلى السيارة .. وجمع الأوانى والصينى فى كراتين صغيرة ومضت ساعة ونحن نعمل وهو يساعدنا حتى أنزلنا الأثاث ولم تبق سوى بعض الكراتين فبدأت أستعد للانصراف إلى المأذون وقبل أن نغادر الشقة قلت له فجأة : «إبقى إسال علىّ» فهز رأسه صامتًا ثم أمسك يدى وقبلها .. فلم أشعر بنفسى إلا وأنا أقبل يده وأبكى وأبى واقف مندهشًا ومذهولاً أمامنا وقريباى والسائق .. ينظرون إلينا صامتين .. وبعد دقيقة من الصمت استجمعت إرادتى وطلبت على استحياء من السائق وأقاربى أن يعيدوا الأثاث إلى الشقة مرة أخرى .. فانفجر أبى فى صائحًا : الله يقطعكم .. هو لعب عيال ولا إيه .. والله لا أتدخل فى أمر لكما مرة أخرى وسأنصرف الآن ، فإذا بسائق اللورى يقول لأبى منشرحًا : انصرف إنت فى سلام .. ويمين على يمينك لأعيدن هذا الأثاث إليهما ولن أتقاضى من أحد أجرة هذه «العطلة» .. فلقد ذقت من قبل «مرار» هذه اللحظة وأعرف معنى خراب البيوت .. ثم دفع قريبى إلى خارج الشقة وأعادوا

الأثاث خلال دقائق وهم يتضاحكون ويتندرون وساعدونا فى إعادة تركيبه ، وشكرناهم من أعماقنا وانصرفوا سعداء يوصوننا بألا نفرط فى بعضنا البعض وأن نتقى وساوس الشيطان .

وعدت إلى بيتى من جديد يا سيدى .. لكنى أشعر أن شيئًا بيننا قد إنكسر فأنا أحبه لكنى أكره أفعاله .. ولا أستطيع الاستغناء عنه لكنى أريد أن أعيش معه فى سلام ، وهو يحبنى ولا يستطيع الاستغناء عنى لكنه لا يريد أن يحيا معى حياة طبيعية بلا مشاكل ولا مشاجرات .

إنى أقول لنفسى أحيانًا إننى يجب أن أتحمل .. وأعيش معه وأرضى بالقليل لكى يحس بالأمان ويهدأ ويستقر .

وأقول لنفسى فى أحيان أخرى .. يجب أن انفصل عنه .. وأتعذب إلى أن أنساه ثم أبدأ حياتى من جديد بعد عذاب ، نعم .. ولكن فى إستقرار يدوم إلى آخر العمر .

وبين هذا وذاك احترت وتعبت ظنونى وقد كتبتُ لك هذه الرسالة وأنا فى أشد حالات ضيقى راجية أن تشير علىّ بالرأى السديد وأعدك أن أعمل به ، لكن أرجوك ألا تطلب منى الطلاق لأن معناه أن أحكم على نفسى بالموت وأن أحرم طفلاً من أب يمكن أن يوجهه حين يكبر التوجيه السليم حتى ولو قال بعض الناس أنه ليس ابننا .. فبماذا تشير علىّ ؟

□ □ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : إنك لم تدعى لى يا سيدتى مجالاً للاختيار ، فلقد حسمت الأمر كله لرفضك أساسًا لفكرة الانفصال .. وحسنًا فعلت لأنك لن تستطيعى فعلاً الانفصال عنه ولن يهدأ لك جانب إذا ما حرمت منه فهو تحت جلدك وممتزج بدمك وطفولتك وصباك ، وأنت أيضًا تحت جلده وممتزجة بدمه وحياته حتى ولو لم يدرك ذلك تمامًا الآن .

إذن فلا مكان لحل الانفصال فى القصة كلها .. لأنها قصة عمر وقصة حياة من هذا النوع الذى يقول فيه الشاعر :

كأن لم يكن فى الناس قبلى متيم

ولم يك فى الدنيا سواك حبيب

وأنا أصدقك فى كل ما قلت .. وأعجبت كثيرًا بشهامة هذا السائق الإنسان وحكمته وأرى أن مثلكما لن يهنأ له عيش بعيدًا عن الآخر .. ولو عاش فى قصور فاخرة ، وأن سفينة كل منكما لن تلبث أن تعود إلى مرفئها القديم مهما تقاذفتها الأمواج بعيدًا عن الشاطئ .. ومهما طالت غيبتها .. فلا داعى للتجارب الفاشلة إذن .. ولا داعى لتكرار أخطاء الآخرين ممن تحدوا أنفسهم وجربوا حظهم بعيدًا فظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم حين بدأوا حياة جديدة مع الغير وقلوبهم رهائن لدى آخرين فشقوا وأشقوا غيرهم .. خصوصًا إذا كان الحب محفورًا فى القلب إلى هذا الحد .

غير أن آفة هذا النوع من الحب الملتهب هو أنه لا يعرف وسطًا بين السعادة والشقاء أبدًا فإما سعادة لاذعة حريفة .. وإما تعاسة حريفة ولاذعة أيضًا ، لأنه كالنار المتأججة دائمًا ومع ذلك فحتى التعاسة فيه لها مذاق خاص أجمل كثيرًا من النوع الآخر البغيض ومع ذلك أيضًا فكم من الناس من يتمنون لحظة من هذه السعادة اللاذعة ولو دفعوا ثمنها من أعمارهم !

وإذا كانت القاعدة القديمة تقول : إن من يحب أقل يسيطر أكثر ، فالواضح إنك تحبين أكثر وتسيطرين أقل لكن لا بأس بذلك .. فليس بين المحبين حساب ، والمهم هو أن تتجنبى متاعب هذه الحياة الحريفة وتستمتعى بسعادتها ولا مفر أمامك من الصبر عليه إلى أن يزداد نضجًا وحكمة وفهمًا للحياة .. ولا مفر أيضًا من أن تحاولى التماسك أمامه قليلاً لكيلا تشجعيه على

تكرار الأخطاء السابقة .. وأن تتجنبي المشاحنات معه بقدر الإمكان ، وأن تحاولى اقناعه بأنه حين يؤذيك جسديًا إنما ينال من عمره وحياته ووجوده كله ، وإنكما قد شببتما عن الطوق ولم تعودا صغيرين يلعبان فى الطريق ويجوز بينهما ما كان يجوز وهما فى سن الطفولة أو الصبا .

وسوف تتحسن الأحوال بإذن الله حين تتحسن ظروفه المادية .. وحين تنضجه الأيام والليالى ويعرف قيمة الكنز الذى أعطته له الدنيا ، وحين تعملين أيضًا وتساعدينه فى تحمل أعباء الحياة ، وحين يأذن الله لكما بالإنجاب .. وحذار ساعتها أن تتخليا عن هذا الطفل المحروم فمن يدرى فلعل الله قد جمع بينكما من جديد وصان عشكما من الدمار حماية لهذا البرىء من الضياع وجزاء لكما على أن أويتماه ورعيتماه بعد أن تخلى عنه ذووه .

المعـــركـــة

ليس أعمق من التجربة الشخصية .. نبعًا للحكمة ، وفهم الحياة ، حتى لقد تمنى أحد أبطال الروائى الكبير نجيب محفوظ فى روايته «السمان والخريف» أمنية خيالية هي أن يعود الإنسان إلى الحياة أكثر من مرة لكى يستوعب دروسها ويتجنب أخطاءه ثم يعيش حياته للمرة الأخيرة آمنًا سعيدًا متسلحًا بالخبرة الثمينة التى اكتسبها من تجاربه فى «حيواته» السابقة !

ولقد تذكرت هذه العبارة بشدة وأنا أقرأ هذه الرسالة التى كتبتها لى قارئة تعليقًا على رسالة «التحدى» التى روت فيها صاحبتها كيف شغلها طموحها فى عملها عن زوجها حتى تنبهت إلى أنه قد ضاق بانصرافها عنه وتزوج من زميلة له سرًا .

أما الرسالة فتقول :

«كتبت إليك من قبل رسائل عديدة لأستشيرك فى أمور تتعلق بأدق أسرار حياتى لكن رسالتى هذه لا أطلب منك فيها المشورة وإنما أتطوع بأن أقدم أنا النصح والمشورة لكاتبة رسالة «التحدى» وأرجو أن تسمح لى بذلك ، لأنى صاحبة تجربة .. ولا ينبئك مثل خبير ، كما تقول أنت دائمًا !

أنا يا سيدى سيدة فى الثامنة والعشرين .. تزوجت حين كان عمرى ٢٥ سنة من أستاذ لى بالجامعة كان وقتها فى الخامسة والأربعين ، وكنت أحبه

حبًا كبيرًا وكان هو يحبنى كما قال لى .

وقد تزوجنى بعد أن ضاق بإهمال زوجته له وانشغالها معظم وقتها عنه فى عملها العلمى المرموق الذى وصلت فيه إلى أعلى وأرقى درجات العلم .

وكان زوجى للحقيقة يحب زوجته الأولى حبًا كبيرًا لهذا أصر على أن يكون زواجنا سرًا فغضب أهلى وتخلوا عنى .. لكنى لم أبال بل كنت أكثر منه حرصًا على سرية زواجنا وعدم إعلانه حفاظًا على مشاعره ومشاعر زوجته .

وفى الأيام الأولى لزواجنا كان زوجى يشكو لى دائمًا زوجته الأولى وكنت أدافع عنها وألتمس لها الأعذار دائمًا وركزت جهدى فى أن أعوض زوجى عن إهمال زوجته له وانشغالها عنه وركزت كل تفكيرى وحياتى فى إسعاده وقبلت رغمًا عنى ألا أنجب طفلاً لأنه رفض مبدأ الإنجاب بإصرار بحجة أن عنده أولادًا وبنات من زوجته ولا حاجة له بالمزيد من الأطفال .

ورغم حنينى للإنجاب من زوجى الحبيب فلقد رضيت بالحرمان إرضاء له ورضيت معه بكل شىء بسرية الزواج وحرمانى من زوجى نفسه معظم الوقت لانشغاله بأسرته وبعمله .

ومضيت حياتنا رغم كل ذلك هادئة سعيدة لمدة عامين .. ثم فجأة علمت زوجته .. بزواجه وصارحته بذلك فلم ينكر ولم يكذب عليها وواجهها بأن انشغالها عنه هو الذى دفعه للزواج من أخرى .

فهل تعرف ماذا فعلت « ضرتى » التى تشغل مركزًا علميًا مرموقًا حين سمعت ذلك من زوجها ؟ لم تصرخ .. ولم تولول .. ولم تفضح الدنيا .. ولم تقل له عملى « ابقى » لى منك .. ولم تعقد جلسات صلح .. ولا جلسات خناق .. وإنما صنعت شيئًا واحدًا هو أنها قدمت استقالتها بهدوء من عملها على الفور واستغنت عن الشغالة ومديرة المنزل وقبعت فى بيتها ورمت عرض الحائط

« بأمجادها » .. ومركزها الاجتماعى وتحولت إلى ربة بيت وزوجة وأم هل تصدق هذا ؟

هذا والله ما حدث من « الأستاذة » « ضرتى » !

ونتيجة لهذه التطورات بدأ زوجى ينسحب من حياتى تدريجيًا .. وبدأ يتغيب عنى فترات طويلة بشخصه وبصوته فأصبحت لا أراه ولا أسمعه فى التليفون بعد أن كان يخاطبنى كل يوم مرة على الأقل فى التليفون .

ثم بعد أسابيع طرق البواب باب شقتى ذات يوم وفوجئت به يسلمنى ورقة الطلاق ومعها رسالة من زوجى يقول لى فيها : «سامحينى لكى أسامح نفسى أنا لم أنفصل عنك بسبب يرجع إليك أو لكره فيه ، لكن لأن ظروفى لم تعد تسمح لى إلا بالانفصال ، وقد آثر أن يرسل إلى ورقة الطلاق مع البواب لكيلا يأتينى بها عسكرى من القسم حفاظًا على مشاعرى .. ولكيلا تحدث شوشرة لا داعى لها وهكذا يا سيدى خرجت من حياته .. مطلقة بدون أطفال .. وقد خسرت أهلى وعملى وحياتى ، سامحه الله .. وسامحنى أيضًا لأنى تزوجته وهو متزوج وكنت مجرد محطة فى حياته أخذ منها ما أراد ثم غادرها بلا عودة وأنا أكتب إليك الآن لأنصح الزوجة وكيلة الهيئة المرموقة المشغولة عن زوجها وأستاذها وحبيب عمرها بعملها وطموحها فى الوصول إلى منصب رئيس الهيئة .. والتى تمر الأيام بغير أن يراها زوجها أو تراه ، حتى ضاق بوحدته وتزوج من زميلة له ، أكتب لأقول لها تعلمى الدرس من « ضرتى » التى استطاعت أن تستعيد زوجها وتحرمنى من زوجى .. ابذلى كل جهدك يا سيدتى لاستعادة زوجك لأن هذا هو التحدى الحقيقى فعلاً فعملك لن يبقى لك مدى العمر ولن تجدى حين تصلين إلى سن المعاش من يقف بجوارك ويعينك على وهنك وشيخوختك سوى زوجك ، فاحرصى عليه .. وابذلى الجهد لاستعادته ، وليعنا الله أنا وضرتك

على دفع ثمن اخطائنا ، وأخطاء الأخريات من أمثالك يا من تدفعن أزواجكن إلى التلفت حولهم طلبًا للرفقة بسبب انشغالكن عنهم .. فنكون نحن الضحايا .. وتكن أنتن الجانيات والضحايا فى نفس الوقت !

□□ هذه هى الرسالة التى ذكرتنى بعبارة بطل رواية السمان والخريف عن الخطأ والتجربة وبالرغم من أن أخطاء البشر غالبًا متشابهة .. فإننا لا نتعلم الكثير منها بكل أسف .. فنخطئ كثيرًا .. ونتعلم قليلاً .. ونقترب من تجارب غيرنا ونعرف أخطاءها ثم لا نلبث بعد حين أن نسير على نفس الدرب ونتجرع نفس التجربة بمرارتها ... كأننا مسوقون إلى الخطأ بأقدار لا نملك لها دفعًا .. مع أن الإنسان هو سيد نفسه فى النهاية ويستطيع أن يعيش «حيوات» عديدة وهو يتسلح بخبراتها لو وعى تجارب الآخرين وتجنب أخطاءهم .

فأنت مثلاً يا سيدتى كم مرة عرفت ولمست تجارب «نصف الزوجة» التى تنتهى غالبًا نفس النهاية ويعود الزوج إلى حياته وأسرته بعد «استراحة» قصيرة ؟ ومع كل ذلك فلقد وقعت فى نفس الخطأ بلا مبرر مقبول ، واتبعته بأكثر من خطأ فى حق نفسك فخسرت أسرتك وأهلك وهم سندك الحقيقى فى الحياة وفقدت عملك وهو أيضًا سند وحماية لك ، ورضيت بالسرية فى الزواج ، والزواج الحقيقى الذى يستحق اسمه إشهار وإعلان لأنه عمل مشروع نشهد العالمين عليه .. بل ورضيت بالحرمان من الأمومة وهى قرة عين أية زوجة فى الظروف الطبيعية .. ففقدت كل أسلحتك ووقفت فى المعركة وحيدة أمام زوجة تثقل موازينها على موازينك لأنها الأم وشريكة العمر والروابط العديدة الأسرية والاجتماعية .. ولقد تصرفت بحكمة غريبة فأنهت المعركة بضربة قاضية لم تعطك معها أية فرصة للمقاومة وتخلت عن عملها وطموحها وتحولت إلى زوجة وربة بيت لتستعيد زوجها .. وهذا أكثر من المطلوب لأن كل زوجة عاملة ليست

مطالبة بأن تتخلى عن عملها وطموحها لكيلا تفقد زوجها .. وإنما فقط بألا تسمح لها بافساد حياتها والانشغال عن بيتها وزوجها وابنائها ... لكنها قدمت المزيد لأنها أرادت أن تحسم الموقف لصالحها .. ولعل فى حديثك عن خطوتها هذه .. من «الغيظ» أكثر مما فيه من الدهشة لأنها استطاعت فعلاً أن تنفذها .. لكن السعادة يا سيدتى هدف عزيز المنال يستحق أن يضحى الإنسان من أجله بالكثير .. ولقد تعارضت سعادتك مع سعادتها ، فكسبت هى المعركة برصيدها لدى زوجها ... وبخطوتها الجريئة هذه فلتهنأ بما فعلت .. ولتستفيدى أنت من درس تجربتك فلا تقبلى مرة أخرى أن تكونى نصف زوجة أو زوجة بالتليفون أو محطة عابرة لأى إنسان ، لأنك تستحقين أن تكونى زوجة كاملة وواحة يستظل بها إنسان من هجير الحياة إلى آخر العمر .

الشــــــرارة !

أنا يا سيدى شاب تخرجت فى كلية الهندسة واخترت العمل فى أطراف القاهرة بعيدا عن الضوضاء والزحام ووفقت والحمد لله فى الحصول على شقة بجوار عملى ، وبعد حصولى عليها بدأت أفكر فى الزواج ، وكعادتى فى كل أمورى فلقد اتجهت إلى الله سبحانه وتعالى ، فوجدت فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم خير مرشد لى حين قال « فاظفر بذات الدين تربت يداك » فتحدثت مع صديق لى يلازمنى فى صلاتى ، برغبتى فى الزواج فأشار على بالتقدم لخطبة فتاة لاحظت فيها الخلق والدين ، وبالفعل زرت أسرتها وفاتحتهم برغبتى فى خطبة ابنتهم فكان أول سؤال وجهوه إلى هو : كم معك من المهر وما هى قيمة الشبكة التى ستشتريها .. فقلت لهم إننى لا أملك إلا مرتبى وإنى من أسرة فقيرة ، ولا أريد سوى أن أكون من أبنائكم ، وأننى أحلم بأن أبنى مع ابنتكم عشنا قطعة قطعة كما بنيت أنا نفسى فكنت اعمل أثناء الدراسة ولم أكلف أبى إلا أقل القليل ومع ذلك فلقد حصلت على بكالوريوس الهندسة وحصلت على العمل بتوفيق من الله ، وسأحافظ على ابنتكم كقطعة من نفسى وسأرعى الله فيها وأؤدى إليها حقوقها فلم يجد كلامى أى صدى لديهم سوى الاستهزاء والاستهتار بى بطريقة بشعة ، فقلت لهم إن عدم توافر قيمة المهر والشبكة معى ليس عيبا ، فالرسول عليه الصلاة والسلام قد زوج إحدى بنات الصحابة

لرجل ـ لم يكن معه ما يمهرها به ـ ببضع آيات من القرآن الكريم كانت هى مهرها ، فإذا بشقيق الفتاة الأكبر يقول لى : يا ابنى الكلام ده تقوله على المنبر ! وإذا بالجميع ينفجرون فى نوبة ضحك هستيرى صاخب ، استمر لعدة ثوان خلتها دهرا والجميع يضحكون كأنهم سمعوا نكتة رائعة وأنا أتصبب عرقا ولم يتوقفوا عن الضحك إلا حين انسحبت بهدوء وصدى ضحكاتهم يطاردنى ونظراتهم العابثة تكوينى ، وعشت أياما طويلة وصدى ضحكاتهم يطاردنى وأتذكرها من حين إلى آخر .. فأحس بأطرافى تتثلج .. وأحاول أن أشغل نفسى بأى شىء آخر ..

ومن بعدها صدمت فى هذا المجتمع المادى وانطويت على نفسى فى شقتى ولم أعد أختلط بأحد من الناس إلا فى حدود العمل ، لأن الناس هذه الأيام لا يشغلهم سوى المادة ولا يحترمون إلا من معه مال .

وإنى أدعوك للكتابة لأمثال هؤلاء ولمن يستهزئون بالناس لعوزهم وفقرهم ، أنهم قد اشتروا الضلالة بالهدى وأن الله سوف يستهزئ بهم كما استهزأوا بغيرهم ، كما أسألك أن تقترح على ما يخلصنى مما أعانى منه من انطواء وبعد عن الناس أبعد عنى معظم أصدقائى حتى بدأت أضيق بالوحدة وظلم الناس ونظرتهم لى .

ولكاتب هذه الرسالة أقول : إن رسالتك هذه تنكأ جراحا قديمة وتضع الأصبع على أحد أسباب مشكلة خطيرة يواجهها مجتمعنا الآن ، وهى مشكلة اغتراب بعض الشباب المتدين فى مجتمعهم بسبب التناقض بين أفكارهم المثالية .. وبين القيم المادية التى تحكم تصرفات البعض ..فمن هذا التناقض يبدأ الاغتراب .. الذى قد يتزايد فيؤدى بهم إلى الانسحاب من المجتمع .. وقد يتفاقم لدى البعض فيؤدى بهم إلى رفضه ومعاداته وأحيانا إلى الرغبة فى الانتقام منه .

ومعظم النار من مستصغر الشرر كما يقولون .

وفى حالتك هذه فإن مستصغر الشرر قد يتمثل فى هذه الفظاظة التى عاملتك بها أسرة الفتاة التى تقدمت إليها ، وهى طريقة فظة بالفعل لرفض أى خطيب ، فلقد كانت هذه الأسرة تستطيع أن تعتذر لك عن عدم قبولك بغير أن تجرح مشاعرك وبغير أن تستهزئ بأفكارك وتصوراتك المثالية عن الزواج ، وبغير أن تلسعك بهذه الضحكات الهستيرية الكريهة ومصيبة البعض أنهم لا يعرفون كيف يختلفون مع آراء الآخرين بغير أن يجرحوا أصحابها .. أو كيف يرفضون قبول شيء بأدب يحفظ للإنسان كرامته ولا يمس معتقداته ومشاعره .

لكن أسرة فتاتك هذه ليست كل الناس يا صديقى وتجربتك المريرة معها ليست دليلا على أن الجميع على شاكلتها ، فما أكثر الأسر الكريمة التى تطلب لفتياتها الخلق والدين قبل المهر والشبكة .. وما أكثر من يجدون فى شاب عصامى مكافح مثلك خير شريك لبناتهم .. وخير من يثقون فى استقامته وحسن رعايته لابنتهم .

والحياة حافلة بقصص الفتيات والشبان الذين يتعاونون معا لبناء عش الأحلام بغير معاونة من الأهل ولا مساندة من أحد سوى من سواعدهم وطموحهم ورغبتهم العادلة فى السعادة فلا تقع فى خطأ التعميم ، وإصدار الأحكام العامة على الجميع من واقع تجربة شخصية مريرة . ولا تبخس نفسك حقها .. ولا تنطو على نفسك وتعتزل الأصدقاء لمجرد أن بعض السفهاء قد أذوا مشاعرك .

فليس معنى أن البعض لم يعرفوا لنا قدرنا أن الجميع سوف يتعاملون معنا بنفس الطريقة .. وإنما معناه فقط أننا لم نلتق بعد بمن نستحق تقديرهم ويستحقون تقديرنا .

وثق أن هناك أسرا عديدة سوف ترحب بك وتجد فيك من تعتز به وتفخر بانضمامك إليها . لكنك لم تعرف الطريق إليهم .. ولم يعرفوا الطريق إليك لانعزالك وضيق دائرة علاقتك الاجتماعية ولولا أنى أكتب هذه الكلمات مقدما قبل سفرى إلى الخارج لرجوتك أن تزورنى لأتشرف بالتعرف عليك وأسعد بلقائك وأبحث معك الأمر لكنى آمل أن أجد هذه الفرصة بعد عودتى إن شاء الله فإلى لقاء قريب فى مساء أى يوم من أيام الإثنين إن شاء الله .

شىء من القوة!

أنا امرأة فى الثلاثين من عمرى تزوجت منذ خمس سنوات ورزقت بطفلة هى أحلى ما فى حياتى ومشكلتى يا سيدى تتفاقم وتزداد يوما بعد يوم لدرجة أننى ضقت بحياتى فلقد اكتشفت أن زوجى ضعيف الشخصية ويفتقد الثقة فى نفسه وكثيرا ما يتأثر بآراء الآخرين وبكلامهم وهذه الحقيقة تكدرنى تماما ففى كل موقف وكل يوم تتأكد هذه الحقيقة وبشكل واضح وكثيرا ما كنت أؤاخذه وأنتقده لماذا لم تفعل كذا ولماذا لم تتصرف هكذا والمفروض أن تعمل كذا وكذا إلى أن أصبحت حياتنا سلسلة من الشجار والمعاتبة والملحوظات وهو لا يطيق كلامى ونقدى وأنا لا أطيق تصرفاته وأساليبه لدرجة أننى فكرت فى ألا أظهر معه فى أى مجتمع ولكن الأمر لا يخلو من ذلك طبعا لأنه ليس من المعقول أن نحتجب عن العالم والناس والعجيب أن هذه الصفات لم تظهر بتاتا أثناء الخطوبة لمدة عامين فكرت ماذا أفعل وهذا شىء فى طبعه ولن يتغير ومن شدة حزنى أصبحت لا أنتقده ولا أعاتبه على شىء وأكتم فى نفسى لأنه لا فائدة سوى الشجار والمناقشة التى لا تجدى على حساب أعصابى وهو يظن أنه لا يوجد ما يكدرنى أو يضايقنى وأن الحياة تمضى بنا فى هدوء فتحولت إلى آلة أسمعه فقط حين يتكلم وفقدت حماسى لكل شىء وسلمت أمرى لله . أسمعه حين يتحدث ولا أريده أن يتحدث ولا أريد أن أنظر إلى وجهه لأننى عندما أنظر إليه أتذكر

كل مواقفه وتصرفاته . وأصبحت أندب حظى على أننى لم أتزوج الرجل الذى أتمناه وتتمناه أى امرأة . فالمرأة تحلم بالرجل القوى الذى يشعرها بقوته وصلابة رأيه وتشعر أمامه بضعفها ولكنى يا سيدى لا أشعر بذلك أبدا حتى أننى فكرت فى الانفصال عنه ولا أخفى عليك أيضا أننى أصبحت أستهتر به ولا أعمل لرأيه حسابا وبالرغم من أنه يعاملنى معاملة طيبة إلا أننى قد تكون عندى إحساس لا إرادى بأن الضعيف لا يستحق أى شىء ولكننى أعود وأشفق عليه فى كثير من تصرفاتى والنهاية أشعر بأننى أشفق عليه ولكن لا أحبه إذ ماذا يكون شعورك يا سيدى وأنت تقدم على شىء وتفتقد حماسك له . إن هذه هى الحال بالنسبة لى الآن والعمر يمر ولا يوجد أى حماس فى حياتى معه فأؤدى واجباتى كلها تجاهه لأخلص ضميرى أمام الله ولكن أى انسان يتحمل هذا ؟ لقد أصبحت غير مقبلة عليه وفقدت ابتسامتى التى كانت لا تفارقنى وفقدت العلاقة بيننا حماسها وجمالها وأتظاهر بأننى أجاريه واسمعه لكنى فى الحقيقة سئمت هذا الوضع الممل وأشعر أننى أختنق يوما بعد الآخر .

وأخيرا قررت أن أرسل إليك لكى تسمعنى وتريحنى أو تجد حلا لمشكلتى لأننى وصلت لدرجة من اليأس والسأم من كل شىء لا تستطيع أن تتصورها .

□ □ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : لا أعرف لماذا ذكرتنى رسالتك هذه بعبارة قديمة قرأتها منذ زمن طويل تقول : لن يستريح الإنسان إلا فى قبره ! ويبدو أن هذا صحيح فأنت تشكين من أن زوجك ضعيف ويفتقد الثقة فى نفسه ويتأثر بآراء الآخرين وغيرك تشكو من أن زوجها قوى ومتسلط ولا يسمع لها ولا لغيرها وآخر يشكو من أن زوجته ضعيفة وسلبية ولا تشاركه بالرأى فى أمور حياته .

ورابع يشكو من أن زوجته قوية أكثر مما ينبغى وتتدخل فى كل أموره وتفرض عليه ما لا يرضاه .

وهكذا إلى ما لا نهاية .

ورغم ذلك فإن شكوى الزوجات من الزوج القوى المتسلط الذى لا يشعر زوجته بشخصيتها إلى جواره أكبر بكثير من شكوى الزوجة من الزوج الضعيف وفى واقع الأمر فليس هناك إنسان قوى فى كل أحواله وإنسان ضعيف فى كل الحالات .. لأن الإنسان أصلاً مزيج من الضعف والقوة والخوف والشجاعة والكرم والبخل كل الأضداد التى تتصورينها . ولأنه ليس هناك إنسان مهما بلغت قوته يخلو من ضعف بشرى من أى نوع ..

ولكنك ترين أن زوجك ضعيف كل الوقت وفاقد الثقة بنفسه ويتأثر بآراء الآخرين إلى النهاية .. وأنت على رأس هؤلاء الآخرين بالطبع فلماذا إذن لا يتقبل انتقاداتك ولا يعمل بتوجيهاتك ! أنه كما فهمت من رسالتك يسمع لك أحيانا ولا يسمع لك فى أحيان أخرى وهذا وحده دليل على أنه ليس شخصية انقيادية كما تتصورين .

والمشكلة فى تصورى ليست فى ذلك ، بقدر ما هى فى اتخاذك منه موقف المعلم الذى ينتقد كل تصرفاته ولا يبدى رضاه عن أى تصرف له باستمرار وكثرة الانتقاد تفقد الإنسان القدرة على التصرف السليم .. وتفقده أيضا الثقة فى نفسه . وإذا صدق حديثى فأنتِ مدرسة قوية الشخصية على تلاميذك لكنك تنسين نفسك فى تعاملك مع زوجك فتتصورينه تلميذاً ينبغى أن يجلس أمامك صاغرا يسمع توجيهاتك ويعمل بها وإلا فهو لا يحسن التصرف كما تقولين .. وهذه هى المشكلة !.

أما حكاية أن المرأة تحلم بالرجل القوى الذى يشعرها بصلابة رأيه وضعفها أمامه فهى صحيحة فى بعض الوجوه لكنها ليست صحيحة على اطلاقها ، لأن العلاقة بين الرجل والمرأة ليست علاقة إذعان ولا ينبغى أن تكون كذلك .

فهى علاقة تفاعل وحوار وتبادل للضعف والقوة بين الطرفين وهناك أحوال تحتاج فيها المرأة إلى قوة الرجل وهناك أحوال أخرى لا تحتاج فيها إلى هذه القوة ولا تقبلها ونفس الشىء بالنسبة لعلاقة الرجل بالمرأة لكنك فيما يبدو من اتباع مذهب القوة عند الفيلسوف الألمانى نيتشة الذى كان يرى أن الأقوياء وحدهم هم الجديرون بالاعتبار ، فجرت فلسفته فى القوة وعبادة البطل الخراب على العالم حين مهدت لظهور هتلر والنازية .

فهل أنت نيتشوية إلى هذا الحد ؟.

أنك تتفقين مع نيتشة فى إحدى مقولاته الخطيرة وهى أن الضعيف لا يستحق شيئا ، وهو منطق لا إنسانى ولا يجوز فى التعامل مع الغرباء فكيف يجوز فى التعامل بينك وبين شريك حياتك ؟.

إن المشكلة ليست فى القوة والضعف .. لكنها فى الحب ودفء المشاعر يا سيدتى وفى أوبرا عايدة تقول الأميرة الفرعونية أمنريس لغريمتها عايدة «أن الزمن كفيل بمداواة الجروح لكن الحب أكثر قدرة من الزمن على ذلك» .

فأين مكان الحب من القصة كلها !.

يا سيدتى إن عين المحب عن كل عيب كليلة .. فانظرى لزوجك بعين الحب لا بعين المدرسة لتلميذها ، وسوف تكتشفين أن عيوبه أقل شأنا من غيره وأكثر احتمالا من عيوب الآخرين وساعديه على استعادة ثقته بنفسه التى فقدها فيما أظن بسبب موقف الاشمئناط الدائم الذى تتخذينه من كل تصرفاته وعندها سوف تتغير أشياء عديدة .. وسوف تستعيد علاقتكما حماسها وجمالها بإذن الله .

القنـــاع

أنا فتاة فى الثامنة عشرة من عمرى ... منذ سنوات قليلة كنت أعيش فى رعاية أبوى مع شقيق وشقيقة يصغراننى ، وكانت أمى مثالاً للحنان والأمومة .. لا تهدأ طوال النهار فى خدمة أطفالها وزوجها فهى من هذا النوع من النساء اللاتى تشعر بطيبتهن منذ أول لحظة تراهن فيها وهى لا تعرف الغضب ولا الشجار وإذا ضايقها أبى فى شىء لمعت الدموع فى عينيها لكنها لا تنبس بكلمة واحدة ، فيسارع باسترضائها وترضى سريعًا وفى الليالى الجميلة كانت تجلس أمام التليفزيون ويداها دائمًا مشغولتان بشىء تصنعه لنا : بلوفرات للشتاء ملابس تكويها لنا أو حلوى منزلية رخيصة تتفنن فى صنعها وبعد أن انتهى من عمل الواجب المدرسى انضم إليها فنمضى مع أخوتى ساعة جميلة من السمر اللذيذ والضحك ثم ننهض لننام .. فلا تتركنا إلا وقد أغمض النوم عيوننا واستسلمنا لأحلام الطفولة البريئة ثم أشعر بها أكثر من مرة فى الليل تحكم الغطاء حولنا وفى الصباح الباكر تدخل علينا لتوقظنى بكوب شراب أشربه وأنا فى السرير فإذا كان الوقت صيفًا فالشراب بارد ، وإذا كان الوقت شتاء فالشراب دافئ وهكذا .. ثم تدعونى للنهوض للذهاب إلى المدرسة فأجد الإفطار جاهزًا وكل شىء بالابتسامة .. وبالكلمة الحلوة ويا حبيبتى ويا نور عينى إلى أن أخرج من باب الشقة وأنا أحب كل شىء فى الحياة . وفى الظهر تستقبلنى عند عودتى

من المدرسة بالقبلات والأحضان وكأنى عائدة من السفر وتسألنى عما جرى فى المدرسة .

أما أبى فهو موظف متوسط العمر هادئ الطبع .. نراه على مائدة الغداء فيداعبنا .. ويدخل غرفته ليستريح قليلاً بعد الغداء ثم يخرج أول المساء فلا يعود إلا قرب منتصف الليل أما يوم الاجازة الأسبوعية فلقد كان يعطينا كل وقته فلا يفارقنا طوال النهار وكنا نحن ننتظر هذا اليوم كأننا ننتظر عيدًا .. وننهض يومها سعداء مستبشرين ونجتمع على مائدة إفطار الجمعة .. وهو افطار مخصوص تستعد له أمى كل أسبوع ، ثم نجلس جميعًا فى غرفة المعيشة نحتسى الشاى .. ونتسامر ونضحك ونتشارك فى بعض ألعاب التسلية .

وهكذا مضت حياتنا سعيدة خالية من المشاكل إلى أن بدأت ألاحظ أن أبى وأمى يخرجان كثيرًا بعد الظهر معًا ويتركاننا فى رعاية بعض الجيران أو وحدنا بحجة الذهاب إلى الطبيب وبدأنا نلاحظ أن أبى قد ازداد رقة فى معاملته لأمى وبدأنا بعقولنا الصغيرة نعرف أن أمى مريضة .. وندعو لها بالشفاء فى صلاتنا أما هى فلم يتغير فيها شىء .. فهى تتحامل على نفسها لتعد لنا الطعام .. وتتحامل على نفسها لترتيب البيت .. ثم تضعف فتدعونى لمساعدتها .. وعدا هذه الحالات لم نرها إلا باسمة ولم نسمع منها سوى نفس العبارات ، وبعد عام على هذا التغيير رحلت أمى عنا فجأة وخلا بيتنا السعيد منها .. واحتضنتنا جارة طيبة كانت صديقة لأمى طوال الأيام الحزينة الأولى .. ثم انتهت هذه الأيام ورحل المعزون والأقارب وعدنا إلى بيتنا طفلة فى الثانية عشرة وطفل فى السابعة وطفلة فى الخامسة وبتلقائية شديدة وجدت نفسى أقوم بدور الأم لأخوتى وبدون أن يدعونى لذلك أحد فنهضت مبكرة فى اليوم التالى ثم رتبت البيت ثم نزلت لأشترى الفول والخبز وعدت وأعددت الافطار ودخلت غرفة نومنا لأوقظ

شقيق وشقيقتى .. فوجدت نفسى بدون أن أشعر أردد لها نفس الكلمات التى كانت أمى الغالية ترددها كل صباح لنا لكى نصحو : اصح يا حبيبى اصحى يا نور عينى .. اصح يا قلبى وعينى ولم أشعر إلا ودموعى تسح من عينى .. وإلا أبى واقف أمام باب الغرفة يسمعنى وينظر إلى حزينًا ثم يستدير ذاهبًا إلى الحمام ، ومر اليوم الأول فى سلام . وتفرغت طواله لرعاية اخوى وتلبية طلباتهما وادخالهما الحمام وتغيير ملابسهما وشيئًا فشيئًا وجدت نفسى أؤدى كل أعمال البيت .. فأنظف الشقة وأغسل الملابس فى الغسالة وأنشرها وأجمعها وأطهو طعام الغذاء بمساعدة جارتى فى أول الأمر ثم وحدى بعد ذلك .. ووجدت نفسى وأنا فى سن الثانية عشرة أمًا لطفلين أحبهما وأدللهما .. وأقدم لهما الطعام فى مواعيده .. وأدخلهما الحمام وأنظفهما بالليفة والصابون كما كانت أمى رحمها الله تفعل معنا وأسرح شعر أختى كل يوم ، وشعر أخى أيضًا وأصبحت لا أخرج من البيت بعد عودتى من المدرسة حتى صباح اليوم التالى وجيرانى يطرقون بابى ليسألونى إذا كنت أريد شيئًا فأشكرهم فيقولون ربنا يكملك بعقلك وكمالك .وبلغت أختى الصغيرة سن الدراسة فأدخلها أبى نفس المدرسة التى أتعلم فيها مع شقيقى ، وأصبحنا نخرج كل يوم إلى المدرسة معًا ونعود معًا وعودت أخى أن ينزل لشراء الأشياء من البقال الذى يقع فى نفس العمارة التى نسكن بها .. وشددت عليه ألا يعبر الشارع ومع ذلك كان قلبى يرتجف كلما نزل لشراء شيء ولا أطمئن إلا بعد عودته .. ومضت بنا الدنيا وتقدمنا فى المدارس سنة وراء سنة حتى وصلت أنا إلى الثانوية العامة هذا العام وكنا قد اعتدنا حياتنا لكنى بدأت أحس بالقلق تجاه أبى فعدا مسحة الأسى التى استقرت فى وجهه بعد غياب أمى ، فلقد ظل لعدة أعوام هادئًا عطوفًا علينا وعلىّ أنا بالذات وهو يرانى أعمل ليل نهار فى البيت وأذاكر لأخوى .. وأتابع امتحانهما لكنه منذ عام بدأ يتوتر ثم يثور لأى

تقصير صغير فى شئونه .. رغم أنى لا أقصر فى أى شىء خاص به وأكوى كل قمصانه ومناديله .. وارتب غرفته وأكوى ملابس أخوى وأدير البيت فى حدود المصروف الذى يعطيه لى .. وحين ثار علىّ لأول مرة بكيت .. وشكوت لجارتى الطيبة من تغير طباع أبى .. فنظرت إلىّ طويلاً ثم قالت : هو معذور .. وأنت معذورة يابنتى فاصبرى ، لكن الثورات تكررت بلا رحمة .. وتحولت معاملته لى إلى معاملة خشنة عنيفة .. وبدأ ينتقد عملى فى البيت .. ويشكو من نقص الرعاية وأشياء كثيرة ويصيح هذه حياة لا تطاق . فأرتعد خوفًا وأبكى وأحاول مضاعفة جهدى فى العمل وفى كل شىء لإرضائه فيهدأ قليلاً ثم يثور مرة أخرى وعدت أشكو لجارتى الطيبة وأبكى على صدرها وتهون علىّ الأمر ، وظل هذا الأمر يحيرنى خاصة أن كل أقارب أبى وأمى يشيدون بى أمامه ويقولون إنى حملت مسئولية البيت على كتفى وكلهم يحبوننى ويحترموننى ويتعاطفون معى .

وبعد ذلك فوجئت بأبى يعرض علىّ خطيبًا وأنا لم أبلغ التاسعة عشرة من عمرى ويزكيه لى بشدة .. وجاء الخطيب وجلست إليه فى الصالون فلم أرتح إليه ولم أحس بأى توافق معه ، وهو أكبر منى بـ ١٥ عامًا وليس مثقفًا لكنه مستعد ماليًا وقلت لأبى رأيى بصراحة فثار علىّ ثورة عنيفة واتهمنى بعدم الاحساس بالمسئولية ولا عما نواجهه من مشاكل بعد رحيل الأم فأسرعت أوافق على الخطوبة لكى أرضيه ولكى أثبت له إحساسى بالمسئولية العائلية .. أنا من تحملت مسئولية الأسرة منذ سن الثانية عشرة وأعلنا الخطوبة وبدأ خطيبى يتردد علينا ووضعت كل أملى فى أن تقرب بيننا فترة الخطوبة ، لكنى ازددت نفورًا منه ، وأصبحت زياراته لى عذابًا أتحمله صابرة لكيلا أعرض نفسى لغضب أبى ، لكن الأيام مرت ومشاعرى تجاهه لم تتغير بل تزداد نفورًا وهو الآن يطلب عقد القران عقب انتهائى من امتحان الثانوية العامة بعد أسابيع .. لكى يتم

الزواج بعد قليل وفى الشقة الجاهزة التى كان قد أعدها من قبل لزواج سابق لم يتم وكلما اقترب الموعد ازددت خوفًا وضيقًا واكتئابًا وقد صرحت لأبى مرة أخرى بمشاعرى فثار علىّ من جديد .. وتركنى وأنا أحس أنه يريد أن يعجل بزواجى على غير إرادتى لكى يتزوج .. ويظهر أنه يريد أن يتزوج لكنه يريد أن يبدو زواجه أمام الأهل والأقارب وكأنه ليس لنفسه ولكن لرعاية الأبناء والبيت فماذا أفعل يا سيدى هل أستمر فى الخطبة وأنا لا أحس بأى أمل فى تغيير مشاعرى تجاه خطيبى .. وماذا أفعل لكى أتجنب ثورة أبى وأظل أرعى أخوى اللذين أحبهما وأحس بأمومتى لهما .

□□ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : لقد أنضجتك الحياة مبكرًا يا صديقتى .. ولا عجب فى ذلك لأن المسئوليات والتجارب تثرى خبرة الإنسان وتزيده قدرة على فهم الأسرار لذلك فهمت سر ثورات أبيك المتكررة عليك .. وأدركت بخبرة الأم التى ترعى طفلين وتتحمل مسئولية بيت بأكمله منذ ٧ سنوات أنها تنفيس عن صراع مكتوم يدور داخل أبيك بين حاجته كرجل إلى أن يتزوج وبين حرصه كأب على أن يبقى مضحيًا بسعادته الخاصة من أجل أبنائه ووفيًا لذكرى زوجته الملائكية الراحلة .

ولأن الصراع عنيف فلقد ارتدت الرغبة فى الزواج عنده قناع الرغبة فى توفير الرعاية للبيت والأبناء .. ولما كنت أنت تقومين بهذه المهمة فإنك تسقطين المبرر لتحقيق رغبة الزواج بالقناع الذى اختاره لها لهذا تنفجر فيك ثوراته اللاإرادية مترجمة هذه المشاعر المتناقضة داخله .

لكنه يسرف على نفسه وعليك كثيرًا فى ذلك فالأمر لا يحتاج إلى كل هذا العناء لإخفاء الرغبة فى الزواج والتنصل منها والإصرار على أن ترتدى ثوب « تضحية » جديدة من أجل الأبناء ، فالزواج فى مثل ظروفه رغبة مشروعة لها ما

يبررها بغض النظر عن قيامك بدور الأم لأخويك وتفانيك فى خدمة الأسرة كلها ، لأن هذا الدور قد يغنى أخويك عما افتقداه من حنان أمهما ، لكنه لا يغنى عن دور الزوجة بالنسبة لأبيك الذى يقترب من سن حرجة ويزداد إحساسه بالوحدة وفقدان الرفيق وهى محنة لا يعرف آلامها إلا من يكابدها ، وأنت مهما طال بك الزمن .. ومهما كانت مقاصدك نبيلة وشريفة .. فسوف تتزوجين ذات يوم وتغادرينه إلى بيت زوجك .. فلا بأس إذن فى أن يلتمس لنفسه الإيناس فى صحبة زوجة ملائمة له الآن قبل أن يتقدم به العمر وتضيق أمامه فرص الزواج الملائم لكن اليأس كل اليأس هو أن يرغمك مدفوعًا بهذا الصراع على قبول زواج لا تريدينه لكى يخلو منك البيت ويصبح المبرر لزواجه ملحًا وعادلاً ومقبولاً .

إن هذا هو الخطأ الفاحش الذى ينبغى ألا يستمر فيه أب حريص على صورته أمام أبنائه لهذه الدرجة مثله . ليس فقط لأنه ليس فى حاجة لاختلاق المبرر لشىء مشروع ومقبول وإنما أيضًا لأن ممارسته لأى ضغط معنوى عليك لقبول زواج لا تريدينه يتعارض مع مفهوم القبول والإيجاب الذى لا يصح الزواج إلا به ، فضلاً عن سنك الذى لا يؤهلك للزواج الناجح الآن .. وليس من العدل أن يورطك فى مثل هذا الاختيار قبل أن تكتمل شخصيتك ونظرتك للحياة .

فليتزوج إذن الآن أو غدًا وفى وجودك أو بعد زواجك لكن بشرط ألا يرغمك على زواج لا تقبلينه وعشرة لا ترضين بها .

فقولى له كل ذلك وشجعيه على الزواج وباركى رغبته فيه .. بل وحسنيها له إذا تظاهر باستبشاعها فى البداية واستمرى فى آداء دورك النبيل مع أخويك إلى أن تتزوجى زواج رغبة واختيار . لا زواج ضرورة لن يرشحك إلا إلى التعاسة

والشقاء ومثلك أحق بالسعادة وبكل شيء طيب فى الحياة جزاء وفاقًا لما قدمت لأخويك الصغيرين .. ولما اثقلت به الدنيا قلبك من أثقال وأحزان فى تلك السن المبكرة من طفولتك .

الخطـــة!

قرأت رسالة « الكلمة المسحورة » التى يحكى فيها أحد قرائك قصة عذابه مع زوجته وكيف تغيرت أحوالها معه بعد صدور قانون الأحوال الشخصية الذى يعطى الشقة للزوجة الحاضنة فصبر عليها حتى تزوج الأبناء وانتهت المسئوليات العائلية ثم قال لها « الكلمة المسحورة » التى أصلحت شأنها وهى أنها لم تعد حاضنة وأنه يستطيع أن يتخلص منها وليس لها عنده سوى نفقة سنة ونفقة المتعة ويستريح فعادت إلى عذوبتها السابقة معه وحفظت له وده كما كانت تفعل قبل صدورها هذا القانون ، قرأت هذه الرسالة فخطر لى أن أكتب لقرائك تجربتى مع زوجتى لكى تضيف إلى تجربتهم شيئا جديدا .. فقد عشت مع زوجتى ثلاثين عاما من العذاب والايلام لكنى لم أقدم على الطلاق ، بعد زواج ابنائى وبناتى لأنى خفت على مستقبل بناتى خشية أن يصبح طلاقى لأمهن سابقة يستخدمها أزواجهن فى الاساءة إليهن أو فى التهديد بها فروضت نفسى على الصبر واحتمال الجحيم الذى أعيش فيه معها منذ سنوات طويلة وهى زوجة سليطة اللسان وعصبية ونكدية ولا ترعى الله فى معاملتى ومعاشرتى رغم ما أوفره لها من حياة كريمة ورغم تلبيتى لكل مطالبها ومع أن لى شقة فى بلد آخر منذ سنوات طويلة فانى لم أفكر فى الانتقال إليها والحياة فيها بعيدا عن زوجتى لأن أعمالى وحياتى مرتبطة بالبلد الذى أعيش فيه

مع زوجتى وبناتى ، لكن للإنسان ياسيدى طاقة للاحتمال لايستطيع أن يتجاوزها مهما كان عليه من مسئوليات عائلية أو مادية .. لذلك فقد حزمت أمرى بعد تفكير طويل واستقر رأيى بعد زواج بناتى على أن أضحى بأعمالى وأصفيها وأغلق مكتبى وأعتزل مهنتى وأكتفى بما أعطانى الله من مدخرات ثم انتقل إلى البلد الآخر بحجة وجود عمل لى فيه بأجر كبير ثم أعيش هناك وحيدا مغتربا بلا مناكفات ولا نكد ولا مشاجرات يومية على أن أرسل إليها من هناك مصروفها الشهرى بما يتناسب مع الحياة فى الزمن العصيب ، فاستريح وأحافظ على مظهرنا الاجتماعى وكرامتنا أمام أزواج بناتى ، ونفذت بنود هذه الخطة بأحكام بالرغم من صعوبة الأمر على نفسى فى أن أنهى حياتى العملية الناجحة وأحكم على نفسى بالبطالة والفراغ لكنى مضيت فى خطتى بإصرار فاشعت أنى وجدت عملا مغريا فى هذا البلد وأنى سأقبله وسط عجب أقاربى من أن أقبل الاغتراب فى مثل هذه السن وبلا ضرورة مادية قوية لأنى مستور والحمد لله .. ثم بدأت فى تصفية أعمالى وأستغرق الأمر عدة شهور ثم أغلقت مكتبى وسرحت العاملين فيه وأعطيتهم مكافأتهم وأبلغت الضرائب بإيقاف نشاطى وأعددت حقائب السفر واستعددت لكى استنشق نسيم الحرية بعد هذه السنوات الطويلة من العذاب ولم تبق على الرحيل سوى أيام فجاءت البنات وأزواجهن لتوديعى وانصرفن إلى بيوتهن ففوجئت بأمر لم يكن فى الحسبان .. ولم تتضمنه الخطة فقد توفيت زوجتى فجأة بلا مرض وبلا مقدمات . سبحانك لك الأمر كله إنك أنت علام الغيوب .

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : صدقت يا سيدى . فسبحان من له الأمر كله من يعلم السر وما أخفى . سبحانه أنه علام الغيوب . فلقد خططت ودبرت وأحكمت التخطيط والتدبير ونفذت البنود بكل دقة ووسط دهشة الأهل

والأصحاب ، لكن شيئا بديهيا لم تضعه فى الحساب قد وقع فجأة فغير الأمر كله وأصبحت الخطة المحكمة بعده لامعنى لها ولامنطق ، وهذه هى عبرة التجربة فى رسالتك أننا مهما خططنا ودبرنا فالأمر كله له وحده فى المبتدأ والمنتهى . ولقد أضافت رسالتك إلى معرفتنا بالحياة الجديد فعلا لكنه الجديد القديم الذى نعرفه جميعا أو ننساه جميعا أيضا فى صراعنا اليومى مع الحياة ، وهى أن لكل رحلة نهاية محتومة وأن الحياة مهما طالت قصيرة وأننا مهما تصارعنا فلن ينتصر فى النهاية إلا الموت الذى سيفرق بين الجميع ففيم اللجاج إذن ، وفيم المعاناة وإتعاس الآخرين وترى كم تصبح الحياة رحلة عذبة هادئة لو تذكرنا دائمًا هذا المنتصر الوحيد؟!.

الربـاط المقــدس

أنا سيدة فى التاسعة والثلاثين من عمرى تخرجت من إحدى الكليات العلمية من تسعة عشر عامًا وارتبطت عاطفيًا بزميل لى فى الكلية وتخرجنا معًا فعمل هو معيدًا بالكلية وعملت أنا بأحد المراكز العلمية وبعد عام من التخرج تقدم حبيبى لخطبتى واحتفلنا بعقد القران فى حفل عائلى بسيط فى النادى الصغير الذى نشترك فيه ، وبعد عام من الخطبة استطعنا أن نؤجر شقة صغيرة جميلة فى عمارة مطلة على نفس النادى وتشاركت مع خطيبى فى دفع مبلغ الخلو المطلوب وتشاركنا فى التأثيث وقدم لى أبى كل ما معه فأثثناها بأثاث جميل بسيط أبرز ما فيه غرفة كبيرة للمكتب والمعيشة وتم الزفاف وبدأنا حياتنا الجديدة ، ومرت أيام العسل سريعة ، وعدنا إلى أعمالنا وبدأ زوجى يحضر رسالته للماجستير وكنت قد سجلت رسالتى معه فقررت أن أؤجل امتحانى فيها عامًا لكى أساعده فى إنهاء رسالته ، واستطعنا فعلاً الانتهاء من تحضيرها خلال وقت قصير وحصل زوجى على الماجستير فتفرغ لى فى العام التالى حتى استطعت إنهاء رسالتى وتقدمت بها لنفس الكلية وحصلت أنا أيضًا على الماجستير ، وبدأ زوجى يراسل الجامعات الأجنبية ليحصل على منحة دراسية لدراسة الدكتوراه فى إحداها ، وكلما جاءه رد منها بالاعتذار عاد حزينًا يندب حظه فأخفف عنه وأداعبه بأن الله لا يريد له أن يفارقنى بهذه السرعة لأن مرتب المنحة الدراسية لن يسمح له باصطحابى

معه . وهكذا حتى جاءته الموافقة من الكلية العشرين التى راسلها وكانت فى أمريكا فطار فرحًا وانشغلنا بترتيب سفره .. وكان فى حاجة إلى ثمن تذكرة الطيران لأن المنحة مقصورة فقط على الدراسة ومصروف شهرى صغير جدًا ، فبعت إسورتى وقدمت ثمنها له ليشترى تذكرة السفر واتفقنا على أن يسافر ويبدأ دراسته ثم أزوره أنا فى إجازتى وسافر حبيبى إلى بلاد الغربة بعد عامين من زواجنا ، وكابدت آلام الفراق التى لم تخفف منها رسائله الطويلة إلى أن نجحت فى الحصول على اجازة من عملى وجمعت كل ما معى من نقود واشتريت تذكرة الطائرة وطرت إليه وكان منظرنا مثيرًا وهو يحملنى بين ذراعيه فى المطار ويدور حول نفسه عدة مرات حتى أصابه الدوار ومن حولنا يضحكون ويبتسمون وعشت معه أيامًا جميلة فى غرفة ضيقة بها سرير مفرد وركن للمطبخ وليس بها حمام وانتهت إجازتى سريعًا فعدت وكان باقيًا له من مدة الدراسة عامان ونصف فاتفقت معه على أن يأتى فى اجازة الصيف التالى ليقضى معى شهرين وسوف أدبر له ثمن التذكرة خلال العام .. وودعته وعدت لبلدى وقلبى هناك وعشت شهورًا طويلة فى حالة تقشف شديد لأدخر معظم مرتبى وأوفر له ثمن التذكرة ، حتى أصبت بالهزال ولم أعد أروح عن نفسى إلا بالذهاب إلى النادى صباح يوم الجمعة وقبل أن يأتى الصيف بأسابيع فوجئت بوالد زوجى يأتى إلىّ فى الصباح وهو منهار ويقول لى إنه تلقى مكالمة تليفونية من القنصلية المصرية تنعى إليه ابنه فى حادث تصادم وأن و .. ولم أسمع باقى عبارته .. ولم أشعر بالدنيا إلا وأنا فى سريرى وحولى شقيقاتى وأمى ، وحين تنبهت لنفسى نهضت صارخة لأذهب إلى المطار وأستقبل زوجى فأعادونى بالقوة إلى سريرى وقالوا لى إن كل شىء قد تم .. ثم جاء الطبيب وأعطانى حقنة منومة فغبت مرة أخرى عن الوجود .

ومضت أيام وقرر أبى أن يعيدنى إلى بيته لكى يبعدنى عن شقة الزوجية فاعتذرت له بإصرار فسلم برغبتى وأقامت معى أمى عدة أسابيع حتى ألححت عليها أن تعود لبيتها ، وعدت إلى عملى وحاولت شغل نفسى بإعداد رسالة الدكتوراه فلم أستطع أن أحقق فيها أى تقدم لأنى كنت كلما جلست إلى المكتب غامت عيناى بالدموع وتذكرت حبيبى وهو يجلس إلى نفس المكتب يقرأ حينًا .. ويداعبنى حينًا آخر ثم يناديني بأعلى الصوت إذا غبت عنه كأنه طفل يخشى البقاء وحده ، فبدأت أضيق بالشقة وبدأت أخرج وأذهب إلى النادى فأتجول فيه على قدمى من مكان إلى مكان حتى يهدنى التعب فأجلس لألتقط أنفاسى وأشرب فنجانًا من القهوة ثم أنصرف ، وبدأت أمى تحس بالقلق علىّ .. وبدأت شقيقاتى يلححن على بترك الشقة والاقامة مع أبى فرفضت دلك ولم أرحب بأن تقيم إحدى شقيقاتى معى لأنى كما قلت لهن أدمنت الوحدة ولم أعد أحس بالراحة إلا وأنا وحدى فبدأن يتحدثن عن الزواج مرة أخرى فأكدت لهن أنى قد عرفت نصيبى من الزواج ولن أستطيع أن أعاشر رجلاً آخر مهما حاولت .

ومضى عامان وأنا على هذا الحال ضعف خلالهما بصرى من كثرة البكاء ونصحنى الطبيب بارتداء نظارة سوداء لأتجنب الشمس ، فأصبحت ارتدى السواد فى كل شيء ، كما أصبحت أيضًا أقضى أوقاتًا طويلة فى النادى وحدى أطوف ملاعبه وأجلس على المقاعد الحجرية لأشاهد تمرين الفرق الرياضية أو مباريات الأطفال وذات يوم كنت أجلس وحدى أتفرج على بعض الأطفال يلعبون الكرة فجاءت طفلة فى الخامسة من عمرها وجلست بجوارى ولم أشعر بوجودها إلا حين التفت إليها بعد فترة فوجدتها تنظر إلىّ بتودد وتبتسم فابتسمت لها فظلت جالسة بجوارى حوالى نصف ساعة وهى مستكينة .. ثم نهضت

وانصرفت وتعجبت من إحساسى بالارتياح لها وتابعتها بنظرى حتى غابت بعيدًا وبعد يومين ذهبت إلى النادى وإلى نفس الملعب وجلست فإذا بنفس الطفلة تأتى وتجلس إلى جوارى فى هدوء وهى تبتسم فأرد ابتسامتها ثم تمضى حوالى ساعة جالسة صامتة ثم تنهض وفى المرة الثالثة سألتها عن اسمها فعرفت أنه ياسمين ... ووجدت فى حقيبتى باكو من اللبان فأعطيتها بعضه وجلسنا صامتتين إلى أن انصرفت .

وفى المرة الرابعة وجدت شعرها منكوشًا فأخرجت مشطى وسرحت شعرها وعقصته لها .. وبعد أسبوع جاءتنى نفس الطفلة فأحسست لأول مرة إنى على استعداد لقبول صداقة إنسان جديد وأحببت أن أرى أم هذه الطفلة المؤدبة الهادئة الصامتة دائمًا فسألتها عن أمها فقالت لى ببساطة : ماما مسافرة ! فسألتها مسافرة فين؟ فقالت : لا أعرف .. مسافرة من زمان !

وأدركت الموقف فانقبض قلبى وسكت وأمضينا الجلسة صامتتين حتى انصرفت عنى وشغلتنى أمور الحياة عن بعض همومى فبدأت اعتاد حياتى وبدأت تحضير رسالتى ، وبين حين وآخر تعرض على أمى أو إحدى شقيقاتى عريسًا فأرفض وأغضب . لكنى وجدت نفسى مشدودة إلى هذه الطفلة التى أراها فى النادى وأتذكرها كثيرًا فى وحدتى .

وذات يوم جاءتنى وأنا جالسة فى مقاعد المتفرجين بملعب الكرة وجلست بجوارى وتحدثنا قليلاً ثم فاجأتنى بسؤال غريب إذ ترددت قليلاً ثم قالت لى بصوت خافت : تتجوزى بابا يا طنط ؟ وتعجبت من هذا السؤال وسألتها من هو بابا يا ياسمين ، فعرفت منها أنه مدرب فريق كرة اليد فى النادى وأنه مدرس بأحد معاهد التربية الرياضية وأنها تعيش معه وحدها فى شقة قريبة أيضًا من النادى ، ثم وهو الأهم أن أباها هو الذى كلفها بأن تسألنى هذا السؤال !

ولم أشأ أن أجرح مشاعرها فقلت لها أنى سأفكر فى الأمر ففرحت جدًا وقبلتنى وجرت سعيدة وغبت عن النادى ثلاثة أسابيع ثم ذهبت إليه فجاءتنى ياسمين تجرى ثم لم تمض دقائق حتى جاء شاب وسيم فى الخامسة والثلاثين يقترب بحذر وأدب ثم حيانى وقدم لى نفسه بأنه والد ياسمين فرددت تحيته بتحفظ وانصرف هو بعد دقائق ، وتكررت نفس القصة بعد ذلك عدة مرات ، ووجدت نفسى لأول مرة منذ ٤ سنوات لا أضيق باقتراب رجل منى .. لكنى لم أستطع أن أحكم على مشاعرى تجاهه .. وبعد تفكير طويل استطعت أن أتوصل إلى حقيقة مشاعرى وهى أن هناك رابطة سحرية غامضة بينى وبين هذه الطفلة اليتيمة وأن هذه الرابطة هى المفتاح الوحيد لوجود أية علاقة إنسانية بينى وبين أبيها .. وصارحته بذلك حين فاتحنى فى أمر الزواج وصارحنى بأنه راقبنى طويلاً خلال العامين الماضيين وسمع قصتى من بعض أعضاء النادى وأحب فى حبى لابنته ثم أحبنى بعد ذلك حبًا صادقًا وصارحته بدورى بأننى لا أستطيع أن أدعى أنى أحبه لكنى لا أعرف ماذا ستحمل لى الأيام بعد ذلك فقبل منى ذلك وطالبنى بالموافقة على الزواج وفكرت فى الأمر عدة أسابيع ثم استشرت أسرتى فأيدونى فتزوجته بعد ٤ سنوات ونصف من رحيل زوجى الأول وأصررت على أن يكون الزواج فى شقتى وعلى أن تكون العصمة فى يدى ورغم أنى لم أتخلص تمامًا من أحزانى .. فلقد وافقت على أن أرتدى ثوب الزفاف الأبيض استجابة لرجاء ياسمين التى قالت لى أنها تريد فرحًا تدعو إليه صديقاتها وأقمنا فى شقته حفلاً صغيرًا حضره الأهل وصديقات ياسمين وحملت ياسمين شمعة طويلة ومشت أمامى سعيدة وابتسامتها تملأ وجهها البرىء الجميل وانتقلنا آخر الليل إلى مسكنى لنبدأ حياتنا الجديدة ومضت حياتنا نحن الثلاثة هادئة مريحة ووجدت فى زوجى الجديد حنينًا شديدًا للاستقرار ورغبة فى إسعادى وإسعاد نفسه بعد ما عانينا من

آلام فاسترحت إليه واستجبت لكل محاولاته للتقرب منى وأحسست بعطف خفى عليه فتجاوبت معه فى كل ما يطلبه أما علاقتى الحقيقية فقد كانت مع ياسمين فلقد أصبحت هى اهتمامى الأساسى .. طعامها ولبسها ومدرستها وحمامها وصديقاتها وكل شىء يتعلق بها .. وازداد تعلق بها حين مضى على زواجى من أبيها عامان فلم أنجب ووجدت فى زوجى إنسانًا طيبًا كريمًا حسن المعاشرة فأحببته بصدق فى العام الثالث من زواجى منه ، أما هو فقد كان قد بلغ قمة حبه لى حتى أصبح يغار أحيانًا من حبى لابنته وشغلتنى ياسمين عن مواصلة تحضير رسالة الدكتوراه فتركتها جانبًا وأصبحت أقضى معظم ساعات المساء فى المذاكرة لها وشرح دروس مدرسة اللغات التى ادخلتها فيها .

والغريب أنى مع حبى لزوجى لم أفقد حبى لزوجى الراحل وإنما استقر فى ركن من قلبى لا يغادره وأفسح إلى جواره مكانًا لحبى الجديد واطمأن قلب زوجى إلىّ ، فتفرغ لعمله وترقى إلى أستاذ مساعد وأعطى فريقه فى النادى كل اهتمامه ، وأصبحنا أنا وياسمين نطوف الملاعب وراءه ونشجعه ، ونسعد بانتصاراته ، وتأكدت من أنه لا حياة لى بعيدًا عنه أو عن ابنته فعرضت عليه أن أتنازل عن العصمة له فرفض لأن ذلك لن يغير من الأمر شيئًا وكان زوجى يبدأ يومه فى الصباح الباكر بالذهاب إلى المعهد ثم يعود إلى البيت ليتناول طعامه ويخرج ماشيًا إلى النادى فينشغل بتدريب الفريق حتى المساء ثم يعود منهكًا . فيمضى ساعتين معنا وينام ، ولأنه كان يرهق نفسه فى التدريب فقد كان ينام بعمق ولا يصحو على جرس المنبه واضطر لإيقاظه عدة مرات حتى يتنبه . وذات صباح رن جرس المنبه حتى توقف رنينه ولم يصح زوجى فبدأت ايقاظه وناديته بصوت خفيض .. ثم بصوت عال ثم بصوت أعلى ثم هززته بيدى ليتنبه .. مرة ومرات ومرات .. ثم صرخت من أعماق حتى تجمع الجيران أمام

باب شقتنا وجاءت ياسمين فزعة فخرجت بها من الغرفة وفتحت باب الشقة فاندفع الجيران إلى الداخل وأنت تعرف الباقى .

فلقد مات زوجى الثانى يا سيدى فى فراشه بلا مرض وبلا شكوى ولا مقدمات بعد أن حرك المشاعر القديمة فى قلبى وأيقظ المارد النائم فيه وأحببته باخلاص وارتبطت به للأبد .. مات بعد ٥ سنوات من الزواج لم أر منه خلالها شيئًا سيئًا ولم يغضبنى مرة ولم نختلف لحظة واحدة .. تمامًا كما مات زوجى الأول بعد ثلاثة سنوات ونصف من الزواج السعيد المشتعل بجذوة الحب وترملت مرة أخرى يا سيدى قبل أن أبلغ الأربعين وارتديت ملابس الحداد مرتين كأنه مكتوب علىّ ألا أسعد طويلاً ومشيت نفس المشوار القديم مرة أخرى .. وشربت من نفس الكأس .. وضعف بصرى مرة أخرى وعدت لارتداء النظارة السوداء .. وروضت نفسى على احتمال الأمر الواقع فأفرغت كل حبى وحرمانى وعواطفى المكبوتة فى ياسمين التى أصبحت يتيمة الأبوين ولم يعد لها فى الدنيا سواى ورتبت حياتى على أن أعيش لها وأن أرعاها وأشرف على تعليمها إلى أن تكبر وتتخرج وتتزوج على يدى وجاء أعمام زوجى يتحسسون الموقف بعد الوفاة فأعلنتهم أنى لن أتنازل عن ياسمين أبدًا ولن أتركها وأكدت لهم ياسمين أنها لن تعيش إلا معى فتركوها معى مطمئنين خاصة أنى تنازلت عن كل ميراثى عن زوجى لها وكتبته باسمها .

ووطنت نفسى على أنه لا نصيب لى فى السعادة أكثر مما حصلت عليه وأن علىّ أن أرضى بنصيبى وبالأيام السعيدة التى عشتها وأن أعيش على ذكرياتها إلى نهاية العمر ، وبدأت انشغل برسالتى للدكتوراه التى أهملتها طويلاً .. وأعطيت ياسمين اهتمامًا كبيرًا وهى فى الشهادة الابتدائية فجاء ترتيبها الأولى على مدرستها وألحقتها بمدرسة إعدادية راقية ستبدأ دراستها بها العام القادم لكن هدوء حياتى

تعكر فجأة منذ أيام حين جاءنى عم ياسمين الأكبر وفاتحنى بعد تردد فى أمر ضم ياسمين إليه ، مبررًا ذلك بأن رغبتى فى احتضانها قد تكون متأثرة بظروف المأساة وأنى قد أراجع نفسى فى ذلك كما أنى كما قال سوف أتزوج فى يوم من الأيام وستجد نفسها غريبة بيننا ، فلم أدعه يكمل حديثه وبكيت طويلاً وأقسمت له أنى لن أتزوج مرة ثالثة بعد أن اكتويت بالنار مرتين وأنى وجدت تعويضى فى ياسمين التى أحببتها وعمرها خمس سنوات حتى أصبحت الآن فى الثانية عشرة وأننى لا أستطيع فراقها .. فسمعنى الرجل بألم ودمعت عيناه وطالبنى بالتفكير وانصرف ، ثم جاء بعد شهر وكرر نفس الحديث وكررت عليه نفس الرد .. وكلما اطمأننت من هذا الجانب سمعت أنه تحدث مرة أخرى مع أمى فى الأمر فأحس بالقلق والمرض .. حتى قلت ساعات نومى وأصابنى اسهال عصبى لم يفلح الأطباء فى علاجه لأنه راجع لأسباب نفسية . إننى لا أريد منك مشورة هذه المرة لكنى أريد منك أن توجه إلى عم ياسمين كلمة تناشده فيها ألا يحرمنى من الضوء الوحيد فى حياتى المظلمة فهو يقرأ لك وقد حدثنى ضمن ما حدثنى عن رسالة قرأها فى بابك عن معاناة الأطفال مع زوجة الأب وزوج الأم وهو يدلل على سلامة رغبته فى ضم ياسمين . فهل تفعل ذلك من أجلى يا سيدى بحق ما عانيته فى حياتى من آلام ؟

□ □ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : لو صح أن تسمى بضع كلمات أخطها على الورق خدمة تستحق الرجاء فإنى أقدمها لك يا سيدتى بكل ترحيب ليس من أجلك فقط وإنما من أجل ياسمين ومن أجل كل القيم والمعانى الإنسانية النبيلة التى يمثلها موقفك من هذه الطفلة المحرومة ويمثلها أيضًا موقف عمها الفاضل منها . فالحق أنه لا خلاف بينكما فى الدوافع السامية ولا فى الأهداف النبيلة لكل منكما ، فإن كان ثمة اختلاف بسيط فهو اختلاف النبلاء أو على الأصح

تنافسهم لتحقيق الغايات الشريفة مما سوف ييسر مهمتى إلى حد كبير ، فأنت يا سيدتى ترغبين فى الاحتفاظ بياسمين وفى استمرار رعايتك لها حتى تكبر وتتخرج وتتزوج فى كفالتك وهو يريد مخلصًا أن يؤدى الأمانة التى أُلقت بها الأقدارالحزينة على عاتقه فيضم ياسمين إلى كفالته أو يطمئن على الأقل إلى أن رغبتك فى رعايتها لم تكن مجرد انفعال عاطفى عابر فى ظروف المأساة وإلى أنك لم تضيقى بهذه المهمة الإنسانية أو ترغبى فى التخفف منها .. فأى نبل فى الدوافع والغايات أكثر من ذلك ؟ وماذا أستطيع أن أقول لك أو لمثل هذا العم الجاد الفاضل سوى أن رعاية ابنة شقيقه هى من حقه شرعًا وقانونًا ، لكن هناك اعتبارات إنسانية ترقى إلى مرتبة أحكام الشرع والقانون حين لا تتعارض مع أهدافها فى تنظيم حياة البشر وإسعادهم لذلك فلا ضرر البتة فى استمرار كفالة هذه السيدة لابنة شقيقك وهى من هى فضلاً وخلقًا وعلمًا وحبًا وعطفًا وحنانًا وهى أيضًا من تزوجت من أبيها فى البداية رغبة فى كفالة هذه الطفلة المحرومة قبل أن يجمع الحب بينهما ولا وجه للعجب فى ذلك يا سيدى والله سبحانه وتعالى يأخذ ويعطى ويمنح ويمنع ويحرم ويعوض ويجمع بين القلوب بخيوط خفية لا يعرف أحد سرها وقد شاءت إرادته أن يهيئ لهذه الطفلة هذه الأم الرءوم ليعوضها حنان أمها التى حرمت منه ويخفف عنها فى مقبل الأيام حرمانها من أبيها ، وليخفف بها هى أيضًا عن هذه السيدة مرارة الكأس التى تجرعتها مرتين ومرارة الوحدة فأى عجب فى ذلك والأمور تجرى بالمقادير ، والأقدار التى تحرم البعض هى نفسها التى تأسو جراح المعذبين .. ولقد لمست بنفسك مدى ارتباط إبنة شقيقك بالأم الوحيدة التى عرفتها فى حياتها حتى الآن وتأكدت بنفسك من صدق نية أرملة شقيقك فى رعايتها بلا غرض ورعاية ابنة فى حد ذاتها مسئولية تنوء بها الكواهل ويفر منها بعض من يتوجب عليهم أداؤها فهون عليك

يا سيدى فليس هناك ما يمنع أبدًا من أدائك لواجبك الإنسانى فى رعاية هذه الطفلة مع استمرار احتضان أرملة شقيقك لها وحتى لو تحققت مخاوفك من أن تتزوج ذات يوم وهو احتمال بعيد فليس هناك ما يمنع من أن تستردها بعد أن تكون قد فازت بسنوات أخرى من العطف والحنان والرعاية وهى الطفلة التى تحتاج فى سنواتها الحرجة القادمة إلى رعاية لا تقدر عليها سوى مثل هذه الأم الفاضلة التى تعتبرها عزاءها وسلواها وهدية الأقدار لها ، فلا داعى للمخاوف ولا للقلق فما أسهل التفاهم بين ذوى النوايا الطيبة .. وما أهون التوفيق بين رغباتهم المبرأة من الهوى والغرض وفى النهاية ياسيدى فليس المشكل فى النصيحة .. وإنما المشكل فى قبولها .. كما قال صادقًا الإمام الغزالى فهل ينطبق ذلك على الفضلاء من أمثالكم ؟ لا . إنما يقبل الفضلاء النصيحة المخلصة حتى لو تعارضت مع هوى نفوسهم ، لهذا فلست أظن أن فضلك وكرمك سوف يسمحان لك بأن تحرم هذه السيدة المكلومة من القيمة الإنسانية الوحيدة فى حياتها الآن .. وشكرًا لك مقدمًا .

الفهـــرس

رقم الإيداع ٧٨٧٤/٩٣
I.S.B.N 977 - 09 - 0163 - 6

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)